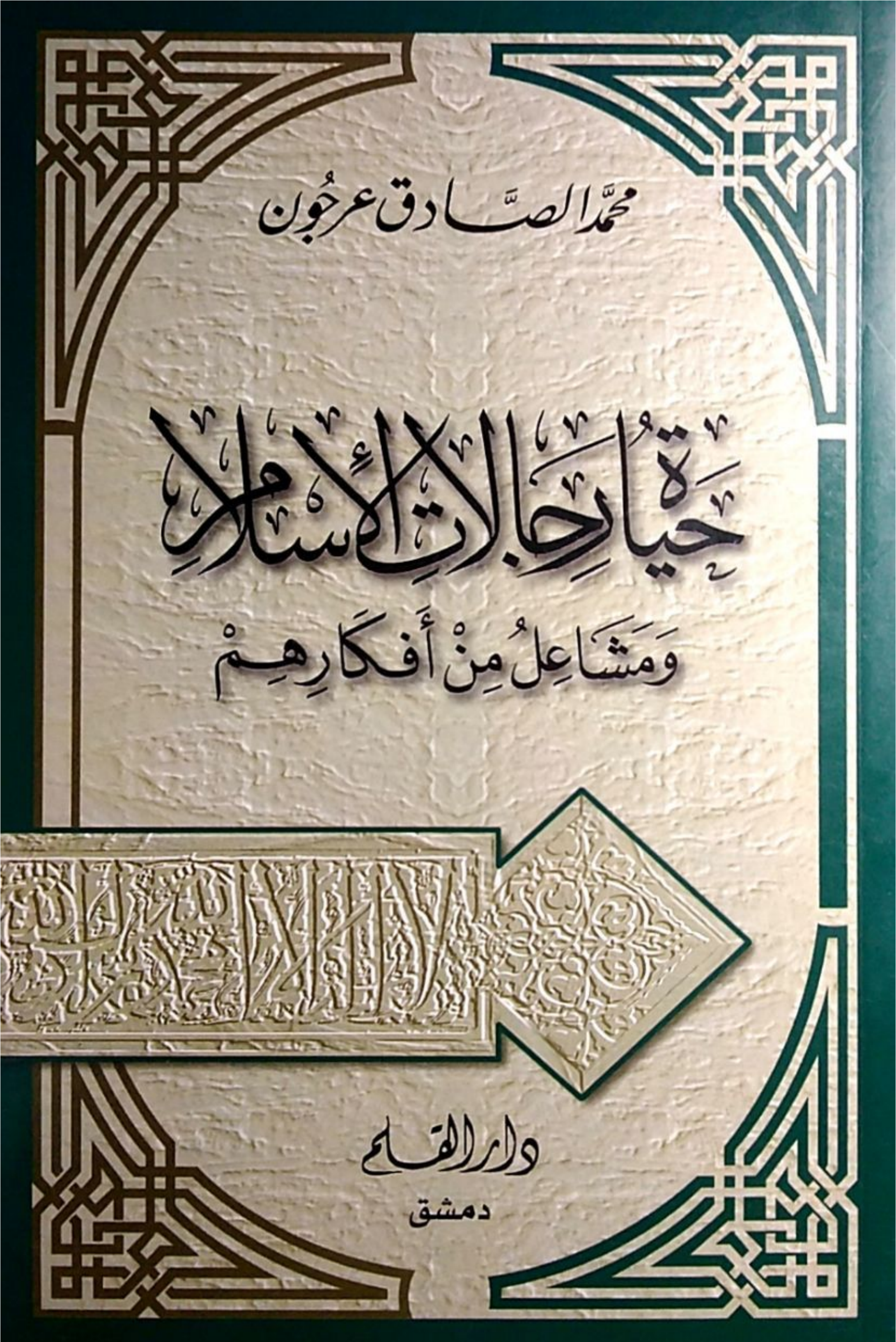

محمد الصادق عرجون
حياة رجالات الإسلام
ومشاعل من أفكارهم
دار القلم
دمشق

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

تطلب جميع كتبنا من:
دار القلم - دمشق: ص.ب: ٤٥٢٣ - ت: ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت: ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة: ٢١٤٦١ - ص.ب: ٢٨٩٥
ت: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١



ومشاعل من أفكارهم

بقلم

محمد الصادق عرجون

دار القلم

دمشق



توطئة وتمهيد

هذه فصول من البحث لم أقصد بها إلى التاريخ، ولا حاولت أن أمسك لها يراعة المؤرخ الذي يسجل ما يشهد في مسرح الحياة، ويكتب ما يُروى عن الغابرين، وهي ليست من التاريخ ببعيد، بل هي منه في الصميم. ولم أقصد بها إلى ترجمة بعض الشخصيات العظيمة في تاريخ الإسلام، وإن كانت حول هذه الترجمة تدور، وليس من همِّها أن تسجل يوم ولادة زيد، ولا عام وفاة عمرو، وليس من همِّها أن تحدِّثك عن البطولة والأبطال في ساحة الوغى والنضال، وليس من همّها أن تفتح بين يدي القارئ صفحة من قصص الوقائع وسرد الأحاديث، فتلك سبيلٌ ميسَّرةٌ للسالكين، ومنهج معبَّد للعابرين، وطريق مألوف للباحثين من القدماء والمُحْدَثين، وفي الأخير: هو وجهٌ من الدراسة تكفلت به كتب التاريخ التي لا يبلغها العد، يعثر عليه من أراده في غير إجهاد ومعاناة أينما وقعت يده على أحدها، ويستشفه بصره حيثما حل في صفحاتها.

وإنما قصدت بها إلى ناحية خاصة في سجل التاريخ الإسلامي، هي أضوأ نواحيه وأجدرها بالعناية الدارسة والتأمل الباحث، تلك هي ناحية تأريخ الفكر الإسلامي على ضوء ترجمة أشهر رجاله وقادته من علماء الملة ومفكريها، والوقوف عند آرائهم ونظرياتهم في شتى

الفنون ومختلف العلوم وفنون المعارف، وما أفاده الإسلام من تلك النظريات، وما كسبته الإنسانية من ورائها، لنكشف بها عن آيات الجلال الفكري في حياة الإسلام المباركة، وآية التاريخ في الاعتبار بتقلباته، والإفادة من أحداثه، وسر العبرة في التأسي، وطريق التأسي التحليل والتعليل، ورد النتائج إلى مقدماتها، وربط الأسباب بمسبباتها، فذلك أبلغ في تصوير البواعث النفسية لتكوين التاريخ الفكري على ضوء الظواهر الاجتماعية.

والتاريخ الإسلامي أحفل التواريخ بمواطن العبر، والمسلمون اليوم أحوج ما يكونون إلى بعث ماضيهم واستثارة دفائن تاريخهم الذي يضم بين جنباته ثروة فكرية لا تفنى، وكنوزاً علمية لا تنفد، لا يقتضيهم بعثها سوى عزيمة صارمة، وصبر على لأواء البحث وجهاد التفكير.

وتاريخ الفكر الإسلامي واسع المدى، مترامي الأرجاء، متعدد المناحي، عميق الغور، لأنه تاريخ التشريع وتعرف أطواره، واتجاه مذاهب الفقهاء في فهمه وتدوينه، وتاريخ الفلسفة الإسلامية ومنشؤها وصلتها بالفلسفات القديمة والحديثة، وتاريخ العلوم العربية على اختلاف فنونها، وليس يكفي في القيام بحق هذا التاريخ وبسطه كتابة فصول محدودة الغاية، فما تبلغ من بدايته أول سطورها حتى تكون قد أنافت على ذروة نهايتها، ولم تقض من لبنات الباحث أدناها، وإذا لم يكن في طوق البحث أن يعتمد على التفصيل، فقد يكون في الإجمال بعض الغَناء؛ لأنه لا يخلو من تنبيه إلى مشارف الآراء ومعاقد الأفكار، وهذا وإن لم ينقع غلَّة الصادي، فيه مقنع

للشادي، وحسبك أن تقف على باب الصحراء لتهدي السابلة إلى فجاجها، وهم مع إدمان السير واصلون إلى النهاية آمنين.

وسأحاول في هذه الفصول أن أتحدث عن قيادة الفكر في تاريخ الإسلام في إجمال لا يحجب وراءه معنى يقتضيه البحث، جاعلاً أشهر شخصيات قادة الفكر موضوع هذا الحديث، موجهاً عناية البحث إلى مناحيهم الفكرية وآثارهم العلمية، عارضاً ذلك في شيء من التحليل بقدر ما يصل إليه جهدي على ضوء ما ثبت عنهم من النقل في مصادره الوثيقة الصادقة، غير متعرض لشيء من حياتهم إلا بقدر ما يتصل بأفكارهم، ومن ثم كانت هذه الفصول ترجمة علمية لمن نوفق لعرض حياته الفكرية في مرآتها.

يحاول أنصار مذهب النشوء والترقي أن يقيموا دعائم نظريتهم على أساس افتراض (التطور) الطبيعي لتكوين الإنسان المادي في حيز الكائنات الأولية، بعيداً أشد البعد عن عوالم الحيوانية، بله العقل والتفكير، ثم إلى السذاجة الفكرية المطلقة منذ أول عهده بالحياة بشراً سوياً إلى أحقاب متطاولة وأعصر متعاقبة، تدرَّج في مدارجها، وترقى في مراقيها من حالة الحيوانية الوحشية إلى حالة الإنسانية العاقلة المفكرة، فالتفكير في نظرهم لم يولد مع الإنسان، وإنما هو شيء اكتسبه اكتساباً من طريق (التطور) في طبيعته وتكوينه المادي بمرور الأحقاب.

وهذا مذهب قد تولت الأبحاث الحديثة فيما وراء المادة مناضلته بسلاحه العلمي، وهو نفسه يقرر أن البقاء للأصلح، وسواء

أكان الإنسان خلق مفكراً كما تثبته حياته الدينية في أطوارها المختلفة، واستشعاره قوة غيبية تسيطر عليه وعلى جميع ما يشهد من كائنات، يصوّرها في كل ما يتخيل فيه القوة القاهرة تبعاً لتأثراته الفكرية وبعده عن الهداية الإلهية، وكما تقرره الكتب السماوية، وكما تشهد به الأبحاث الروحية الحديثة، أم خلق عريّاً عن التفكير إطلاقاً كما يزعمه الماديون من أتباع النشوئيين، فإن التاريخ أثبت للإنسان منذ أقدم العصور تفكيراً يسمو على مضائق المادة في مواطن متعددة من الكرة الأرضية، وأجناس مختلفة.

فقد عرف التاريخ منذ آلاف السنين حضارة قدامى المصريين العلمية، وعرف أنها ثمرة من ثمرات حياتهم الفكرية التي تركت آثارها الناطقة لتدل على مكانتها، وقبل ذلك بعصور سحيقة عرف التاريخ مدنيـة الصينيين ومَن جاورهم من الأجنـاس الآرية، وعرف فلسفتهم وصناعاتهم الدقيقة، وعرف أنها صدى لما وصلوا إليه من التفكير الناضج والعقل الكامل، ثم عرف عن الآشوريين والفينيقيين والبابليين والحمورابيين حياةً فكرية خصبة تراءت في تلك القوانين والشرائع التي سجلتها آثارهم.

وعرف إلى جانبها شيئاً عن حياة المعينيين في جنوب الجزيرة العربيـة، وعن خلفائهم السبئيين ونهضتهم التجاريـة والصنـاعية وآثارهم الهندسية، وعرف غيرهم كثيراً من الأمم التي بلغت في الحضارة والحياة الفكرية مبلغاً أعدها لأن تضع في بناء المجتمع البشري لبنة من تاريخها، ولا يزال في غيب التاريخ كثير من الأمم المتقادمة والأجيال البائدة ممن طواهم الزمن في ضميره، وأسدل

عليهم حجاباً كثيفاً من الجهالة والنسيان.

وإذا اقترب الزمن بالحياة عرفت من نفسها ما كانت تجهل، فقيّدته غضاً طرياً، وسجلته ناضراً ندياً، فأدركه التاريخ جديداً زكياً، وتنقل به في مراحل الحياة صورة لجيل من الناس وهو في حقيقته مرآة للمجتمع الإنساني المتحدر مع الزمن في أجيال لا يأخذها الإحصاء.

هذه الحضارة الإغريقية والفلسفة اليونانية التي وضعها التاريخ تحت هذه العَنْوَنة الخاصة، وتناقلها الناس على أنها صورة للفكر اليوناني، ليست إلا سلسلة من الحلقات المتصلة من مجموع حضارات الأمم التي سبقت اليونان في الوجود المادي والوجود الفكري، أظهرها فلاسفة اليونان في صورة من عقليتهم وتفكيرهم، ومن يدهم أخذها وارثوهم من الرومان والفرس أولاً، ومن العرب ثانياً، فاتسمت بسمتهم، وتسمَّت باسمهم.

فقد حدثنا التاريخ عن رحلة فيثاغورث إلى المدارس المصرية القديمة، وحدثنا عن رحلات أفلاطون أسيراً ومفكّراً إلى بلاد كان للفكر فيها حظ عظيم حتى عاد منها إلى وطنه فيلسوفاً ومعلماً، وحدثنا عن تلك الحروب الهائلة التي قاد جيوشها الشاب الفيلسوف الإسكندر المقدوني، يكتنف حفافيه علماء أمته وفلاسفتها، وتخطَّى بها المعمور من الأرض، وجاس معها خلال أقطار تتوطنها أجناس من الناس مختلفة الألسنة والألوان والأخلاق والتفكير، فمزجت شعوبها مزجاً وحَّد تفكيرها وزاوج بين عناصرها، وحدثنا عن

تجاذب الأفكار بين العلماء والفلاسفة تجاذباً قرب اتجاهها، وحدثنا عن تآخي كثير من الحضارات تحت راية واحدة.

وهكذا يجد من يدرس تاريخ الفكر الإنساني صورة مجملة على ما بها من غموض، فإنها تعطي أن التفكير ثمرة الإنسانية في أجناسها المختلفة، وليس وقفاً على أمة من الأمم أو جنس من الأجناس، وإنما تمتاز فيه أمة على أمة بما تضفيه على الحياة الفكرية من طابع بيئتها وحياتها الاجتماعية، وبما تصبها فيه من أسلوب خاص يطبعها بطابع عقلية تلك الأمة، وبما تضيفه إليها من صور الفكر الموضعية، وبما تمدها به من الشواهد العملية مما يقربها إلى نواميس الوجود، وبما ينفي عنها التحريف والتضليل، ويصفِّيها من الخرافات والأباطيل.

وقد أخذت تلك الصورة تتضح في ظل العقل اليوناني حتى اكتملت قوية باهرة في عهد عقول الفلاسفة الثلاثة: سقراط الحكيم، وأفلاطون العظيم، وتلميذه أرسطو الذي أكسب الفلسفة شخصية علمية تمثلت في مؤلفاته ومؤلفات أستاذه أفلاطون، ومؤلفات تلاميذهما، ومن تفلسف بعدهم، وقد أضفى أرسطو على الفلسفة من طابع شخصيته وبيئته وحياته الاجتماعية وخصائص أمته ما جعلها خصيصة به وبها، وصبَّها في أسلوب منطقي ابتدعه لها ابتداعاً، وأمدها بكثير من الشواهد العملية والتجارب الواقعية، وقرَّبها إلى سنن الوجود، وصفَّاها من خيالات أستاذه أفلاطون المثالية، ورد نظرياتها إلى الواقع في كثير من جوانبها.

بقي الفكر الإنساني عيالاً على فلاسفة اليونان في نظرياتهم

التي أسسوا عليها أكثر فنون الفلسفة، وفي مكان القيادة منهم أرسطو الذي كان بحق كما لقبه تلاميذ عقله من فلاسفة العرب: (المعلم الأول). وإذا كان لسقراط الفضل الأول في توجيه العقل الإنساني إلى السمو بنفسه عن مضائق المادة وهتك حجبها والنفاذ إلى ما وراء سجفها من عوالم روحانية سامية، فإن أرسطو هو صاحب الطريقة الإنشائية في ترتيب الموجودات ترتيباً علمياً يعتمد على قوانين ثابتة منتزعة من طبائعها وخصائصها، وهو الذي كشف عن الصلة بين عالم المادة وعالم الروح، وربط بينهما بقابلية الانفعال لتأثير روح أزلي قاهر محيط بكل موجود إحاطة رعاية وتدبير.

عندئذ كان الفكر الإنساني قد وصل من طريق الفلسفة إلى القمة، ولكنه لم يستطع أن يثبت في عليائه، بل انحدر من طريق البيئة الاجتماعية إلى حضيض الوثنية، فإن أولئك الحكماء الذين ارتقوا به إلى الذروة هم أنفسهم ـ إذا استثنينا سقراط الذي قدم حياته قرباناً فدى به عقله وروحانيته ـ الذين انحدروا به إلى الحضيض مسايرة للدهماء.

ففي الوقت الذي كان يقرر فيه أرسطو ومن قبله أستاذه أفلاطون نظرياتهم الإلـٰهية كانت الوثنية الحمقاء تجرفهم أمامها في غمار الدهماء من عامة الشعب وخاصته، وكانت معابد أثينا ومحافلها تعج بتماثيل آلهتهم وأصنامهم التي كانوا لها عاكفين، وقد كان لخيال شعرائهم وروائييهم من أحاديث تلك الآلهة في تخاصمها وتصالحها مادة خصبة أكسبت آدابهم لوناً من التصوير الخرافي يدفعك إلى الابتسام والسخرية دفعاً لا اختيار لك فيه، ولا شك أن هذه كبوة من

كبوات الفكر التي أظلعته فلم يستطع معها أن ينهض وحده، وبقي مغلولاً بغلِّها حتى افتكَّتْه الديانات السماوية، وكشفت عنه حجاب الضلالة وهدته إلى أقوم طريق.

كان طبيعياً بعد إذ وصل الفكر الإنساني إلى هذا الطور الفلسفي أن يتحرك في سمت جديد ليبدأ طوراً جديداً في بيئة جديدة، فانتقل بتراثه الفلسفي إلى الرومان وارثي ثورة اليونان العلمية، وهؤلاء الرومان لم تكن لهم العقلية الفلسفية المعقدة التي كانت عند اليونان، وإنما كانت لهم عقلية اجتماعية اتخذها الفكر مراحاً لجولاته، وقنع في ظلها من الفلسفة بالشرح والتلخيص والاستنباط، واتجه إلى تنظيم الجماعة تنظيماً قانونياً، كان من أثره إخراج الفقه الروماني الذي اعتبرته الأمم دستوراً تستمد منه شرائعها الوضعية، وهنا يظهر فيصل ما بين التفكير الفلسفي والتفكير الاجتماعي، لأن الفكر في الأول يكون قائداً ذا سلطان لا يحد، وفي الثاني يكون قائداً مقيداً بالبيئة الاجتماعية التي يشرع لها، وفي هذا ما يكشف لنا عن أخطاء الشرائع الوضعية، ولا سيما التي لم تتأثر بشيء من الشرائع السماوية، في تكييفها للجماعة البشرية، وتقسيمها إلى طبقات بينها من التفاوت ما بين العجماوات وأرقى طبقات الإنسان.

وقد عنيت الشرائع الإلهية أشد العناية بتصحيح خطأ الفكر الاجتماعي في التشريع، كما عنيت بتصحيح خطئه الفلسفي في العقائد، وكان النضال بينهما على أشده، فلم يقف عند حد الصراع الفكري، بل اتخذ في كثير من الأحوال شكل التناحر الماديّ، وقد أنبأنا التاريخ أن المسيحية لم تستقر في روما إلا بعد أن صليت بنار الخصومة الوثنية، وجرت دماء شهدائها دفاعاً عن عقيدتها الدينية.

ولم يقف الفكر الفلسفي أمام هذا الانتصار الذي أحرزته الفكرة الدينية عاجزاً مستسلماً، ولكنه واثبها في ميدان آخر، فذهب مع أنصاره المشردين إلى مدرسة الإسكندرية حيث وجد هناك كنفاً موطأ، وجناحاً مخفوضاً، وامتزج رجال الفكر من الفلاسفة برجال الدين من الكهنة، وتآخت الفلسفة مع الدين على ما بينهما من فوارق طبيعية وكسبية، واستخدم رجال الدين أساليب الفلسفة المعمَّاة في تصوير بعض العقائد الدينية، وحاول الفلاسفة تطبيق نظرياتهم الفلسفية على قواعد الدين.

وقام على هذا الأساس مذهب الأفلاطونية الحديثة مزيجاً من الفلسفة وعقائد الدين، وانتهى به الصراع المحتدم بين المذهبين إلى التسليم والاستسلام من الجانبين، وركن العالم إلى هدنة على دَخَن كانت سبباً في الاضطراب الاجتماعي الذي ساد الأمم في ذلك الحين، وتطلعت النفوس إلى منقذ ينقذها، وكره الفكر الإنساني الخمود الذي أصابه في ظل المهادنة البليدة، واشرأب إلى أفق جديد يسطع منه أكمل نوراً، وأوضح حجة، وأعمق أثراً، وأعم نفعاً، وأصدق قيلاً، وأخلد قبيلاً، فكان ذلك الأفق هو الإسلام، وفيه بدأ الفكر الإنساني طوراً جديداً بلغ به نهاية عظمته، وتبوأ عرش الخلود في ظل القرآن الكريم.

كان الفكر قبل الإسلام فلسفياً في كنف الفلسفة، وتشريعياً في كنف الفقه والتشريع، وسياسياً في بيئة السياسة، واجتماعياً في ظل الاجتماع، وكانت له في كل مرحلة من أولئك عثرة ترجف منها قوائمه، فلما جاء الإسلام احتضنه، وأعظم شأنه، ونشر لواءه،

وأعلى كلمته، وجعله المهيمن على منافذ الحياة كلها. والإسلام دين تشريع وفلسفة واجتماع وأخلاق، يسمو بالفرد والجماعة من طريق تكميل خصائصهما الطبيعية، وتوجيه رغائبهما وجهة الخير والإصلاح، فكان مجال الفكر فيه أرحب ساحة، وأوسع مدى، وأحكم غاية، وأسد طريقاً، وأقرب غرضاً، وأحمد عاقبة، وأجمع لمناحي الوجود، فهو في ظل الإسلام سياسي تشريعي، واجتماعي خلقي، وفلسفي علمي، لا تطغى به ناحية على ناحية، غير أن حيوية الإسلام القاهرة جعلت من روحه قوة مسيطرة على الفكر تسدده في سيره، فأخذته بالتربية المتدرجة بعد أن أحاطته علماً بسمو حقيقته.

وكان طبيعياً أن تكون أول جولاته في مضمار التشريع وتنظيم الجماعة الإسلامية تنظيماً اجتماعياً وسياسياً، فإنها كانت أول أمرها أحوج ما تكون إلى هذا التنظيم، ثم اتجه إلى ساحة العلوم والفنون فأحكم أمرها، ومنها أخذ سمته إلى الفلسفة حتى استولى فيها على الأمد، وها هوذا يعمل الآن في تحقيق ما ابتدع من نظريات وما رتب من حقائق، وإبرازها في صورة عملية حية، ولكن في أفق آخر جديد.

وسأحاول أن أصور مراحله الإسلامية في أشخاص قادته في تاريخ الإسلام، غير متقيد بترتيب زمني، ولكن بقدر ما يتسع له جهدي ويسعفني به الاطلاع، عسى أن يبعث ذلك في نفوس المسلمين عامة وشباب الإسلام خاصة روحاً من الحمية، تدفعهم إلى النهوض الفكري، حتى يكون لهم من العز والسؤدد ما كان لأسلافهم الأولين.

* * *

أبو بكر الصديق

ـ ١ ـ

آية النبوة الأولى، ومَثَل الإسلام الأعلى، وصنيعة الوحي المثلى، ومعجزة الشريعة الكبرى، ومَظهر أسرارها، ومهبط عرفانها؛ مَغذى التقى، ومراح الهدى، ومثوى الإخلاص، وكهف الإيمان، وملجأ الأمة إذا ادلهمَّت أمورها، ومأرِز الدين عند تفاقم الخطوب؛ شيخ المؤمنين، وأول الخلفاء الراشدين، الذي رأب شعب الأمة، وكشف بحزمه عنها الغمة، وجمع بحكمته لها الكلمة، ولمّ شعث المسلمين، وشتت شمل المنافقين، وقهر المرتدين، وأعاد الدين فتياً قوياً، عظيماً قاهراً؛ أرجح الناس بعد رسول الله ﷺ إيماناً، وأصفاهم سريرة، وأطهرهم خليقة، وأنقاهم فطرة، وأرسخهم يقيناً، وأعظمهم ديناً، وأكملهم نفساً، وأرهفهم حساً، وأهداهم عقلاً، وأخصبهم إنسانية؛ أرحم المؤمنين بالمؤمنين؛ أعز الله به الدين، وأيَّد به اليقين، وشد به أزر سيد المرسلين.

عظمة مستسرة، ونبل يكنفه الجلال، وعبقرية فذة غامرة، سارت في شوطها على سواء، كالحلقة المفرغة، لا يعرف أين بدأت، ولا أين انتهت؛ سمو مفطور، وكمال منشور، وفضل منظور، وسَمْت

مشهور، وأدب من السماء مصدره، ومن قدس العزة مورده. وما وزن الحياة لرجل: عمر بن الخطاب، فاروق الإسلام، وهو مَنْ هو، في دوي عظمته وجلاله، إنما هو حسـنة من حسـناته، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وهم في فنون الشرف والعبقرية من هم، إنما كانوا دعوة من دعواته!.

وفي الحق إن الباحث في شخصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه ليحار، ويأخذه البُهر إذا أراد أن يعرض لها صورة تحليلية؛ فهي كالشـمس، يراها الناظر، ولكنـه لا يستطيع أن يسـبر بنظره الكليل غورها، أو يتعرف كنهها، أو يحيط بفنون ألوان أشعتها، فهو يحس حرارتها، ويـرى ضوءها، ويشهد بؤرتها، ولكنه لا يسـتطيع أن يحصي عناصر تكوينها.

كذلـك كان موقفي حين أخذت القلم لأكتـب عن الصدّيـق الأعظم، فأنا أعلم وأومن أنه أفضل المسلمين وأعظمهم، ولكن ما هي عناصر هذا السمو الذي أخذ بأرجاء الأرض ثم صعد حتى لاط بالسـماء؟ ها هي ذِهْ أشعة سـموّ الصدِّيق تضرب بأكناف الدنيا، فأنا أراها وأحسها، ويغمرني الشعور بها، ولكني عاجز عن حصرها، فتهيَّبْتُ أن أكتب في سيرته على غرار ما كتبت في سيرة الخالدين من رجالات الإسلام؛ وكان الصديق رضوان الله عليه أحق بالتقدمة؛ وهذا هو سر الاعتذار عن مجاوزة هذا الحق، لأني خشيت أن يأخذ بي الحديث عنه في سمت لا تواتيني عدتي على إكمال شوطه، فأردت أن أستأنس بسيرة من استطاع التاريخ أن يرسم لهم صوراً مقاربة تلمع من ثناياها أضواء حياتهم، حتى يكون ذلك وسيلة لرسم

صورة مجملة لشخصية الصديق تفي ببعض الحق، وتوحي إلى قادة الإصلاح في عصرنا طرائق من الخير تعتمد على منازع نفسية من صنع الضمير، ولا تأبه لهذه المظاهر الجوفاء، ولا تعبأ بصخب الحياة واضطرابها.

في الحديث الشريف أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «تذاكر رسول الله ﷺ وأبو بكر ميلادهما عندي، فكان النبي ﷺ أكبر». والنسَّابة يذكرون أن أبا بكر ولد بعد الفيل بعامين وأشهر، وهم على شبه اتفاق أن النبي ﷺ ولد عام الفيل، فالفرق بين سنَّيْهما عامان بنقص أو زيادة على اختلاف الروايات، يفرع بهما النبي ﷺ أبا بكر.

وهذا الفرق في المعاصرة لا يمثل شيئاً؛ فأبو بكر تنسم نسيم الحياة في الزمن الذي تشرفت فيه الدنيا بوجود المصطفى ﷺ، وعاش في البلد الذي عاش فيه، والبيئة التي نشأ فيها، فنهد وشب في مكة حول البيت الحرام، من بيت قرشي، في بيئة عامة على أفسد ما تكون، وأحط ما عرف الناس من نظام اجتماعي وكيان خلقي، هي الجزيرة العربية وما تعج به من قبائل متنافرة متناحرة، عاشت على سفك الدماء، ونهب الأموال، وهتك الأعراض؛ يعبدون الأوثان، ويعتقدون الخرافات، ويطوفون بالبيت عرايا، ويتكسبون بأعراض البغايا؛ يدمنون الخمور، ويئدون البنات خيفة العار، ويقتلون الأبناء خشية الإملاق، ويستقسمون بالأزلام، ويذبحون للأصنام، ويلعبون الميسر، ويدينون بالهامة، ويتطيرون، ويتشاءمون، يستوي في ذلك منهم السيد والمسود؛ انغمسوا في حمأتها، واتخذوها

شعارهم، واعتدّوا رذائلها فضائلهم، فتأصلت في نفوسهم، فدافعوا عنها دفاعهم عن حياتهم.

وإلى جانب ذلك البيئةُ الخاصة التي لامست عن قرب أو ملاصقة شخصية أبي بكر في بيت أبي قحافة أحد رجالات بني تيم بن مرة، فرع قريش سيدة القبائل العربية، ذات الفخر والخيلاء، والبطر والكبرياء، والعنجهية الجهلاء، وخادمة البيت الحرام، وحامية الدين، وسادنة الأصنام، وطريق القوافل التجارية غادية ورائحة، وسوق التجارة للعرب عامة، تتبادل فيها سلعها، وتتمازج فيها لهجاتها.

فما أثر هاتين البيئتين في تكوين شخصية أبي بكر؟ وهل استطاعتا أن تجعلا منه مثالاً يضرب لهما كغيره من أبناء العرب؟ أو أن هناك عوامل خفية أو ظاهرة فوق البيئات انتزعت أبا بكر من بيئته وسبكته في غير صوغها، وأقامته على خلاف طرزها؟ إن الشذوذ عما ألف الناس من مناهج الطبيعة وقوانينها كثيراً ما يكون من سنن خالق الطبيعة تدليلاً على إطلاق القدرة الإلهية، وتقييد العقول البشرية في مداها الخاص مهما بلغت من القوة والنفاذ.

نشأ أبو بكر في مكة أم القرى، والعرب على ما هم عليه، لا يحسون بشيء من أحداث الكون إلا ما يجلب لهم الخبز والماء، لا يبالون في سبيل الحصول عليهما أية طريق سلكوا، فلم يكن أبو بكر كأحدهم يشهد مجالسهم، ويقترف آثامهم، ويأتي منكراتهم، ويدين بأباطيلهم، ويعتقد خرافاتهم، ويأبه لترَّهاتهم، ويحفل بمراسم تدينهم.. كلا، ولكنه كان خَلْقاً وحده، وأمة في نفسه؛ رأى أن الخمر

تنقص العقل فحرَّمها على نفسه، وامتنع عن شربها تعززاً وتكرماً، ورأى أن السجود لهذه الأصنام بلادة في الفطرة فترفَّع عنها، ورأى أن وأد البنات سَوْءة في المروءة ووَهْنٌ في العرض فلم يأته مطلقاً، ورأى أن قتل الأولاد خشية الإملاق عجز عن الكسب من أشرف طرائقه فأبى أن يفعله، ورأى في جميع ما عليه قومه من سيِّئ الخصال ومنكر الخلال مطعناً في رجولته ومغمزاً لإنسانيته، فاعتزلهم إلا في المحامد والمكارم؛ قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب: «وكان أبو بكر في الجاهلية وجيهاً رئيساً من رؤساء قريش، وإليه كانت الأشناق، والأشناق الديات، كان إذا حمل شيئاً قالت قريش: صدّقوه، وأمضوا حمالته وحمالة من قام معه أبو بكر، وإن احتملها غيره خذلوه ولم يصدقوه».

ورأى أبو بكر محمد بن عبد الله من بين لِداتِه وأقرانه من شباب قريش أكملهم وأزكاهم، فصادقه ولازمه وجعله قدوته، ومحمد ﷺ أكمل الخليقة نفساً، وأعظمهم خلقاً، وأكبرهم قلباً، وأطهرهم روحاً، وأجلّهم أدباً، وأصدقهم حديثاً، فطرة الله التي فطره عليها؛ فتآلفا وتحابا، وأخذ أبو بكر من أخلاق محمد ما اتسعت له فطرته، وتهيأ له استعداده؛ وهذا هو سر ما اشتهر عن أبي بكر من مشابهته لبعض أخلاق النبي ﷺ قبل النبوة.

ومن أظهر شـواهد ذلك حديث بن الدَّغِنَّة: روى البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: «لم أعقل أبويّ قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا ويأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية، فلما ابتُلي

المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى بلغ بَرْك الغِماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة، فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبـو بكر: أخرجني قـومي، فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي؛ فقال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يَخْرج ولا يُخرَج؛ إنك تكسـب المعدوم، وتصـل الرحم، وتحمـل الكَل، وتقـري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك ببلدك؛ فرجع وارتحل معه ابن الدغنة.

فطاف ابن الدغنـة عشـيةً في أشـراف قريش، فقـال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله، ولايُخرج، أتُخرجون رجلاً يكسب المعدوم؛ ويصل الرحم، ويحمل الكَل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟! فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة، وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليُصلِّ فيها وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره.

ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فيتقذَّف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكَّاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن؛ فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم، فقالوا: إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فانْهَه،

فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان. قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال: قد علمتَ الذي عاقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن تُرجع إليّ ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له؛ فقال أبو بكر: فإني أرد لك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل».

وفي هذا الحديث ضروب من العلم وفنون من الفضائل، وأول ذلك ما يّبدهنا في صدر الحديث من حال النبي ﷺ مع أبي بكر وآله وبيته، ومداومة زيارته لهم طرفي النهار في أشد الأوقات عليه وأحرجها، وذلك يشير إلى ما ذكرناه من اختصاص النبي ﷺ أبا بكر بمودته وصداقته قبل النبوة، فلما جاء الله بأمره إلى رسوله الكريم وقاومته قريش أشد المقاومة، لم يجد في هذا الحرج متنفساً إلا بيت أخيه وصاحبه وحبيبه وصفيّ شبابه أبي بكر يفضي إليه ببعض سره.

وفيه أيضاً أن الأذى اشتد بأبي بكر مع مكانته في قومه، فخرج مهاجراً بدينه.

وفيه أن سيد القارة ابن الدغنة أنكر أن مثل أبي بكر يَخْرج أو يُخْرج من بلده، وأفزعه ذلك معللاً له بذكر بعض مناقب أبي بكر، وهي صفات من أفخر مفاخر العرب، وأفضل فضائل الإنسانية. ومن ألطف ما في ذلك وأبدعه أن هذه الأوصاف النبيلة هي نفسها التي وَصفتْ بها أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها النبيَّ ﷺ في مبدأ الدعوة. قال العلامة ابن حجر في الإصابة: «ومن أعظم مناقب

أبي بكر أن ابن الدغنة سيد القارة لما رد إليه جواره بمكة وصفه بنظير ما وصفت به خديجة النبي ﷺ لما بُعث، فتواردا فيهما على نعت واحد من غير أن يتواطأا على ذلك، وهذا غاية في مدحه، لأن صفات النبي ﷺ منذ نشأ كانت أكمل الصفات».

وفي هذا الحديث أيضاً أن أبا بكر كان مشهوراً معروفاً بين قبائل العرب بالخير والفضائل، حتى أن قريشاً لم تكذِّب بجوار ابن الدغنة حينما أنكر عليهم إخراجه، وهو متصف بجماع الخير والبر؛ ذكر ابن حجر في الإصابة أن ابن إسحاق قال في السيرة الكبرى: «كان أبو بكر رجلاً مَألَفاً[1] لقومه محبباً سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلمهم بما كان منها من خير أو شر، وكان تاجراً ذا خلق ومعروف، وكانوا يألفونه لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته».

وفي هذا الحديث أيضاً إبانة عن أثر الإيمان في نفس أبي بكر ورسوخه أول ما نزل في قلبه. وفيه بيان رقة قلبه وأنه لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن لما يفتح الله عليه من جلائل أسراره.

وفيه بيان أثر الإخلاص في أقسى القلوب وأشدها إعراضاً، حتى أن نساء المشركين وأبناءهم جعلوا يتقذفون على أبي بكر يعجبون منه، وحتى خشي عليهم منه صناديدهم.

وفيه تتجلَّى ثقة أبي بكر رضوان الله عليه بربه عز وجل، وردّه جوار ابن الدغنّة، وركونه إلى حماية الله تبارك وتعالى، ورضاؤه بجواره الكريم.

* * *

---

(١) المألف: الذي يألفه الناس.

ـ ٢ ـ

كلما ازداد الباحث إمعاناً في سيرة الصديق الأكبر رضي الله عنه، ازداد تهيّباً لدراسة حياته دراسة علمية تحليلية، وتصويرها ترجمة تاريخية، لأن حياة أبي بكر من طراز خاص بين شخصيات عظماء الوجود، فليس لها ذلك الدوي الذي يطنُّ في أذن التاريخ لأبطال الحروب، وقادة الجيوش، وزعماء الثورات الانقلابية الكبرى في العالم، ولكنها شخصية تستمد عظمتها الغامرة من منابع الجلال الروحي الذي اختُصَّ به الأنبياء، وآحاد من أتباعهم يأتون على رؤوس مراحل الحياة، رموزاً لروحانية النبوة، ومرايا تنعكس على صفحتها ظلال الهداية الإلـٰهية، ومُثلاً حية تحكي للناس تاريخ إشراق شمس الوحي في آفاق الكون حقبة من الزمن تتصل فيها حلقات الخير والإصلاح.

فهم أقمار الدنيا، والأنبياء شموسها، وللشمس قوتها ووهجها، وللقمر نوره وصفاؤه، ولولا أشعة الشمس ما أضاء القمر، وإذا أشرقت الشمس ذابت في توهجها إشعاعات الكواكب، واحتجبت أجرامها في كِسَف وهّاجة من تموّجات ضوئها، حتى إذا انحرفت الشمس إلى أفق جديد عادت الكواكب سيرتها الأولى نيرة هادية، تختلف في قوة التماعها بحسب مواضعها دنواً من مصدر فيضها.

هكذا تنطبع في النفس صورة أفذاذ الصدِّيقين من حواريي الأنبياء، ووارثي مقامهم في الدعوة إلى الخير والهدى، ومرايا أنفسهم في صفاء السريرة، ومظاهر تعاليمهم في سموها، ومُثل شرائعهم في تكيفهم بها؛ فهم أصدق معجزات الرسل، وأوضحها، وأوفاها، وأسرعها انسلاكاً إلى القلوب، وأدعاها إلى الإيمان، وأهداها إلى اليقين؛ وتاريخ النبوات في جميع مراحل الحياة مُذيَّل بآيات وشواهد من حياة الصدِّيقين، ولكنها مغلّفة لا تُقرأ إلا إذا اكتملت أسفار النبوة، لأنها إعادة لأصدائها، وتذكير بعبرها، وتأكيد لحقائقها، وحفظ لأصولها، وتثبيت لقواعدها.

ومن ثَم كانت هذه العظمة المستسرّة في وداعة الإيمان، والإذعان المطلق في فناء الذات، ما دامت شمس النبوة مشرقة، وما دام منبعها فياضاً بالحياة، هي سر الإعجاز في النبوة، وسر العبقرية في الصدّيقية، وهي نفسها ـ إذا انتقلت شمس النبوة إلى أفق الخلود ـ تلك العَظَمة الفذة الغامرة، القوية القاهرة، التي تتضاءل إلى جانبها كل مفخرة لكل عظيم، وتنماع في تيارها داويات العبقريات.

ذاك أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، نسيج وحده في عظمته الهادئة، تلك العظمة التي هي أعظم شاهد على ما صوَّرنا به حياة أفذاذ الصديقين، صنعه الله على عينه، فانفلت من أغلال بيئته، وتسامى عن عادات قومه، فنشأ فيهم أريباً، نبيلاً، حكيماً، عاقلاً، كريماً، عطوفاً، يواسي الفقراء، ويعين الضعفاء؛ صادق في شبابه، أصفى الناس سريرة، وأطهرهم نفساً، فكانت تلك الصداقة صيقل

نفسه، ومغنى أنسه، ومرهف حسه؛ آمن حيث كفر الناس، وأنفق في سبيل الله حيث أمسك الناس، لم يكد يعرض عليه صديقه وصفيُّ نفسه أنه مرسل من عند الله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، حتى أجاب إلى الإيمان فلم يتلجلج، وأسرع إلى الإسلام فلم يتخلج، فكانت له ذخراً خالداً في سجلّ عَظَمَته على لسان الصادق المصدوق صلوات الله عليه، فقال متحدثاً عن مفخرة الصديقية في السبق إلى الإسلام انسياقاً مع الفطرة الطاهرة: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كَبْوة غير أبي بكر».

فلم يكن شيء أبهج لنفس النبي ﷺ من إسراع أبي بكر في استجابته لدعوته، فسماه الصديق لبداره إلى تصديقه في كل ما جاء به؛ وكان علي بن أبي طالب يحلف أن الله تعالى هو الذي سمَّى أبا بكر على لسان رسوله صدّيقاً.

وهذه لَعَمْر الحقِّ أعظم مزايا أبي بكر في إسلاميته، وبها كان الصدّيق أعظم المسلمين، وأفضل المؤمنين، لأن أبا بكر كان أنف قومه، وكان قومه يضربون بعرق قريح إلى أرومة قريش أعز العرب، حتى لُقِّب لصفاء نسبه عتيقاً؛ ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب، وابن حجر في الإصابة: أن مصعباً الزبيري وطائفة من أهل النسب قالوا: «إنما سُمي أبو بكر عتيقاً لأنه لم يكن في نسبه شيء يعاب به». وكان وجيهاً في العرب، معروفاً بالخير والبر، وكان أنسب العرب، وأعلم قريش بأيامها، وكان من أكثرهم مالاً؛ روى أبو داود في سننه: أنه أسلم وله أربعون ألف درهم. فلم تكن بأبي بكر حاجة إلى التماس

وسيلة من وسائل السيادة الدنيوية في غير ما مكّن له حظه من أسباب.

فما سر الجاذبية التي عرجت بابن أبي قحافة من جاهلية قومه وبلده إلى سماء الإسلام؟ ذلك السر هو خَصيصة عظمة الصديق التي انطوت عليها نفسه منذ عَقدت الحياة بينه وبين حبيبه محمد بن عبد الله أواصر الحب وعرى الصداقة مذ كانا شابين يستوحيان فطرتهما في كراهية ما عليه الناس، فسرت له منه نفحة إنسانية كان بها أبو بكر ذلك الرجل المصطفى لأول قطرة من غيث الهداية الإلهية؛ فلما بعث الله محمداً رحمة للعالمين كان أبو بكر أول منازل تلك الرحمة، فآمن بقلبه وعقله؛ آمن بقلبه لأنه عرف محمداً ﷺ فأحبه وصدقه، وآمن بعقله لأن محمداً ﷺ أرشده إلى كتاب الوجود، فقرأ فيه آيات الله شاهدة على عظيم قدرته وجليل حكمته.

وبهذا كان أبو بكر الصديق أول الناس إيماناً، وأسبقهم إسلاماً، وأرسخهم يقيناً. فالذين يذهبون إلى أسبقية علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى الإسلام إنما يعنون إسلام القلب والعاطفة لأن علياً كرم الله وجهه كان يوم أن جاء الله بالحق والهدى غلاماً يكنفه النبي ﷺ بتربيته، ويرعاه بمحبته، ويخلطه بنفسه، فمن الطَّبَعي أن تكون روحه وعواطفه وإحساساته وشعوره وسلوكه أسيرة توجيه النبي ﷺ، فآمن بقلبه وروحه وعواطفه ومشاعره، وهي كل ما يملك يومئذ من مدارك؛ أما إيمان التكليف والعقل فإنما يكون إذا استوفى العقل مُنّته التكليفية في اعتبار الشريعة المطهرة؛ ولم نعلم أن أحداً من علماء الإسلام زعم أن علياً كرم الله وجهه حين إيمانه صبياً كان

مخاطباً بهذا الإيمان خطاب التكليف .

ومهما يكن من أمر فإن كثيراً من أئمة الإسلام ذهبوا إلى أن أبا بكر رضي الله عنه أول الناس إسلاماً، وفي طليعة الذاهبين إلى هذا حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ روى الموثَّقون من أصحاب السير عن الشعبي أنه قال: سألت ابن عباس: أي الناس كان أول إسلاماً؟ فقال: أما سمعت قول حسان:

إذا تـذكـرتَ شَجْـواً مـن أخـي ثقـة
فـاذكـر أخـاك أبـا بكـر بمـا فعـلا
خيـر البـريـة أتقـاهـا وأعـدلهـا
بعـد النبـي وأوفـاهـا بمـا حمـلا
والثـانـيَ التـالـي المحمـودَ مشهـده
وأول النـاس قِـدْمـاً صـدَّق الـرسـلا
وثـانـي اثنيـن فـي الغـار المنيـف وقـد
طـاف العـدو بـه إذ صعّـد الجبـلا
وكـان حِـبَّ رسـول الله قـد علمـوا
خيـر البـريـة لـم يعـدل بـه رجـلا

وليس استدلال ابن عباس بمجرد شعر حسان، ولكنه راجع في الحقيقة إلى تصديق النبي ﷺ وإقراره، بل استحسانه لشعر حسان؛ روى ابن عبد البر أن رسول الله ﷺ قال لحسان: هل قلت في أبي بكر شيئاً؟ قال: نعم، فقال: قل وأنا أسمع، فأنشده هذه الأبيات، فقال النبي ﷺ: أحسنت يا حسان. وممن ذهب إلى ذلك جماعة من

التابعين، منهم إبراهيم النخعي، وابن الماجشون، ومحمد بن المنكدر، والأخنس، وجَزَم به القسطلاني في مواهبه، فقال: وكان أول ذكر آمن بعدها ـ السيدة خديجة ـ صدّيق الأمة وأسبقها إلى الإسلام أبو بكر، فآزره في الله.

ولعلّنا نستشف ما ذهبنا إليه من توجيه أسبقية إسلام أبي بكر من قول محمد بن الحنفية وقد سئل ـ كما في الإصابة ـ: لأي شيء قُدِّم أبو بكر حتى لا يذكر فيهم غيره؟ قال: لأنه كان أفضلهم إسلاماً حين أسلم، فلم يزل كذلك حتى قبضه الله إليه. وبعض العلماء يذهب إلى التوفيق بين الروايات المختلفة؛ قال الطبري: الأولى التوفيق بين الروايات كلها وتصديقها، فيقال: أول من أسلم مطلقاً خديجة، وأول ذكر أسلم علي بن أبي طالب، وهو صبي لم يبلغ، وكان مستخفياً بإسلامه، وأول رجل عربي بالغ أسلم وأظهر إسلامه أبو بكر بن أبي قحافة. قال القسطلاني في المواهب: ويؤيد هذا ما روي عن الحسن أن علي بن أبي طالب قال: سبقني أبو بكر إلى أربع لم أوتهن: سبقني إلى إفشاء الإسلام، وقدم الهجرة، ومصاحبته في الغار، وإقام الصلاة، وأنا يومئذ بالشِّعب، يُظهر إسلامه وأخفيه.

وهذه الشهادة من أمير المؤمنين أفضل ما يُحْتَجُّ به على مكانة الصدِّيق في الإسلام، وأنه أول الناس بعد النبي ﷺ استطاع أن يجدع أنف الوثنية بإظهار التوحيد، وأن يَجْبَه الباطل بصَوْلة الحق، وأن يَغْشى بالإسلام في محافل غطارفة قريش ورؤوس الشرك، وأن يقف وحده إلى جانب رسول الله ﷺ يناضل معه في سبيل تبليغ دعوته، ويقوم دونه متحملاً معه أشد أنواع الأذى، صابراً محتسباً، يرى أن

أفضل جزاء يناله أن يفدي رسول الله ﷺ بنفسه حتى يبلّغ دعوة ربه.

روى البخاري في الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال: «بينا رسول الله ﷺ بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ فلف ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر فأخذ بمنكبه فدفعه عن رسول الله ﷺ، ثم قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله!». قال العلامة القسطلاني في مواهبه: وقد ذكر العلماء أن أبا بكر رضي الله عنه أفضل من مؤمن آل فرعون، لأن ذاك اقتصر حيث انتصر على اللسان، وأما أبو بكر فأتبع اللسان يداً، ونصر بالقول والفعل محمداً ﷺ.

وقد امتزج الإيمان بروح الصديق وجسمه وحواسه، فلم يهن لأشد الآلام تصيبه في سبيل الله، بل قابلها بفطرته الهادئة الوادعة رضاء بقضاء الله، وتأييداً لرسول الله؛ وإذا ثارت نفسه أو غضبت رجولته فإنما هي الثورة لله، والغضب لدين الله، لا يبالي ما يلاقيه في شخصه أو ماله أو أهله؛ روى ابن عبد البر في الاستيعاب عن أسماء بنت أبي بكر أنهم قالوا لها: ما أشد ما رأيت المشركين بلغوا من رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان المشركون قعوداً في المسجد الحرام، فتذاكروا رسول الله ﷺ وما يقول في آلهتهم، فبينما هم كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ فقاموا إليه، وكانوا إذا سألوه عن شيء صَدَقَهُمْ، فقالوا: ألست تقول في آلهتنا كذا وكذا؟ قال: بلى، فتشبثوا به بأجمعهم، فأتى الصريخ إلى أبي بكر، فقيل له: أدرك صاحبك، فخرج أبو بكر حتى دخل المسجد فوجد رسول الله ﷺ والناس مجتمعون عليه، فقال: ويلكم! أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وقد

جاءكم بالبينات من ربكم؟ فَلهَوْا عن رسول الله ﷺ وأقبلوا على أبي بكر يضربونه، قالت أسماء: فرجع إلينا فجعل لا يمس شيئاً من غدائره إلا جاء معه، وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام! .

وكان أبو بكر رضي الله عنه أول خطيب دعا إلى الله تعالى، وألحّ في إظهار الدعوة، والنبي ﷺ يعبد الله في قلّة من أصحابه مستخفياً، فلم يزل به أبو بكر حتى خرج وأظهر أمر ربه، فنال أبا بكر من الأذى ما كاد أن يأتي على نفسه، فلم يزده ذلك إلا إيماناً وتثبيتاً وحباً لرسول الله ﷺ؛ ذكر ابن هشام وغيره في السيرة «أن رسول الله ﷺ لما دخل دار الأرقم ليعبد الله هو ومن معه من أصحابه سراً، ألحّ أبو بكر رضي الله عنه في الظهور، فقال النبي ﷺ: يا أبا بكر إنا قليل؛ فلم يزل به حتى خرج رسول الله ﷺ ومن معه من الصحابة رضي الله عنهم، وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله ﷺ جالس، ودعا إلى رسول الله؛ فهو أول خطيب دعا إلى الله تعالى.

فثار المشركون على أبي بكر رضي الله عنه وعلى المسلمين يضربونهم، فضربوهم ضرباً شديداً، ووُطئ أبو بكر بالأرجل وضُرب ضرباً شديداً، وصار عتبة بن ربيعة يضرب أبا بكر بنعلين مخصوفتين ويحرفهما إلى وجهه حتى صار لا يُعرف أنفه من وجهه، فجاءت بنو تَيم يتعادون، فأَجْلَتْ المشركين عن أبي بكر إلى أن أدخلوه منزله، ولا يشكّون في موته، ثم رجعوا فدخلوا المسجد، فقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة!

ثم رجعوا إلى أبي بكر، وصار والده أبو قحافة وبنو تيم

يكلمونـه فلا يجيب حتى آخر النهـار، ثم تكلـم وقـال: ما فعـل رسول الله ﷺ؟ فعذلوه فصار يكرر ذلك، فقالت أمه: والله مالي علم بصاحبك، فقال: اذهبي إلى أم جميل فاسأليها عنه، وخرجت إليها وقالت لها أن تسأل عن محمد بن عبد الله، فقالت: لا أعرف محمداً ولا أبـا بكر، ثم قـالت: تريدين أن أخرج معك؟ قالـت: نعـم، فخرجت معها إلى أن جاءت أبا بكر فوجدته صريعاً، فصاحت وقالت: إن قوماً نالوا منك هذا لأهل فسق؛ وإني لأرجو أن ينتقم الله منهم؛ فقال لها أبو بكر رضي الله عنه، ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: هذه أمك! قال: فلا عَيْن عليك منها، قالت: سالم! هو في دار الأرقم، فقال: والله لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله ﷺ!

قالت أمه: فأمهلناه حتى إذا هدأت الرِّجْل وسكن الناس، خرجنا به يتكئ عليّ حتى دخل على رسول الله ﷺ، فرقّ له رقة شديدة، وأكب عليه يقبله، وأكب عليه المسلمون كذلك، فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما بي من بأس إلا ما نال الناس من وجهي، وهذه أمي برّة بولدها فعسى الله أن يستنقذها بك من النار! فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الإسلام فأسلمت».

وفي هذه القصة غير ما قدمناه ضروب من مفاخر الصديق الإسلامية، ففيها أن رؤساء المشركين كانوا يرون في أبي بكر رضي الله عنه شخصية خطيرة عليهم في مؤازرة رسول الله ﷺ، وذلك لما يعرفونه عنه من محاسن الشيم وجليل المناقب، وسعة الثراء، ورفيع المكانة، والشهرة في أحياء العرب، مما سيكون له أعظم الأثر في نشر الدعوة الإسلامية، فكانوا يخصّونه بأقصى ألوان الأذى ليفتنوه

عن دينه، ولكن هيهات للباطل أن يصمد طويلاً لسطوة الحق وقوة الإيمان!.

وفيها إبانة عن مكانـة أبي بكر في قومه بني تيم، وشرفه عندهم، وعظيم منزلته بينهم؛ فقد غضبوا حمية له، وأقسموا إن وقع به شيء ليقتُلُن فيه عتبة، وهو من هو في سادة قريش ورؤساء المشركين.

وفيها أصدق تصوير لما يكنُّه أبو بكر من الحب لرسول الله ﷺ؛ فهو لم يكد يفيق من غشيته لشدة ما ناله حتى يبادر في أول كلمة ينطق بها، وقومه حواليه، وهم على غير دينه: «ما فعل رسول الله ﷺ»؟.

وفيها تصوير لحالة المؤمنين في بدء الإسلام، وأنهم كانوا مفزّعين يخشون كل شيء؛ فهذه أم جميل مؤمنة صادقة الإيمان، لم تأمن أم أبي بكر على شيء من أمر رسول الله ﷺ وصاحبه الصديق، فتنكر معرفتهما، ولكن قلبها يحدثها بشيء، فتحتال حتى تصل إلى أبـي بكر، ولم تملك نفسـها إذ رأته صريعاً أن اندفعت صريحة الإيمان، تدعو بالويل والثبور على من نالوا منه، فيتماسك أبو بكر رغم ما به ويسألها عن رسول الله ﷺ ليطمئن على حياته المفداة، فتأبى إلا الحذر والشك في أم أبي بكر، لأنها كانت لا تزال على دين قومها، فيكشف لها الصديق عن ثقته في أمه، وتخبره حين تطمئن إلى أنه لا عين عليها، أن رسول الله ﷺ في عافية من كلاءة الله ورعايته.

وهنا تتجلى خصائص الإيمان الصديقي، وتظهر معجزة الحب الذي ينسى أمرّ الآلام؛ فأبو بكر لم يكد يسمع بعافية رسول الله ﷺ حتى ينسى ما حلَّ به، ويتحامل على نفسه وعلى أمه ليرى رسول الله ﷺ

ويطمئن عليـه، فيرق له رقة شـديدة، ويكب عليـه يقبّله، ويقبلـه المسلمون.

موقفٌ تعجز أبرع الأقلام وأَبْيَنُها، وأنطق الألسنة وأفصحها، عن كشف سرائره العاطفية، وآياته الوجدانية البالغة، ولكنه مُعَبِّر عن نفسه بصورته وآثاره؛ وحسبك أنه سرت منه نفحة إلى قلب أم الصديق، وقد جاءت تسند ولدها ليرى حبيبه، وهي مشركة، وعادت معه بدعوة رسول الله ﷺ تمشي في فجاج الخلد إلى عليّين!.

* * *

- ٣ -

انطوى أبو بكر على الإسلام، لأنه رأى في مرآة آدابه حقيقة نفسه، ولقي في سماحته عناصر فطرته؛ وانطوى الإسلام على أبي بكر، لأن شخصيته كانت صورة حية لأرفع تعاليمه وأسمى معاني روحانيته، فسيط الإيمان بلحمه ودمه، وامتزج بروحه وعقله، فباع الصدّيق نفسه لله سمحاً بها رضياً، وغدت حياته فداءً لرسول الله، ولدين الله، وغدا ماله ـ وما هو بقليل المال ـ رفداً في سبيل الله، وغدا أهله وولده ووطنه قرباناً لرضاء الله.

أوذي رضي الله عنه حتى كادت نفسه تتلف، فلم يكن له هم في نفسه وحياته، وإنما كان همه الأعظم في عافية رسول الله وسلامته، لأن في سلامة الرسول وعافيته حياةَ الإنسانية وتخليصها من عار الوثنية، ورفع شأوها إلى ما هيئت له من سيادة الوجود وتحرير الأفكار عندما تبلغ رشدها، فإن يهلك أبو بكر فإنما هو رجل واحد من الناس يموت كما يموت الناس، وإن يُصَب رسول الله ﷺ فإنما هو الحق، والخير، والهدى، والنور، والبر، والرحمة، والعدل، والإحسان، تُمحى من سجل الحياة فيذوي عودها، ويجف ماؤها، فإذا هي شجرة مصوّحة في أرض قاحلة، لا تثمر عاطفة من عواطف الخير، ولا ينبت على أديمها إحساس من أحاسيس البر والإحسان.

هكذا كان أبو بكر يقدر حياته إلى جانب حياة رسول الله ﷺ؛ وهكذا أدرك أبو بكر مهمة رسول الله في بَعْثته رحمة للوجود؛ روى الزمخشري في كشّافه: أن المشركين لما طلعوا فوق الغار أشفق أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ فقال: «إن تُصب اليوم ذهب دين الله»، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»؟.
وفي مواهب القسطلاني: أن أبا بكر لما رأى القافة اشتد حزنه على رسول الله ﷺ، وقال: «إن قتلت أنا فإنما أنا رجل واحد، وإن قُتلت أنت هلكت الأمة»، فعندئذ قال له رسول الله ﷺ: «لا تحزن إن الله معنا».

ولأرباب القلوب من الأصفياء هنا كلام لطيف تأنس به الأرواح في عروجها إلى منازل التقديس، وتهش له العقول المهيأة لتلقِّي أسرار الوجود؛ قال العارف شمس الدين بن اللبان: «وتأمل قول موسى عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾، وقول نبينا ﷺ للصديق: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾، فموسى خُصّ بشهود المعية ولم يتعدَّ منه إلى أتباعه، ونبينا تعدَّى منه إلى الصديق، ولم يقل: «معي»؛ لأنه أمدَّ أبا بكر بنوره فشهد سر المعية، ومن ثَم سرى سر السكينة على أبي بكر، وإلا لم يثبت تحت أعباء هذا التجلي والشهود؛ وأين معية الربوبية في قصة موسى عليه السلام من معية الإلهية في قصة نبينا ﷺ».

ثم تأمل في أن نبي الله صلوات الله عليه لما رأى حزن الصدِّيق قد اشتد إشفاقاً عليه، جذب روحه إلى مسارح الأنس بشهود المعية، وقوّى قلبه ببشارة ﴿ لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ ليكون الخبر من

الحبيب حكاية ليقين الشهود، وكانت تحفة (ثاني اثنين) مدخرة له دون الجميع، فهو الثاني في الإسلام، والثاني في بذل النفس والعمر، لمَّا وقى الرسول ﷺ بماله ونفسه جوزي بمواراته معه في رِمْسه تخليداً لخصيصة الصدِّيقية، وإلى هذه الخصيصة يشير أبو محجن الثقفي في قوله:

وسُمّيتَ صدِّيقاً وكل مهاجر ... سِواك يسمى باسمه غير منكر
سبقت إلى الإسلام والله شاهد ... وكنت جليساً بالعريش المشهّر
وبالغار إذ سميت بالغار صاحباً ... وكنت رفيقاً للنبي المطهر

وإليها يشير ما يرويه أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب: أن رجلاً من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ قال في مجلس فيه القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق: والله ما كان لرسول الله ﷺ من موطن إلا وعليّ معه فيه! فقال القاسم: يا أخي لا تحلف، قال: هلمَّ، قال: بلى، ما لا ترده، قال الله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾.

وقد كان إشفاق أبي بكر رضي الله عنه على النبي ﷺ أبلغ وأعظم مما تتصوره الأفكار ويرسمه الخيال، ففي قصة الهجرة أن أبا بكر رضي الله عنه لما خرج مع رسول الله ﷺ متوجهاً إلى الغار جعل طوراً يمشي أمامه، وطوراً يمشي خلفه، وطوراً عن يمينه، وطوراً عن شماله، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما هذا يا أبا بكر»؟ فقال: يا رسول الله أذكر الرصيد فأحب أن أكون أمامك، وأتخوف الطلب فأحب أن أكون خلفك، وأحفظ الطريق يميناً وشمالاً! فقال عليه الصلاة والسلام، إيناساً وتثبيتاً للصديق: «لا بأس عليك ياأبا بكر، الله معنا».

ولما وصلا إلى الغار أراد النبي ﷺ أن يدخله، فقال له أبو بكر: والذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخل فأسبره قبلك! فدخل الصديق رضي الله تعالى عنه قبل رسول الله ﷺ ليقيه بنفسه، فجعل يتلمس بيديه جوانب الغار وزواياه في ظلمة الليل مخافة أن يكون فيه شيء يؤذي رسول الله، فرأى أجحاراً متعددة، فعمد إلى أثوابه يقطع منها ما يسد به الأجحار، وبقي جحر لم يجد له ما يسده، فجلس قريباً منه وألقمه عقبه، فجعلت الحيات والأفاعي تضربنه وتلسعنه، ورسول الله قد نام ووضع رأسه في حجره، فجعلت دموعه تنحدر من شدة الألم وهو لا يتحرك، حرصاً على راحة رسول الله ﷺ لئلا يوقظه بعد ما لقي من جهد جهيد استبكى أبا بكر، فقال: «نظرت إلى قدمي رسول الله ﷺ في الغار وقد تقطرتا دماً، فاستبكيت وعلمت أنه ﷺ لم يكن تعود الحفا والجفوة». ولكن دموع الصديق غلبته فسقطت على وجه رسول الله ﷺ، فقال: «ما لك يا أبا بكر»؟ فقال: «لدغت فداك أبي وأمي»! فتفل رسول الله ﷺ على موضعها فذهب ما يجده.

وفي خبر سراقة بن جعشم المدلجي أنه تعرض لرسول الله وصاحبه في طريق هجرتهما، فبكى أبو بكر، وقال: يا رسول الله أُتينا! فقال: «كلا». قال سراقة: فركبت فرسي تقرّب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت يدا فرسي، فسألتهما الأمان، فأمّناني، وقالا: أَخْفِ عنا.

هذه أحاديث تنطوي عليها سيرة النبي ﷺ وسيرة صاحبه الصديق الأعظم، يقرؤها كثير من الناس عابرين، دون أن يقفوا

معهـا وقفة البصيـرة النيرة، والفكرة النفـاذة، والفطـرة الصقيلـة، ليستوحوا منها دروس العبرة الصادقـة، والعِظَـة البالغة، والأسـوة الفاضلة، ولتكون لأنفسهم ضياء، ولأرواحهم غذاء، ولكننا نحن هنا لا نريد أن نتعجل الخطو، لأن من أهم أمرنا في كتابة سيرة رجالات الإسلام وبناة مجده، أن تكون دروساً لنا ولأبنائنا من طلاب العلم في معاهد الإسلام، وإخواننا المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، نتعرف منها في ريث وأناة قيم العناصر التي هيأت لأولئك العباقرة تكوين شخصياتهم العظيمة، هذا التكوين الذي كان في حقيقته قوة الإسلام القاهرة، ومعجزاته الباهرة، وروحه التي سار بها في أرجاء الأرض فاتحاً وناشراً لواء العدالة والرحمة في ظل رجاله الغر الميامين.

فلنقف متأملين إلى جانب هذه الأحاديث الصديقية نجتلي بعض أسرارها، ليرى معنا شباب الإسلام أن أسلافنا لم يملكوا ناصية الحياة، ويقيموا بناء أعظم (إمبراطورية) عرفها التاريخ في مدى زمن هو في أعمار الأمم والممالك كاليوم بل الساعة في أعمار الأفراد؛ بالكلام يلقى هنا وهناك، وإنما بنوا هذا الصرح الشامخ للعظمة الإسلامية التي تطل علينا من نوافذ التاريخ بالدماء في لبنات الفداء والتضحية ونكران الذات، والتفاني في سبيل العقيدة، والإيمان بالحق إيماناً يجعل الحياة رخيصة إذا لم تكن قائمة على الحرية الفاضلة والعدالة الكاملة، والإخلاص لله تعالى، والثقة به ثقة تعصم النفوس من مزالق النفاق في صورة الذوق المستعار والمجاملات الزائفة.

أحب أبو بكر رسول الله ﷺ حباً ملك عليه كل شيء، فجاد

بنفسه فداء لحياة رسول الله، وآمن به فقدر رسالته حق قدرها، وعرف أنه رحمة مهداة للإنسانية ليخرجها من الظلمات إلى النور، فإن لم يبلغها صيحة الحق بقيت تنوء تحت أعباء الجهالة وبلادة الفكر وسوء العقيدة، وترزح تحت أثقال الظلم والاستبداد، فقدم حياته فداء لعقيدته وإيمانه في شخص رمز تلك العقيدة وذلك الإيمان: سيدنا رسول الله ﷺ؛ وهو بهذا قد كتب في ديوان الحياة سِفْراً خالداً، سوره وآياته عناصر الشخصية التي ينهض على يديها الإسلام، والشخصية التي تعتز بها الأخلاق الإسلامية، والشخصية التي يصبو إليها الوفاء في أشرف معانيه وأرفع صوره، والشخصية التي يحتاج إليها المصلحون والزعماء والقادة ليجعلوها مثلاً حافزاً لضمائرهم فيما يطلبون من إصلاح.

فهل قرأ شباب الإسلام هذا السِّفْر من حياة أبي بكر رضي الله عنه؟ من قرأ فليفقه، ومن لم يقرأ فَلْيُرِضْ نفسه على أن تصحبه في رحلة إلى مغاني الخلود على ضفاف التاريخ، فسيعود إذا وصل ورأى إشراق الشمس في أفق الدهر شيئاً آخر في رجولته وإسلاميته، وإيمانه بنفسه وأمته وإنسانيته، فنحن أحوج ما نكون إلى الإيمان بأنفسنا وأمتنا أمة الإسلام، وفي الأخير إلى الإيمان بإنسانيتنا، فهل نصل؟ هيا وإلى اللقاء.



ـ ٤ ـ

المعهود في طبائع الوجود، جرياً مع سنن الله تعالى، أن للإنسان في حياته أطواراً يتنقل في مراحلها حتى ينتهي إلى ما قُدِّر له من مكان يقف عنده متخلفاً عن قافلة الحياة، لا يتخطاه ولو امتطى الفلك، أو ساير الليل والنهار؛ ولكل طور أمد لا بد من قضائه في مرحلته المقدرة له، لأن الطفرة لم يجعلها الله تعالى من نواميس الوجود العامة؛ وألوانُ الحياة مهما اختلفت، راجعةٌ إلى ذلك المعنى العام الشامل في طرائق النمو عند الأحياء، وخاضعة لأطوار التكوين في أصناف الموجودات.

بيد أن هذا القانون الطبعي على شموله لا ينطبق على حياة العبقريين من أفذاذ الرجال، وقادة الإصلاح، ومُثُل الإنسانية الفاضلة؛ فإن هؤلاء العظماء امتازوا في خصائصهم الذاتية بالشذوذ عن قوانين العامة، وإن كان لا بد لحياتهم أن تندرج تحت قانون يضبط سيرها؛ فقانونهم هو ذلك الشذوذ عن المعهود في مجرى حياة عامة الناس، لأن الله تعالى لم يجعلهم بما ركب فيهم من خلائق خاصة خاضعين لتلك القوانين، بل جعلهم فوقها، وجعل أطوار حياتهم مولودة معهم، يسيرون إليها مدفوعين بدوافع خفية تسوقهم إلى عظائم الأمور، ولا يستطيعون ردها حتى تنتهي بهم إلى طور العظمة دون

حاجة إلى تلبث زمني في تخطّي مراحل الأطوار التكوينية، لأن النمو الروحي عندهم قائم على قانون الطفرة - إذا صح أن للطفرة قانوناً - والطفرة أخص خصائص العبقريين في العالم، منذ أتيح للعبقرية الإنسانية توجيه الحياة وجهة الخير والإصلاح.

ولسنا في حاجة إلى تلمُّس الشواهد من أسفار التاريخ؛ وحسب الباحث أن يعمد إلى أي عبقري من عباقرة الإنسانية فينشر بين يديه كتاب حياته ليقرأ تاريخ نشأته، فسيجده في بداءة أمره إنساناً كأفراد الأناسي، لا يمتاز بشيء يرفعه فوق تاريخ أقرانه، فإذا تابع الباحث النظر انقطعت به سلسلة التدرج، ووثب به التاريخ على غير انتظار أو تهيؤ إلى طور جديد، جديد في كل شيء، لا يكاد يرتبط فيه حاضره بشيء من الماضي القريب أو البعيد، فهو في الماضي إنسان يولد كما يولد الناس، وينشأ نشأتهم، ويحيي حياتهم، ويعيش عيشتهم في بيئة تسيطر على عقله وروحه، وتتحكّم في أخلاقه وعاداته، ولكنه في حاضره إنسان جديد، وأول مظاهر هذه الجِدّة أنه ارتفع بروحه وعقله فوق بيئته، وتحكّم فيها بأخلاقه وأفكاره، وقادها إلى طرائق في الحياة لم تسلكها من قبل، فإذا هي مباءة هداية وإصلاح؛ ولو حاول الباحث أن يعلل لهذه الظاهرة في حياة العباقرة لأعياه أن يجد من الأسباب الطبعية ما يصلح علة لها، لأنها في الواقع فوق ما يعهد الناس من علل وأسباب.

هذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، أعظم من انفرجت عنهم دعوة الأنبياء والمرسلين من السابقين واللاحقين. انشر بين يديك

صحيفة حياته، فإذا هو في بدء أمره طفل تعجب به أمه كما تعجب كل والدة بوليدها، ثم هو غلام يافع بين غلمان قريش، فشاب ناهد في شباب مكة، فرجل في عداد رجالها، يحمل عبء نفسه وحياته وأسرته، لا تكاد تحس به الحياة في مدى قرابة أربعين عاماً إلا كما تحس بأي إنسان في بوادي العرب من أولئك الذين يضطربون في فجاجها بتجارتهم. ولكن... ما هي إلا دورة الفلك حتى أشرقت شمس الهداية في بطحاء مكة، فإذا أبو بكر يثب إلى طور العبقرية وثباً، يفصله عن ماضيه، ويرتفع به إلى سماء العظمة الإسلامية، فيصبح سيد المؤمنين، ووزير أعظم المرسلين، ثم أول الخلفاء الراشدين، يتحدث فيصغي إليه الزمن بسمعه، وينادي فتلبي الدنيا طيّعة، وتتكشّف نفسه عن خصائص لم تَبْدُ منه أيام فتوة شبابه، يؤمن بدعوة الإسلام فيرجح إيمانه بإيمان أهل الأرض.

روى البيهقي في المحاسن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم»، ويتغلغل في نفسه هذا الإيمان فيملك عليه روحه وعقله، فلا يحيى إلا به، ولا يفكر إلا فيه، فكان إيمانه عند نفسه أعظم من نفسه وماله وولده.

وقد تحدثنا فيما سبق عن روائع الإيمان في نفس الصديق رضي الله عنه، فكانت تلك الخصيصة الممثلة في التضحية بالنفس إحدى سماوات أبي بكر التي طار إليها فذّاً على أجنحة العبقرية الوادعة، فأشرقت منها شمس حياته الإسلامية المباركة؛ وإذا كنا قد أعطينا قارئينا صورة مصغرة عن بعض مواقف الصديق في بذله نفسه دون

حياة رسول الله ﷺ، ودون الدعوة الإسلامية في شتى مظاهرها، فكان المثلَ الأعلى في الدفاع عن العقيدة وحرية الفكر، ومناهضة الجمود الفكري والتقليد البليد، حتى انطلقت الأفكار من عقالها تسرح في ظلال الإسلام وتعاليمه، شاهدة على الحيوية الناضجة التي أشاعها في روح الإنسانية، فكانت انقلاباً ثورياً جدّد ديباجتها، وهذب أفكارها، وفتح أمامها طرائق التقدم إلى غايتها السامية، فمن حق البحث علينا أن نقرن بين الخصائص التي تفرد بها الصديق فكانت منها عناصر عظمته الخالدة.

وإذا كانت تلك الصورة في بذل النفس فلنتحدث هنا في بذل المال ـ وهو شقيق الروح ـ لنرى أن صنيع الصديق في هذه السبيل كصنيعه في تلك، لم يسامه فيهما أحد من الناس؛ روى أبو داود عن عروة بن الزبير أنه قال: «أسلم أبو بكر وله أربعون ألفاً أنفقها كلها على رسول الله ﷺ في سبيل الله». وقال عروة أيضاً: «وأخبرتني عائشة أنه مات وما ترك ديناراً ولا درهماً».

كان أبو بكر رضي الله عنه ينظر إلى المسلمين في بدء الدعوة فيرى استضعافهم وحاجتهم إلى المعونة؛ وكان رجلاً معروفاً بالتجارة، فيمد يده إليهم يعولهم وينقذ المستعبدين منهم، فقد أعتق من ماله سبعة كلهم يعذب في الله تعالى؛ أعتق بلالاً وعامر بن فهيرة، وأعتق خمساً من النساء، وقد قدم المدينة في هجرته ولم يبق له من ماله الكثير سوى خمسة آلاف كان يفعل فيها ما فعل بمكة من قيامه بحاجات المسلمين؛ وكان النبي ﷺ يرى أن مال أبي بكر ماله، ولم يعط هذه المنزلة لأحد من أصحابه سوى أبي بكر؛ روي أنه ﷺ لما

قدم المدينة وأراد بناء المسجد الشريف قال: «يا بني النجار ثامنوني بحائطكم» قالوا: لا نطلب ثمنه إلا لله تعالى، فأبي ذلك ﷺ، وابتاعها بعشرة دنانير أدّاها من مال أبي بكر رضي الله عنه، وكان خرج من مكة بماله كله.

ومن بارع الأخبار في ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «أمر رسول الله ﷺ بالصدقة ووافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته، فجئته بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قلت: النصف؛ وجاء أبو بكر بكل ماله، فقال له النبي ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قال: الله حقاً ورسولَه؛ فقلت: والله لا أسبقك إلى شيء أبداً».

وكان النبي ﷺ يعلن منّة أبي بكر عليه بماله ونفسه في مواقف كثيرة إظهاراً لفضيلة الصديق؛ روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «خرج علينا رسول الله في مرضه الذي مات فيه وهو عاصب رأسه حتى صعد المنبر، فقال: «إني لقائم الساعة على الحوض، وإن عبداً عرضت عليه الدنيا وزينتها، فاختار الآخرة»؛ فلم يفطن لها أحد إلا أبو بكر رضي الله عنه، فقال: بأبي أنت وأمي، بل نفديك بآبائنا وأبنائنا وأنفسنا وأموالنا، وبكى، فقال رسول الله ﷺ: «لا تبكِ يا أبا بكر، إن مِن أمنّ الناس عليّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً من الناس لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام، لا يبقى في المسجد باب إلا سُدَّ إلا باب أبي بكر». فبكى أبو بكر، وقال: «أنا ومالي لك يا رسول الله».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «بينا النبي ﷺ جالس وعنده أبو بكر رضي الله عنه وعليه عباءة قد خلّها في صدره بخلال إذ نزل جبريل عليه السلام، فقال: يا رسول الله، مالي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلَّها في صدره؟ قال: أنفق ماله عليّ قبل الفتح، قال: فاقرئه من الله عز وجل السلام، وقل له: يقول لك ربك تبارك وتعالى: أراضٍ أنت عني في فقرك أم ساخط؟ فقال أبو بكر: أعلى ربي أغضب؟ أنا عن ربي راض». وروى ابن عبد البر في الاستيعاب قال النبي ﷺ: «ما نفعني مالٌ ما نفعني مال أبي بكر». وعن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا بكر: زوّجني ابنته، وحملني إلى دار الهجرة، وأعتق بلالاً من ماله».

وروى البخاري في صحيحه عن أبي الدرداء قال: «كنت جالساً عند النبي ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبتيه، فقال النبي ﷺ: أما صاحبكم فقد غامر (ألقى بنفسه في شدة) فسلَّم، وقال: يا رسول الله إنه كان بيني وبين ابن الخطاب شيء فأسرعت إليه، ثم ندمت فسألته أن يغفر لي فأبى علي، فأقبلت إليك، فقال: يغفر الله لك يا أبا بكر، ثلاثاً، ثم إن عمر قدم، فأتى منزل أبي بكر، فسأل: أثَمّ أبو بكر؟ فقالوا: لا، فأتى النبي ﷺ، فسلم فجعل وجه النبي ﷺ يتمعّر (يتغير غضباً)، حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه، فقال: يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم، مرتين، فقال النبي ﷺ: «إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركولي صاحبي»؟ مرتين، فما أوذي بعدها».

وهذا الحديث من أعظم الأصول في منقبة أبي بكر وفضيلته، وفيه من فنون العلم ضروب، فأنت ترى فيه كيف صوَّر مابين الشيخين، وكيف رجع كل منهما ليترضَّى صاحبه، وكيف أن نفس أبي بكر لم تحتمل غضب أخيه عمر حتى أذهله ذلك بعض الشيء، فرفع ثوبه حتى كشف عن ركبتيه، وكيف أن عمر أدرك أنه اشتد إذ لم يغفر لأبي بكر هفوته، فطاف يسأل عنه ليتراضيا، وكيف أن أبا بكر سارع إلى الملجأ الأعلى ليستغفر له وليصلح بينهما، وكيف أظهر النبي ﷺ منزلة أبي بكر في نفسه ومكانه في الإسلام بما ظهر عليه من دلائل التغير في وجهه الشريف، وكيف خشي أبو بكر من عواقب غضب النبي ﷺ فترضاه، ثم هذه الكلمات الخالدات التي ألقاها النبي ﷺ في جموع أصحابه في تعريفهم مكانة الصديق، ثم هذه الإضافة التشريفية في قوله: «فهل أنتم تاركولي صاحبي» الدالة على سر عظمة الصديق، وفاقاً لقول الله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾.

* * *

ـ ٥ ـ

هجرته إلى المدينة

أقام أبو بكر رضي الله عنه بمكة ما أقام فيها رسول الله ﷺ، ردءاً للمسلمين، يحوطهم برعايته، ويحنو عليهم، ويعينهم بنفسه وماله، يفتدي أرقاءهم، ويفك عانيهم، ويريش فقيرهم، ويحملهم إلى حيث يأمنـون على دينهم وأنفسـهم، حتى أصبح وله في قلوب المؤمنين ما كتب الله له من الفضيلة الفارعة، والشرف الأسبق، والحب الخالد، وحتى أصبح للمشركين شَجاً، وللكفر داء عياء، يكيده براسخ إيمانه، ويطعنه في مقاتله بأشرف خصاله، فضاقوا به ذرعاً، وجعلوه في عداوتهم مع النبي ﷺ عدلاً، وأرادوا بهما كيداً، فقدَّروا ودبَّروا، وكان الله خير الماكرين.

اشتد الأذى بالصدّيق رضي الله عنه كما اشتد بسائر المؤمنين، فهاجروا هجرة الفتح والنصر المؤزر إلى يثرب، حيث المنعة والقوة، في سبيل الله، بإذن من النبي ﷺ، بعد أن وطّأ لهم أواصر الإخاء مع البهاليل من بني قَيْلة، وبقي أبو بكر مع نفر قليل من الصحابة بمكة، فكان ذلك دافعاً لصناديد الكفر إلى اشتداد ضغينتهم على المؤمنين، وقسوتهم في ألوان الأذى بهم خشية أن يلحقوا بإخوانهم، وصرفوا

أكبر همهم إلى أبي بكر، وتفننوا في إيذائه، ومنعوه القيام بحقوق ربه، فخشي أن يتحرك له قومه عصبية لحميتهم فيتفاقم الخطر في غير عائدة على عقيدته ودينه، فاستقر رأيه على اللحاق بإخوانه مهاجراً إلى الله بدينه. قال صاحب المواهب:

«وكان الصدّيق كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فيقول: لا تعجل، لعل الله أن يجعل لك صاحباً، فيطمع أبو بكر أن يكون هو». وهذا مظهر من أعظم مظاهر حفاوة النبي ﷺ بالصديق، واختصاصه بنفسه دون غيره من سائر الناس، وهو أيضاً مظهر من مظاهر تعلق نفس الصديق بالنبي ﷺ، وإرادة ملازمته في غدواته وروحاته.

ويحدثنا الإمام البخاري في الصحيح من حديث طويل عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (وتجهز أبو بكر قِبلَ المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «على رِسْلك، فإني أرجو أن يؤذن لي»، فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: «نعم»، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعَلَفَ راحلتين كانتا عنده ورق السَّمرِ (وهو الخَبَط) أربعة أشهر، قالت عائشة رضي الله عنها: فبينا نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نَحْر الظهيرة قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنِّعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي! والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر! قالت عائشة: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له فدخل، فقال لأبي بكر: «أخْرِجْ مَنْ عندك»، فقال أبو بكر: إنّما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله، قال: «فإني قد أذن لي في الخروج»، فقال أبو بكر:

الصحبة بأبي أنت يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم»، قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين، قال رسول الله ﷺ: «بالثمن»، قالت عائشة: فجهزناهما أَحَثَّ الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاقين).

وفي هذا الخبر من فنون المعرفة والأدب ما يجعلنا نقف معه لنزيدها تبييناً وتوضيحاً، لتكون للمؤمنين تبصرة وذكرى، وللعاملين منار هداية وإرشاد، وللمصلحين خير أسوة:

فأبو بكر رضي الله عنه رأى أن مكة لم تعد صالحة في ذلك الحين لنشر شرائع الحق فيها، وأنها عبأت نفسها للوقوف في وجه الدعوة الجديدة، وأنها متشبثة بأوثانها، فاستعد للهجرة زمناً طويلاً، ولكنه كان يتطلع إلى صحبة رسول الله ﷺ، بل يحس إحساساً قوياً بمصاحبة النبي ﷺ في هجرته، لأنه اطمأن إلى بشارته برجاء أن يجعل الله له صاحباً، ملوّحاً إلى ذاته الشريفة، فأعد الصديق لهذا اليوم راحلتين ليحمل عن رسول الله ﷺ مؤنة التفكير في وسائل هذا السفر، وتدبير أسبابه المادية كدأبه في جميع مواقفه النبيلة.

ولا يخفى ما أشاعه ذلك في نفس أبي بكر من البهجة التي صورها في هذه العبارة الهادئة الرائعة بعد قول النبي ﷺ له: «على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي»، وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ ولا يفوت أرباب القلوب هنا الالتفات إلى مقام رسول الله ﷺ من التوكل المطلق، حيث لم يتخذ لهذه الهجرة وهو يرجوها أي سبب

من الأسباب المادية، وإلى مقام الصديق رضي الله عنه حيث أعد العدة واتخذ الأسباب.

وفي هذا الخبر أبرع تصوير وأدقه لمكانة أبي بكر وآله عند رسول الله ﷺ، فإنه لم يكد يأتيه الإذن من الله تعالى بالهجرة حتى يذهب إلى بيت صاحبه في ساعة لم يكن يجيئهم فيها، ويأمره أن يخلو إليه بإخراج مَنْ عنده ليسرّ إليه أمراً هو أخطر ما عرض لامتحان الدعوة في هذه المرحلة القصيرة، فيجيبه أبو بكر بأن لا عين عليك، لأن هؤلاء الذين عندي إنما هم أهلك الذين يشاركونني في فدائك بأنفسهم، فيقول رسول الله ﷺ: «فإني قد أذن لي في الخروج»، فيطلب الصديق في لهفة، الصحبة، فيجاب بما يقر عينه.

وهنا أعتذر للقلم إذا اعتراه البهر فلم يستطيع تصوير حال أبي بكر في هذه الساعة التي تحققت فيها أعظم أمانيه، ثم هو يرجو من رسول الله ﷺ أن يقبل منه إحدى راحلتيه، فيقبلها ولكن بثمنها لتكون هجرة رسول الله ﷺ متمحضة إلى الله تعالى، وفي هذا تعظيم شأن الهجرة.

قال العلامة القسطلاني: «فإن قلت فَلِمَ لَمْ يقبلها إلا بالثمن وقد أنفق عليه أبو بكر من ماله ما هو أكثر من هذا فقبل؟ أجيب بأنه إنما فعل ذلك لتكون هجرته إلى الله بنفسه وماله رغبة منه عليه السلام في استكمال فضل الهجرة إلى الله، وأن يكون على أتم الأحوال».

وفي هذا الخبر يتمثل فن من فنون أدب الخطاب، وأدب الحب الروحاني، فما يكاد أبو بكر يخاطب رسول الله ﷺ إلا وهو

في خطابه يفديه بأبيه وأمه تعظيماً لقدره العظيم، فأين منا هذه القدوة فيما ابتدعناه في أساليبنا المتحدثة عن رسول الله ﷺ وأصحابه، حتى أصبح أقربنا إلى التأسي من (يصلعم) أو يكتفي مشيراً إلى هذه (الصلعمة) بحرف (ص)؟! فما أحوج المسلمين إلى إشعار قلوبهم في كل لحظة بعظمة النبي ﷺ، وإيقاظها بلهج الألسنة وخط الأقلام اقتداءً بأعرف الناس بقدر الحياة وأوزنهم للحظات الأزمان؟ أين نحن من الحياة وقد زعمنا أننا نكتفي بالإشارة إلى الصلاة على النبي ﷺ بهذه (الصلعمة) الجوفاء حرصاً على (الوقت) و(المداد) و(الورق) بالنسبة إلى بناة مجد الإسلام وواضعي أساس أعظم دولة في العالم، وما كانوا يرون في ترداد ذكرهم لرسول الله ﷺ وإظهار تعظيمه بالصلاة عليه إلا أشرف حافز لهم على تناول أسباب السيادة العادلة بإيمانهم.

إنهم جدّوا وهزلنا، وغاصوا على اللباب وتشبثنا بالقشور، فسادوا وتعبدنا، وتحرروا وقلدنا، وتقدموا وتخلفنا. وما أحرانا أن نتأمل قول الصديق الأعظم رضي الله عنه: «إن هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله، ولا يحتمله إلا أفضلكم وأملككم لنفسه».

وفي هذا الخبر يتمثل وزن العقيدة الصادقة في النفوس العظيمة، فلا عزازة الوطن، ولا لصوق المال بالروح، ولا محبة الأهل والولد، بأحرى أن تكون في كفة ميزان مع العقيدة الراسخة إذا لَفَّتْ في جوانبها الإيمان بالحق؛ وما قيمة وطن لا يطمئن فيه المرء على إعلان كلمة الحق، ولا يستطيع أن يؤدي فيه حقوق خالقه،

ولا يستطيع أن يرد باطلاً، أو ينصر مظلوماً؟ وما قيمة مال لا يعرف فيه حق المنعم به، ولا يتسنى فيه مواساة الفقراء والمساكين، ولا يعان به على نوائب الحق؟ وما قيمة أهل وولد لا يستجيبون لدعوة الحق، ولا يؤازرون في سبيل الله؟ إن حلاوة الإيمان تجعل كل أولئك في جانب العقيدة الصحيحة لا يزن عند صاحبها شيئاً، وكذلك كان المؤمنون الصادقون في صدر الإسلام.

ويتمثّل في هذا الخبر دستور المؤمنين المخلصين إذا احتوشتهم بيئات شملها الفساد في كيانها الاجتماعي والخلقي حتى لم يعد لصيحة الحق فيها أثر، بل إن فسادها لاستفحاله يصور لها باطلها حقاً، تدافع عنه، فتضطهد دعاة الحق، وتؤذي المصلحين، وترميهم بكل قاصمة، وتسد في وجوههم سبل الإرشاد، فلا يبقى لهم طريق إلى قلوبهم؛ والحق رحمة الله إلى الإنسانية عامة أينما وجدت، فإذا استيأس المصلحون أن تنبت بذور الخير في بيئة انتقلوا إلى غيرها حتى تلاقيهم فِطر مكتنزة الحيوية، لا يعشّيها ضوء الحق، وهناك يستنبتون حتى يستثمروا، فإذا امتلأت أيديهم وقلوبهم عادوا إلى ما استعصى عليهم فطهروه ومزجوا آخرهم بأولهم، وضموا إلى وطنهم أوطاناً، وإلى أموالهم أموالاً، وإلى أهلهم أهلاً وولداناً، وهذا وعد الله تعالى في قوله: ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾.

قال جار الله في الكشاف عند تفسير قول الله جل شأنه: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ﴾: «وهذا دليل على أن الرجل إذا كان في بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب لبعض الأسباب،

والعوائقُ عن إقامة الدين لا تنحصر، أو علم أنه في غير بلده أقوم بحق الله، وأدوم على العبادة، حقت عليه المهاجرة».

خرج الصدّيق رضي الله عنه مهاجراً إلى الله تعالى في صحبة رسول الله ﷺ ليقيه بنفسه، وكان أبو بكر مقصوداً للمشركين مع رسول الله ﷺ، فلم يبال بالموت وهم يترصدونهم في كل مكان. روي عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: «ولما خفي علينا أمر رسول الله ﷺ أتانا نفر من قريش، منهم أبو جهل بن هشام، فخرجت إليهم فقال: أين أبوك؟ فقلت: والله لا أدري، فرفع أبو جهل يده ـ وكان فاحشاً خبيثاً ـ فلطم خدي لطمة خرج منها قرطي، ثم انصرفوا».

وحديث الهجرة ينشر فضيلة للسيدة الجليلة أسماء الصديقية، فهي كانت ممن اطلع على سر الهجرة، وكانت مقدرة تمام التقدير خطورة موقف المهاجرين في تلك الساعة الحرجة، فلم تفقد من شجاعتها شيئاً، فإذ لم تجد ما تربط به على فم الجراب عمدت إلى نطاقها تشقه لِتَعْجل لحظات من الزمن يتقدم فيها الرسول وصاحبه إلى غرضهما النبيل، وبذلك كتبت في بياض التاريخ سطراً خالداً أضاف إلى اسمها اسماً جديداً كان من مفاخرها إلى مفاخر آل الصدّيق في الإسلام.

* * *

- ٦ -

مضـى أبـو بكـر رضي الله عنـه في هجرتـه إلى الله تعالى رفيقـاً لرسول الله ﷺ، يرتاد له المنازل إذا حل، ويَخبُر له خبر الطريق إذا ارتحل، ويسهر عليه إذا نام، ويخدُمه إذا استيقظ، ويرد السائلين عنه بألطف جواب، حتى يأمن عليه الطلب، وينجو وإياه من الدرك، فراراً بدين الله من وجه البغي والعدوان.

روى البخاري في الصحيح عن البراء بن عازب قال: «اشترى أبو بكر رضي الله عنه من عازب رَحْلاً بثلاثة عشر درهماً، فقال أبو بكر لعازب: مُرْ البراء فليحمل إليّ رحلي، فقال عازب: لا، حتى تحدثنا كيف صنعت أنت ورسول الله ﷺ حين خرجتما من مكة والمشركون يطلبونكم، قال أبو بكر: أخذ علينا الرصد فخرجنا ليلاً، فأحيينا ليلتنا ويومنا حتى قام قائم الظهيرة، فرميت ببصري، هل أرى من ظل فآوي إليه، فإذا صخرة أتيتها، فنظرت بقية ظل لها فسوّيته، ثم فرشت لرسول الله ﷺ فروة معي، ثم قلت له: اضطجع يا نبي الله، فاضطجع النبي ﷺ، ثم انطلقت أنظر ما حولي، هل أرى من الطلب أحداً؟ فإذا أنا براع قد أقبل في غنيمة يريد من الصخرة مثل الذي أردنا، فسألته: لمن أنت يا غلام؟ قال: أنا لرجل من قريش سماه فعرفته، فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم، قلت: هل أنت حالب؟ قال:

نعم، فأمرته فاعتقل شاة من غنمه، ثم أمرته أن ينفض ضرعها من الغبار، ثم أمرته أن ينفض كفيه، فحلب لي كُثبة من لبن، وقد جعلت لرسول الله ﷺ إداوة من ماء عليها خرقة، فصببت على اللبن حتى برد أسفله، فانطلقت به إلى النبي ﷺ فوافقته قد استيقظ، فقلت له: اشرب يا رسول الله، فشرب حتى رضيتُ، ثم ارتحلنا والطلب في أثرنا».

وكان أبو بكر رضي الله عنه رجلاً عروفاً في العرب، فإذا مر على قبيل منهم وهو رديف رسول الله ﷺ، سئل عنه: من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل، فيَحسَب الحاسب أن أبا بكر يعني الطريق، وهو رضي الله عنه إنما يعني سبيل الخير؛ وهذا من لطيف المعاريض التي يخرج بها المتكلم من مضائق السؤال دون أن يشعر سائله بإعراض عن إجابته، أو يطّلع على سرٍّ من أسرار نفسه؛ وهو مذهب من أدق مذاهب الأسلوب العربي وألطفه.

وفي حديث أنس بن مالك «أنه ﷺ أقبل المدينة وهو مُرْدِف أبا بكر، وأبو بكر شيخ يُعرَف، والنبي ﷺ شاب لا يُعرَف». قال بعض العلماء: وإنما كان أبو بكر معروفاً لأهل المدينة لأنه كان يمر عليهم في سفره للتجارة.

والمعول عليه في التاريخ أن النبي ﷺ كان أسن من أبي بكر رضي الله عنه، غير أن الصدّيق كان قد شاب، والنبي ﷺ لم يشب. وعند ابن سعد أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: أَلهِ عني الناس، فكان أبو بكر إذا سُئل: من أنت؟ قال: باغي حاجة، فإذا قيل: من هذا

معك؟ قال: هذا يهديني السبيل.

وفي البخاري أن رسول الله ﷺ وأبا بكر لما وصلا إلى المدينة ونزلا في بني عمرو بن عوف «قام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلّل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك».

وفي مجموع هذه الأخبار الصادقة ما يزيدنا يقيناً بمكانة الصديق في الإسلام وقبله، ويزيدنا إيماناً بما حباه الله به من المزايا السامية التي جعلت منه رجل الإسلام الأول في كل موطن من مواطن البطولة والتفاني في سبيل الخير والحق.

باستقرار رسول الله ﷺ وأصحابه بالمدينة المنورة، واتخاذها موطن الدعوة، اتجه المسلمون إلى حياة الجهاد والقوة ليفتحوا أمام الحق الطريق إلى قلب الإنسانية الظمأى إلى الإيمان بما يبعث إليها الهداية والرشاد، وكان أعظم مظاهر ذلك وأحزمها غزوة النصر (بدر الكبرى)، خرج إليها النبي ﷺ فيمن نشط من أصحابه وعن يمينه أبو بكر الصديق، وعن يساره عمر الفاروق، وأمامه السعدان سيدا الأنصار، يقدمهم الحق، ويحدو بهم الإيمان، وتجمعت لها قريش بخيلها ورَجِلها، تُحادّ الله ورسوله بباطلها وأبطالها، وأقيم لرسول الله عريش من جديد، فدخله ومعه أبو بكر الصديق، وقام سعد بن معاذ على باب العريش متوشحاً سيفه، والتقى الجمعان، وتقدم فتيان قريش في صلف العنجهية يطلبون أقرانهم من المسلمين

للمبارزة؛ وهنا موقف لأبي بكر الصديق رضي الله عنه هو آية الآيات في باب البطولة والتضحية بالنفس ليكون مثلاً مضروباً لكل من تبطن عقيدة الحق وحيل بينه وبين حرية الدعوة إليها:

ذلك أنه كان فيمن خرج إلى المبارزة ابن لأبي بكر الصديق، فما رآه أبو بكر وعرفه حتى ناشد رسول الله ﷺ طالباً أن يأذن له في الخروج إليه، فقال: يا رسول الله دعني أكون أول الرعيل. ولكن أبا بكر هو القائد الثاني لجيش الإسلام، يحتاج المسلمون إلى رأيه وعقله المدبر، فلم يأذن له القائد الأعظم، وأشعره بالحاجة إليه، فقال له: «متعنا بنفسك يا أبا بكر، أما تعلم أنك عندي بمنزلة سمعي وبصري». قال جمهرة من المفسرين: وفي هذه الحادثة نزل قول الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾.

حسْب عَظَمَة الصديق رضي الله عنه أن يسجل في سجل مفاخرها هذه المنقبة البارعة التي تدل على أن منزلته من نفس رسول الله ﷺ لا تعدلها منزلة أحد في الدنيا، وفي قوله له: متعنا بنفسك يا أبا بكر ما يُومي إلى مقام الاختصاص الذي تفرد به الصديق، وليس بعد سمع رسول الله وبصره منزلة في العزة والمحبة. وفي مسارعة الصديق إلى مبارزة ابنه وفلذة كبده واستئذانه رسول الله ﷺ أن يكون في الرعيل الأول، ما يكشف عن حقيقة الإيمان ورسوخ العقيدة التي تسمو بصاحبها إلى حيث تسنم أبو بكر مكانه في ذروة الإسلام.

تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض، ورأى رسول الله ﷺ

وهو في العريش معه الصديق كثرة عدد المشركين ووفرة عُدَدهم، فقام يناشد ربه ما وعده من النصر، واستشعر قلبه الشريف الشفقة على أصحابه وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم، فألح في الدعاء حتى سقط رداءه عن منكبيه، فأخذ أبو بكر الرداء وألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك.

قال الخطابي: لا يتوهم أحد أن أبا بكر كان أوثق بربه من النبي ﷺ في تلك الحالة، بل الحامل للنبي ﷺ على ذلك شفقته على أصحابه، وتقوية قلوبهم، فبالغ في التوجه والدعاء والابتهال لتسكن نفوسهم عند ذلك، لأنهم كانوا يعلمون أن وسيلته مستجابة، فلما قال له أبو بكر ما قال، كف عن ذلك وعلم أنه استجيب له لما وجد أبو بكر في نفسه من القوة والطمأنينة، فلهذا عقبه بقوله: سيهزم الجمع؛ وكان النبي ﷺ في تلك الحالة في مقام الخوف، وهو أكمل حالات الصلاة.

انكشفت المعركة فإذا لواء النصر بيد المسلمين، وإذا الله تعالى أنجز لرسوله ما وعده، فقتل كثير من صناديد قريش ورؤوس الكفر، وعاد المؤمنون إلى المدينة وفي أيمانهم الغنائم وفي شمائلهم أزمة الأسرى يقودونهم بأنوف ذليلة راغمة، وعقد مجلس الشورى برياسة سيد العالمين، وعن يمينه الصديق الأعظم وزيره الأول، وعن يساره الفاروق، وفتى الفتيان عليّ بن أبي طالب، يحف بهم الغر الميامين من المهاجرين والأنصار ليضعوا للإنسانية أول مادة في دستور الشورى الفاضلة، وليؤسسوا صرح الحرية على

دعائم الشورى، تحقيقاً لقول الله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾، وعملاً بقوله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾.

هؤلاء رؤوس الشرك في أيدينا أظفرنا الله بهم، فماذا نصنع فيهم؟ وهل غير القتل يستحقون؟ لا، بل تُسعر لهم نار في واد كثير الحطب فيلقون فيه؟ إنهم أئمة الكفر الذين آذوا رسول الله ﷺ وأصحابه أشد الإيذاء، وصدوا الناس عن سبيل الله، وأخرجوا المؤمنين من ديارهم وأموالهم.

إن الأمر جِدٌّ خطير، فهذه جرثومة قريش في غطارفتها الذين كذبوا رسول الله ﷺ وأخرجوه وقاتلوه، إن هلكوا بأيدينا فقد شفينا صدورنا منهم، ولكن أليس من الجائز أن يكون في هذه الأصلاب من أُدّخِر لإنقاذ الإنسانية حين تضطرب بها أمواج الحياة؟ أو ليس في هذه الأنفس نفس يجوز أن يهب عليها نسيم الرحمة الإلهية فإذا هي أهدى سبيلاً، وأقوم قيلاً، وأرشد رشداً؟ كل ذلك جائز أن يكون، فليسمع القائد الأعظم صلوات الله عليه من وزرائه آراءهم وله من بعد ذلك الرأي الأعلى.

وهنا تتجلى خصيصة الإسلام في مرآة الفطرة الصديقية والفاروقية، والإسلام دين يجمع بين عنصري العقاب الحازم والعفو الرحيم، فيأخذ الصديق الأعظم بجانب الرحمة المطلقة، ويأخذ الفاروق بجانب القسوة الزاجرة، وينطق رسول الله ﷺ بالحكم، فيحقق الغيب حكمة الصديق، ويأتي التشريع على وفق سياسة الفاروق، وسنبين ذلك إن شاء الله.

* * *

-٧-

موقفه في أسرى بدر

واقعة بدر أول واقعة وأعظمها، اصطدمت فيها قوة الباطل العنيد بوافر عَددها وعظيم عدتها، بقوة الحق، وعدتُها الإيمان، ورسوخ العقيدة، فكان النصر المؤزر لجند الحق أول أسس الدعوة العملية لرفع راية الإسلام عزيزة قاهرة، وكان دوي هذا النصر في أرجاء الجزيرة العربية أعظم عوامل نشر الدعوة وتوجيهها توجيهاً جديداً، يحمل في يمناه الحجة الساطعة للعقول النيرة والبصائر النقية، وفي يسراه سيف التطهير واستئصال جذور الشر في نفوسٍ انطمست بصائرها، واستحالت فيها الفطرة الإنسانية إلى ضلالة عمياء لا تعرف من أمر الحياة إلا ما تعرف الخفافيش وخشاش الأرض.

قلة في العَدد والعُدد تنطوي جوانحها على قوة من الإيمان تدك الرواسي دكاً، وكثرة في العَدد والعدد تحمل قلوباً استفرغتها العنجهية الجاهلة من كل شيء يمت إلى الحياة الفاضلة بصلة، فكانت كالعظام النخرة في منازل الرياح، يمر بها الهواء فتسمع لها

صفيراً قد يروعك سمعه، فإذا أنت ذهبت لتختبرها تفتت وطارت ذراتها مع الريح في مواطئ الأقدام.

روى ابن سعد في الطبقات «أن المشركين بعثوا عمير بن وهب الجمحي، فقالوا له: احزُر لنا محمداً وأصحابه، فصوّب في الوادي وصعد، ثم رجع فقال: لا مدد لهم ولا كمين، القوم ثلاثمئة إن زادوا زادوا قليلاً، ومعهم سبعون بعيراً وفرسان؛ يا معشر قريش: البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليست لهم مَنَعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، أما ترونهم خرساً لا يتكلمون، يتلمظون تلمظ الأفاعي؟ والله ما أرى أن نقتل منهم رجلاً حتى يقتل منا رجل، فإذا أصابوا منكم عددهم فما خير في العيش بعد ذلك، فرَوْا رأيكم».

هكذا كان لقاء الشرك بخيله ورَجِلِه وعديده وعتاده مع المؤمنين في واقعة بدر الكبرى التي يسميها بعض السلف (فتح الفتوح)، انتصر فيها الإسلام أعظم انتصار، وهزم فيها الشرك شر هزيمة، ورجع المسلمون إلى المدينة وأيديهم مليئة من الغنائم والأسرى، وفي الأسرى كثير من غطارفة قريش وذوي رأيها، تمكن منهم المسلمون في وطيس الحرب ومنحهم الله أكتافهم، فلم يقتلوهم، وجاؤوا بهم مع الغنائم ليرى فيهم القائد الأعظم صلوات الله عليه رأيه، والإسلام أنبه شريعة وضعت دعائم الشورى العادلة، فجمع النبي ﷺ أصحابه ليدير معهم الرأي في شأن هؤلاء الأسرى، لأن الله تعالى لم ينزِّل عليه في هذا الأمر شيئاً.

روى مسلم في الصحيح من حديث عمر بن الخطاب: «أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر وعمر: ما ترون في هؤلاء الأسرى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام؛ فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قلت: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم، فتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكنني من فلان (نسيب لعمر) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهَوِي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهوَ ما قلت».

وذكر القرطبي في التفسير من رواية يزيد بن هارون: «أنه لما كان يوم بدر جيء بالأسارى وفيهم العباس فقال رسول الله ﷺ: ما ترون في هؤلاء الأسارى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك، استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم؛ وقال عمر: كذبوك وأخرجوك وقاتلوك، قدمهم فاضرب أعناقهم؛ وقال عبد الله بن رواحة: انظر وادياً كثير الحطب فأضرمه عليهم. فقال العباس وهو يسمع: قطعت رحمك! قال راوي الحديث: فدخل رسول الله ﷺ، ولم يرد عليهم شيئاً، فقال أناس: يأخذ بقول أبي بكر رضي الله عنه، وقال أناس: يأخذ بقول عمر، وقال أناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة؛ فخرج رسول الله ﷺ فقال: إن الله ليُلَيِّن قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، ويشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: «فمن تبعني فإنه مني

ومن عصاني فإنك غفور رحيم» ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى إذ قال: «إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم»، ومثلك ياعمر كمثل نوح عليه السلام إذ قال: «رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديَّاراً» ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام إذ قال: «ربنا اطمس على أموالهِم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم»، أنتم عالة فلا ينفلتنَّ أحد إلا بفداء أو ضربة بعنق، فأنزل الله ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ . . . إلى آخر الآيتين.

هذه خلاصة الروايات في هذه القصة، وهي تمثل مذهبين يأخذان بطرفي الحياة، أحدهما يمثل الرحمة المطلقة في شخص الصديق رضي الله عنه؛ والآخر يمثل أشد ألوان القسوة على أعداء الحق في شخص عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ والصديق والفاروق وزيرا الإسلام في حياة نبيه الأكرم صلوات الله عليه، وهما خليفتاه بعد مفارقته الحياة الدنيا إلى الرفيق الأعلى، وكل من المذهبين ضرورة اجتماعية، لا غنى للإنسانية عنه في أي عصر من عصورها، فهي تتطلب الرحمة لتكون وسيلة لها إلى الخير، تقودها إليه بلطف المحبة وسحر الإخلاص، وهي تتطلب القسوة لتكون وجهاً في تأديبها، وذريعة إلى زجرها حتى تستقيم قناتها؛ وإلى هذا يشير قول النبي ﷺ فيما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر».

روايات الفداء في القصة تشعر بظاهرها أن آية ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن

يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وردت عتاباً على أخذ الفداء من الأسرى واستبقائهم كما هو رأي أبي بكر الذي ارتضاه النبي ﷺ، بيد أن أسلوب الآية الكريمة الذي يتذوقه من كانت لديه ملكة البلاغة العربيـة لا يشعر بأنها جاءت عتابـاً على ما بدا من الرأي في شـأن الأسارى بعد انفصال المعركة والرجوع بهم إلى المدينة، بل الذي يفيده الأسلوب وتنادي به الآية أنها كانت عتاباً على المسارعة إلى الغنائم وإنهاء المعركة قبل كسر قناة الشرك كسراً لا ينجبر، استئصالاً لجرثومة الشرك في غطارفته وجنده، وقد أمكن الله منهم، وذلك هو المراد بالإثخان في الآيـة الكريمـة.

ويرشح هذا الفهم عبارة الآية نفسها، فإنها تفيد أنها إرشاد إلى الأليق بمقام النبوة إذ مكَّن الله لها في أعدائها حتى كانت لها عليهم الغلبة، وأنه ما كان ينبغي للنبي أن يخرج من المعركة وله أسرى حتى ينكِّل بأعدائه ويشرِّد بهم مَنْ خلفهم، فهي عتاب لأصحاب النبي ﷺ على ما كان منهم في المعركة، لا على ما كان بعدها في شأن الأسرى؛ وهذا ما ذهب إليه جمهرة المفسرين قبل حمل الآية على روايات القصة، قال القرطبي في التفسير:

«هذه الآية نزلت يوم بدر عتابـاً من الله عز وجل لأصحاب نبيه ﷺ، والمعنى: ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذي أوجب أن يكون للنبي ﷺ أسرى قبل الإثخان، ولهم هذا الإخبار بقوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾، والنبي ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد قط عرض الدنيـا، وإنما فعلـه جمهور مباشـري الحرب، وجاء ذكر النبي ﷺ في الآية حين لم ينه عنه حين رآه من

العريش، وأذكره سعدُ بن معاذ وعمر بن الخطاب وعبد الله بن رواحة، ولكنه عليه السلام شغله بغَتْ الأمر ونزول النصر فترك النهي عن الاستبقاء».

ويؤيد هذا ما ذكره القشيري «أن سعد بن معاذ قال: يا رسول الله إنه أول وقعة لنا مع المشركين، فكان الإثخان أحبّ إليّ». وأيضاً أسند الطبري وغيره أن رسول الله ﷺ قال للناس: «إن شئتم أخذتم فداء الأسارى، ويقتل منكم في الحرب سبعون على عددهم، وإن شئتم قُتلوا وسلمتم» فقالوا: نأخذ الفداء ويستشهد منا سبعون؛ وهذا التخيير كان وحياً كما دلَّت عليه بعض الروايات المصرِّحة بأن جبريل عليه السلام نزل على النبي ﷺ به؛ وإذا ثبت هذا فلا سبيل إلى حمل الآية على العتاب فيه لأنه أبيح لهم بالنص، فكيف يعاتبون فيه؟

وأورد القرطبي هنا إشكالاً ثم أجاب عنه فقال: «وينشأ هنا إشكال وهو أن يقال: إذا كان التخيير فكيف وقع التوبيخ بقوله: ﴿لَمَسَّكُمْ﴾؟ فالجواب: أن التوبيخ وقع أولاً لحرصهم على أخذ الفداء ثم وقع التخيير بعد ذلك، ومما يدل على ذلك أن المقداد قال حين أمر رسول الله ﷺ بقتل عقبة بن أبي مُعَيط: أسيري يا رسول الله، وقال مصعب بن عمير للذي أسر أخاه: شدَّ عليه يدك فإن له أماً موسرة.

ولو أن الإمام القرطبي حمل العتاب على حرصهم في أثناء المعركة وظهور الهزيمة في صفوف المشركين على الغنائم بما فيها الأسرى لكان أسدَّ وأرشد، لأنه هو المتلائم مع أسلوب الآية وما ساقه من الروايات المفيدة أن بعض الصحابة كان أحب إليه الإثخان في

المعركة؛ ويعضد هذا بما روي عن الضحاك أن الآية نزلت حين انهزم المشركون يوم بدر واشتغل الناس بالسلب وجمع الغنائم عن القتال حتى خشي عمر أن يعطف عليهم العدو .

هذا ما تطمئن إليه النفس في أمر يدبِّر فيه رسول الله ﷺ الرأي مع أجلّاء أصحابه، ويختار بعد التدبر، ويمثل الشيخين في موقفهما بأربعة من أولي العزم عليهم السلام بينهم، من الفضل ما كان حاملاً في طواياه أعظم مناقب الصدّيق رضي الله عنه .

وبعد: فما أعظم بركة الصديق في أسرى بدر، وما أجلَّ حكمة الله في تعليم المسلمين!! فقد تكشف الغيب عن سر رأي الصديق، وأسلم كثير من الأسرى بعد ذلك، وكانت لهم قَدَم صدق في نصرة الدعوة الإسلامية وإقامة دعائمها، وأخرج الله من ظهورهم من كانوا أعلام الهداية في الأرض .

* * *

ـ ٨ ـ

موقفه في صلح الحديبية

لا نكاد نخطو في حياة الصدّيق رضي الله عنه حتى نجد في كل خطوة سراجاً من سرج العظمة الإيمانية، يكشف لنا عناصر العبقرية التي تفرد بها أبو بكر رضي الله عنه، ويطلعنا على منازع التفكير عنده، وأنه ينزع بغرب من منابع الحياة النبوية، وأن الله تعالى اختصه بما لم يعطه أحداً من أتباع النبيين، فكان لذلك خيرهم إيماناً، وأرجحهم سياسة، وأحسنهم تفكيراً، وأبعدهم نظراً، وأهداهم طريقاً، وأرشدهم نصحاً لله ولرسوله والناس أجمعين.

أسلفنا في مقالنا السابق الحديثَ عن موقف الصديق رضي الله عنه في أسارى بدر، وما جعل الله تعالى في رأيه من خير وبركة على الإسلام والمسلمين، وما تكشّف عنه الغيب من تقدير صالح في عواقب ذلك الرأي الرحيم؛ والآن نحدثك عن موقف من مواقف الصديق رضي الله عنه في مرحلة من أدق مراحل النضال الإسلامي، تزلزلت فيه أقدام الراسخين، واضطربت له قلوب المؤمنين وأفكار المسلمين، فكان موقف الصديق عنوان رسوخ الإيمان، والنظر من وراء سُجُف الغيب بنور الله، وكان آية صادقة على ما أمد الله تعالى به

صدِّيق نبيه ووزيره وخليفته من تسديد الرأي وتوفيق التفكير؛ وحسبنا أنه موقف يقول فيه الفاروق، وهو من هو: «لقد دخلني أمر عظيم، وراجعت النبي ﷺ مراجعة ما راجعته مثلها قط».

روى البخاري في الصحيح وأصحاب المغازي «أن بُدَيل بن ورقاء الخزاعي جاء إلى رسول الله في نفر من قومه، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية ومعهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت؛ فقال رسول الله ﷺ: إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة ويُخَلُّوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جَمّوا، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ولينفذن الله أمره!».

وفي رواية «فأرسل النبي ﷺ عيناً له، فأتاه عينه، فقال: إن قريشاً جمعوا لك جموعاً، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت ومانعوك»، فقال النبي ﷺ: «أشيروا عليّ أيها الناس، أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت؟» فقال أبو بكر رضي الله عنه: «يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجه فمن صدنا قاتلناه»؛ فقال رسول الله ﷺ: «امضوا على اسم الله».

في هذا الحديث أن النبي ﷺ أخبر أنه جاء سلماً، وأنه لا يريد قتال أحد، وأنه اعتذر لقريش لو قبلت، وأنه يعطيها فرصة الاستجمام

حتى تستعد لو شاءت قتالاً؛ ومن وراء ذلك عزيمة صارمة إذا ركبت قريش رأسها؛ ولكن المسلمين ولا سيما الأنصار كانوا يرونها حرباً شعواء، حتى كان حامل لوائهم سعد بن عبادة يرتجز في فتح مكة قائلاً: اليوم يوم الملحمة! فلما توالت الرسل وجاء عين النبي ﷺ يخبره أن قريشاً مصممة على حربه ومنعه استشار أصحابه، فكان رأي الصدِّيق رضي الله عنه أن يسير النبي ﷺ في أصحابه على ما خرج عليه قاصداً البيت لا يتعرض لأحد حتى يصدُّوه، فمن صدّه قاتلوه، فهشّ النبي ﷺ لرأي صديقه وقال: «امضوا على اسم الله».

وهذا من حُسن سياسة الصدِّيق وفضل رأيه، تمشياً مع طبيعته الرحيمة، لأنه لم يكن في حياته يرمي إلى غلبة الحروب وظفر المعارك فحسب، ولكنه كان يرمي إلى غلبة العقيدة وسمو الفكرة، فإذا تحقق هذا بغير أن تسفك في سبيله قطرة دم كان أحب إلى نفسه وأرضى. وقد أيّده الله تعالى في رأيه، فكان في رسل قريش إلى رسول الله ﷺ رجل من كنانة، وهم قوم يعظمون البُدْن، ولا يصدون من أمّ البيت الحرام، فاستقبله المسلمون يلبون، والهدي يساق بين أيديهم، فقال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت.

فكان هذا أول النصر للمسلمين، وأول الفشل والفرقة لأحابيش المشركين؛ وتتابعت الرسل فيما بين رسول الله ﷺ وقريش، وكان فيهم سيد ثقيف عروة بن مسعود، فرأى من أمر النبي ﷺ وإعظام أصحابه له ما بعث في نفسه الرعب على قومه وحلفائه، فوصف ما رأى لقريش، ودعاها إلى مصالحته، ولكنه أراد ألا يطمع المسلمين وأن

يتهددهم لعله يخيفهم، فقال للنبي ﷺ في مفاوضته: «أي محمد: أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فإني والله لا أرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك».

فلم يملك أبو بكر الصديق رضي الله عنه نفسه إذ سمع عروة يطعن في إخلاص المؤمنين لعقيدتهم وهي أعز ما لديهم، فانتهض يرد عليه رداً يغمز عقله ورجولته ويسخر منه ليفل من غرب غروره، منكراً عليه أشد الإنكار زعمه أن المؤمنين يفرون عن نبيهم؛ وقد رأى عروة بعد ذلك من تعظيم الصحابة للنبي ﷺ ما كان مؤيداً لرد أبي بكر عليه، ولكن عروة لم تشأ له عنجهيته أن يترك رد أبي بكر حتى يعلم صاحبه، فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده لولا يدٌ كانت لك عندي لم أجْزِك بها لأجبتك!

لم تجد قريش وأحابيشها من المؤمنين إلا عزماً وتصميماً، فمالت إلى المصالحة، وأرسلت سهيل بن عمرو ليكتب بين رسول الله ﷺ وبينها عهد الصلح، وأخذت قريش لنفسها ما أرادت من الشروط، وكان من أشدها على المسلمين (ألا يأتي رجل من قريش إلى المسلمين إلا ردُّوه إليهم وإن كان مسلماً)، فعَظُمَ الأمر على المسلمين جداً، حتى قال بعضهم: «سبحان الله كيف يُرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً»! وبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، فقال سهيل: هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده إليّ، فعظم الأمر على أبي جندل، وكان قد عُذِّب عذاباً شديداً في الله، فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإنا لا نغدر، وإن الله

جاعل لك فرجاً ومخرجاً» ؛ ووثب عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويدني قائم سيفه منه ويقول: اصبر، قال عمر رضي الله عنه: رجوت أن يأخذ السيف مني فيضرب به أباه، فضن الرجل ونفذت القضية.

هنا تتجلى مراتب الإيمان، وتظهر درجات النفوس المؤمنة، وفقاً لفيض الله تعالى عليها، فإن الأمر شديد، والتسليم به عن طواعية ورضاء أشد، كيف والمسلمون في عنفوان قوتهم وقد بدأ الانحلال في عدوهم، وهم يرضون شروطاً يفرضها عليهم؟! ولكن شأن النبوة فوق قوانين الحياة. رضي النبي ﷺ شروط المعاهدة لأنه يعلم ما انطوت عليه من تدبير الله تعالى، ورضي لرضائه صدِّيقه رضي الله عنه لأنه يعلم ما انطوى عليه رضاء رسول الله ﷺ من حكم وآيات، ووقف جميع الناس عند طَوْق البشرية تغلي مراجلهم، فمن يتكلم لهم؟ لو كان أبو بكر في صفهم لكان محاميهم لأنه أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ؛ ولكن أبا بكر غمره فيض النبوة فسما به إلى ساحة الشهود، فرضي كل الرضَى بما رضي به رسول الله ﷺ؛ أليس في القوم فاروق الإسلام وهو أشدهم في دين الله؟ قال عمر رضي الله عنه: «فأتيت نبي الله ﷺ فقلت: ألست نبي الله حقاً؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نُعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري؛ قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، فأخبرتك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتيه

ومطـوّف به». قال عمر رضي الله عنـه: «فأتيـت أبا بكر، فقلـت: يا أبا بكر أليـس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى، قلت: ألسـنا علـى الحق؟ قال بلى، وعدونا على الباطل؟ قلت: فلِمَ نُعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: أيها الرجل! إنه لرسول الله ﷺ وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغَرْزه، فوالله إنه على الحق! قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك آتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومطوّف به». قال عمر رضي الله عنه في رواية ابن إسحاق: «ما زلت أتصدّق وأصوم وأصلِّي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلَّمتُ به».

قال القسطلاني في (المواهب): «وأما جواب أبي بكر لعمر رضي الله عنهما بمثل جواب النبي ﷺ فهو من الدلائل الظاهرة على عظيم فضله، وبارع علمه، وزيادة عرفانه ورسوخه، وزيادته في ذلك على غيره».

وذكر ابن القيّم في (روضة المحبين) أن الرواية وقعت في بعض المغازي بعكس ما في البخاري، وأن مساءلة عمر لأبي بكر كانت أولاً، ومساءلة رسول الله ﷺ كانت ثانياً. قال الإمام السهيلي: «وهذا هو الأولى، ويشـبه أن يكون المحفوظ، فـإنه لا يظن بعمـر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ يقول له قولاً فلا يرضى به حتى يأتي أبا بكر رضي الله عنه بعد ذلك، والشبهة عنده لم تزل فيعيدها عليه». قال ابن القيم: «ولعمري لقد نـزع أبـو القاسـم (السهيلي) بذَنوب[1]

---

(١) الذنوب: الدلو العظيمة. والمراد أن السهيلي جاء برأي عظيم.

صحيح، ولكن المحفوظ هو الذي وقع في البخاري، وعليه عامة أهل السير والمسانيد والسنن، وأما ما نسب إليه عمر رضي الله عنه فقد أجيب عنه بأنه كان يرجو النسخ وموافقة ربه له في ذلك كما تقدَّم له أمثالها، فإنه كان يقول القول فينزل به الوحي؛ على أن المقام كان مقام مِحنة وابتلاء، عجز عنه صبر أكثر الصحابة ولم يتسع له بطانهم، وداخلهم من الهمّ والقلق والتحرّق على أعدائهم أمر عظيم، وعذَرَهم الله سبحانه لقوة الوارد وضعفهم عن حمله، حتى لم يحمله عمر رضي الله عنه في قوته وشدته، واحتمله رسول الله ﷺ وأبو بكر وكان جوابهما من مشكاة واحدة». وليس وراء ذلك درجة في الفضل ورسوخ الإيمان؛ وقد حقق الله تعالى لنبيه وصدّيقه وعدهما فجاء الفتح المبين.

روى الحاكم من حديث مَجْمع بن جارية قال: «شهدت الحديبية فلما انصرفنا وجدنا رسول الله ﷺ واقفاً عند كُراع الغميم وقد جمع الناس فقرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، فقال رجل: يا رسول الله أو فتح هو؟ فقال: إي والذي نفسي بيده»! قال الشعبي: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾: الحديبية، «وغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» وتبايعوا بيعة الرضوان، وأُطعموا نخيل خيبر، وظهرت الروم على فارس، وفرح المسلمون بنصر الله.

* * *

ـ ٩ ـ

امتحان الإيمان

أرهب ساعة في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ الوجود، ساعةٌ أظلم فيها الكون، وأسدل على الحياة رداء من الحزن الباخع؛ تلك هي الساعة التي ودَّع فيها المصطفى سيد الوجود صلوات الله عليه هذه الحياة إلى الرفيق الأعلى، فانقطع لموته ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء قبله، فطاشت من هول الخطب العقول، وخرست الألسن، وصمت الآذان، وغارت الأبصار، واختلجت البصائر، وانحلت القوى، وذرَّ قرن الشر، وانقطع وارد الخير، ومنع خبر السماء، وأظلمت الدنيا في وجوه المؤمنين، واشرأبت أعناق المنافقين.

روى أبو عبد الله القرطبي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نفضنا عن النبي ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا».

يا لهول الحدث الجلل!! روح الحياة يفارق الحياة؟ ثم يحيى الناس من بعده؟! أي حياة هذه التي يحيونها؟ إنها حياة العصب

والدم واللحم، وارحمتا للمؤمنين، فقدوا النور والخير، والبر والرحمة، ونزحت من بين أيديهم منابع العرفان والهداية، وانقطعت صلة السماء بالأرض، ولم يعد لجبريل الأمين موطئ بينهم!! روى ابن سعد في الطبقات: أن ملك الموت استأذن على رسول الله ﷺ، وكان معه جبريل الأمين، فقال جبريل: «يا أحمد، إن الله قد اشتاق إليك»! فقال رسول الله ﷺ: «فامض يا ملك الموت لما أُمرت به»! قال جبريل: «السلام عليك يا رسول الله، هذا آخر موطئ من الأرض، إنما كنتَ حاجتي من الدنيا»!!.

أجل، كان امتحاناً مريراً، فوجئ به المؤمنون فسلّ أرواحهم من أبدانهم، وخلع قلوبهم من صدورهم، وأضفى عليهم الذهول والحيرة، حتى أخذ عمر بن الخطاب بقائم سيفه وقال: «لا أسمع أحد يقول: مات رسول الله ﷺ، إلا ضربته بسيفي هذا، والله ما مات رسول الله، وإنما أرسل إليه كما أرسل إلى موسى عليه الصلاة والسلام، فلبث عن قومه أربعين ليلة! والله إني لأرجو أن يقطع أيدي رجال وأرجلهم»! فلم يقدر أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أن يرد على عمر رضي الله عنه، وذهبت بهم الحيرة كل مذهب؛ فمن لهم بمن يكشف عنهم هذا الكرب الفادح، ويحمل معهم هذا العبء القاتل؟ أين صاحب رسول الله؟ أين الصدِّيق؟ أين عَيْلم المؤمنين؟ أين أرسخ الناس إيماناً؟ إنهم أحوج ما يكونون إليه في هذه الساعة المدلهمة.

وكان أبو بكر رضي الله عنه قد رأى من النبي ﷺ نشاطاً فاستأذنه ليذهب إلى أهله بالسُّنْح من عوالي المدينة فأذن له؛ وهذا

في نظرنا يحمل في باطنه سراً من أسرار الصديقيَّة كان بتدبير الله الحكيم، فما كان الصديق الحبيب ليطيق أن يشهد ما شهد الذين وصّبوا رسول الله ﷺ من الشدة، وما كان ليستطيع أن يسمع من رسول الله ﷺ كلمة الوداع الأبدية، وهو مذخور للمؤمنين يحمل عنهم ما يرزؤهم من فادح الخَطْب، وكارث الأفداح، فغيّبه الله تعالى في تلك الساعة ليستجم في صدره الإيمان حتى يلقى عاطفة حب شخص النبي ﷺ بجلائل العقل وجلال الإيمان، ويرد على المؤمنين ما فقدوا من روحانيتهم.

قال ابن المنير: «لما مات ﷺ طاشت العقول، فمنهم من خبل، ومنهم من أُقعد فلم يطق القيام، ومنهم من أُخرس فلم يطق الكلام، ومنهم من أضنى، وكان عمر ممن خَبَل، وكان عثمان ممن أخرس يذهب به ويجاء ولا يستطيع كلاماً، وكان عليّ ممن أُقعد فلم يستطع حراكاً، وأضنى عبد المطلب بن أُنيس فمات كمداً، وكان أثبتهم أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، جاء وعيناه تهملان، وزفراته تتردد، وغصصه تتصاعد، فدخل على النبي ﷺ فأكب عليه وكشف الثوب عن وجهه، وقال: «طِبْتَ حياً وميتاً، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء، فعظمت عن الصفة، وجللت عن البكاء، ولو أن موتك كان اختياراً لجُدْنا لموتك بالنفوس»!.

ثم خرج الصديق إلى المسجد ليعيد للمؤمنين بعض شعورهم حتى لا يشغلهم فادح الخطب عن مدلهمات الأمور، فوجد عمر ابن الخطاب أجزع الناس وهو يتكلم حتى ازبدَّ شدقاه، يحلف أن

رسـول الله لم يمت، فقال الصدّيـق الأعظم: «علـى رِسْـلك أيها الحالف»! فسكت عمر، وتكلم أبو بكر فقال: «ألا من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت» ثم تلا قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾، فتلقاها الناس من أبي بكر حين تلاها، حتى قال قائلهم: والله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآيـة أنزلت حتى تلاها أبو بكر؛ قال سعيد بن المسيّب: إن عمر بن الخطاب قال: «والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها فعُقِرت وأنا قائم حتى خررت على الأرض، وأيقنت أن النبي ﷺ قد مات».

الله أكبر!! أي رجل في بُرْدَي الصديق؟ وأي إيمان بين جَنْبيه؟ إن القلم ليعجز عن القول، وإلا فما عساه أن يقول؟ الصديق رفيق الغار، وبِكر الإسلام، وأحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وأعرفهم بقدره، وأصدقهم في حبه، ورسول الله ملء قلبه وسمعه وبصره، ونور روحه، أترى هؤلاء الذين أصيبوا بما أصيبوا في صادق حزنهم على رسول الله ﷺ كانوا يبلغون معشار ما كان ينطوي عليه قلب الصديق من الحزن على فراق الحبيب؟ ولكنه امتحان الإيمان يجوزه الصدِّيق ليسمو إلى قيادة الأمة تثبيتاً لما بنى رسول الله ﷺ.

قال الإمام أبـو عبد الله القرطبي عند تفسـير آية ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ ﴾: هذه الآيـة أدل دليل على شـجاعة الصدّيق وجراءته، فإن الشجاعة والجرأة حدُّهما ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبي ﷺ، فظهرت عنده

شجاعته وعلمه، قال الناس: لم يمت رسول الله ﷺ، منهم عمر، وخرس عثمان، واستخفى عليّ، واضطرب الأمر، فكشفه الصدِّيق بهذه الآية.

ثبّت الله المؤمنين براسخ إيمان الصديق، وسَمَا بهم إلى روحانية أكمل، وإيمان أقوى، لأنه إيمان لفتهم إلى مهمتهم، وإلى سر إيمانهم بهذا الحب الغامر الذي انطوت عليه جوانحهم للنبي الأكرم صلوات الله عليه، حتى أصابهم ما أصابهم من هول صدمتهم بمفارقة شخصه في هذه الحياة. إيمان لفتهم إلى هذه الرسالة العظمى التي جاء بها رسول الله ﷺ، والتي من أجلها حاربوا العدو والصديق، وضحوا بالنفس والنفيس وفارقوا الأهل والوطن. هذه الرسالة التي نزلت رحمة للإنسانية في جميع أقطار الأرض، ولكنها لم تبلغ في التبليغ مداها الذي قُدِّر لها، فمن يقوم على أدائها بعد حياة رسول الله ﷺ غير أصحابه وتلاميذه الأعلام؟ وهل كان الإيمان بالرسالة المحمدية في عمومها وخَتْمها للنبوات حبيساً على حياة رسول الله ﷺ؟ هذا تساؤل يمليه واقع الحال، ويجيب عنه الصدِّيق الأعظم بتلك الكلمة الخالدة القوية الباهرة القاهرة: «ألا مَنْ كان يعبد محمداً فإنَّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت». فعادت إلى المؤمنين سكينتهم، وبَكَوا رسولهم بكاء أعز الأحباب، ولكنهم تمثلوا رسالته وأمانة تبليغها؛ وهنا يتجلى للمسلمين موقف يعجز القلم عن تصويره في قوة الإيمان ورسوخ العقيدة.

ذلك أنهم ما كادوا يرون هدوء الصديق الأعظم وقوة يقينه

وثباته وتذكيرهم بقانون الله تعالى في بشرية محمد ﷺ، ويعلمون أن الله قد اختار لصفيه ما عنده من تجليات القرب على ما عندهم، حتى وثبوا إلى مجالس الشورى، والنبي ﷺ مُسَجًّى جسده الشريف في بيته، ليقيموا للمسلمين إماماً يقودهم ويسوس أمورهم حتى يبلغوا رسالة نبيهم صلوات الله عليه؛ فالأنصار وهم عَيْبة النبي وكَرِشه الذين أيدوه ونصروه بأرواحهم رأوا أنهم أحقاء بهذا الأمر، والمهاجرون الأولون رأوا أنهم السابقون الذين حضنوا الإسلام في مهده، فهم أحق بأن يأخذوا بزمام الأمر، وكادت الفتنة تعود جَزِعة، وكاد الاضطراب يتفاقم في أمر أخطر وأعظم، ولكن الله تعالى الرحيم بهذه الأمة ادّخر لها صدِّيق نبيها لينقذها من مآزقها، فكما ثبتها في خطب إصابتها بنبيها فليثبتها في توجيه حياتها لأداء مهمتها العظمى.

خرّج البخاري في الصحيح من حديث طويل: «اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة فقالوا: منّا أمير، ومنكم أمير، فذهب إليهم أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر، وكان عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا أني قد هيأت كلاماً قد أعجبني خشيت أن لا يبلغه أبو بكر، ثم تكلم أبو بكر، فتكلم أبلغ الناس».

وفي رواية ابن عباس قال عمر رضي الله تعالى عنه: «ما ترك أبو بكر كلمة أعجبتني في تزويري إلا قالها في بديهته وأفضل حتى سكت»، فقال أبو بكر في ضمن خطبته: «نحن الأمراء وأنتم الوزراء»، فقال حباب بن المنذر: «لا، والله لا نفعل، منا أمير ومنكم أمير»،

فقال أبو بكر: «لا، ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء؛ هم أوسط العرب داراً، وأعربهم أحساباً، فبايِعوا عمر أو أبا عبيدة، فقال عمر: بل نبايعك أنت، فأنت سيدنا وخيرنا، وأحبنا إلى رسول الله ﷺ، فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس».

قالت أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «فما كانت من خطبتهما من خطبة إلا نفع الله بها: لقد خوّف عمر الناس، وإن فيهم لنفاقاً فردهم الله بذلك، ثم لقد بصّر أبو بكر الناس الهدى، وعرّفهم الحق الذي عليهم».

في هذه الأحاديث آيات بينات على عظمة الصدِّيق الإسلامية وعبقريته الإيمانية؛ فهو الذي أنقذ الأجلاء: عمر وعثمان وعلياً وغيرهم، من هول ما أصابهم في الحادث الفادح؛ وهو الذي أنقذ الأمة كلها من شر فتنة، لولا بركته وقوة إيمانه وبراعته الخطابية والسياسية، وعلمه وجلاله، لكانت عليها شراً مستطيراً؛ وهو الذي علَّم الناس كيف يسمو الإيمان فوق كل شيء، وكيف يسحق الإيمان كل شيء، وكيف يتغلب الإيمان على كل شيء. فما أحوج المسلمين اليوم إلى نفحة من نفحات الإيمان الصدِّيقي حتى تستقيم قناتهم في توجيه الحياة الإسلامية وجهة العزة والكرامة.



ـ ١٠ ـ

امتحان الرجولية

في مقالنا السابق رسمنا خطوة من خطوات الفَلَك في دائرة التاريخ الإسلامي كانت أشد وطأ على قلب الإسلام، وأقسى امتحاناً لإيمـان المؤمنين من جميع ما ضمت الحيـاة بين جنباتهـا من آلام وأهوال، حتى تزلزلت لها أقدام الراسخين، وذهلت من هولها نفوس الصادقين، وتفرَّد الصديق الأعظم رضي الله عنه، فَسَمَا بإيمانه وعقله فوق مستوى العاطفة إلى أفق الوراثة العظمى للنبوة الخاتمة في الدعوة إلى الله، وتبليغ دين الله وشرائعه إلى الأحمر والأسود، وثبَّت الله براسخ يقينه عروة الإسلام.

والآن نتحدث عن خطوة أخرى كانت امتحاناً للرجولية عامة، ووزناً لشخصية الصديق رضي الله عنه بميزان العظمة التي لا يستشرف إليها سوى بِكْر الإسلام، ورفيق الغار، فكان على مَهْيعه في مواقفه الإسلامية، عبقرياً، نسيج وحده، لا يطاوَل في رجوليته، ولا يُلحق في وثيق إيمانه، ولا يدرك في سمو حكمته وحسن سياسته، ولا يرام في شجاعته وقوة عزمه.

انتهت بيعة أبي بكر رضي الله عنه بالخلافة ورسولُ الله ﷺ مسجًّى في بيته لمّا يُنقل إلى الروضة المطهرة، فكان في ذلك رأب صدع الأمة، وجمع شملها بعد ما كادت تعصف بها فتنة هوجاء تداركها الله بثاقب رأي الصديق وجليل حزمه، وكان في ذلك أيضاً وزن الإيمان بميزان العقل بعد طغيان العاطفة من هول المصاب، وهذه البيعة الصديقيّة كانت أول مظهر من مظاهر نظام الحكم الإسلامي في أول أطوار الأمة ومهد نشأتها، فكانت بيعة قوية يقول فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «وإنا والله ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من مبايعة أبي بكر».

وهذه القوة في بيعة الخليفة الأول أوضح عنوان على فهم المسلمين الأولين لقيمة الدين ومعنويته، فهم لا يفهمونه محض تعبّد ورهبنة، ولكنهم يفهمونه إصلاحاً شاملاً للفرد والجماعة، ويفهمونه نظاماً يرمي إلى وحدة الإنسانية، وسياستها سياسة حكيمة حتى تصل إلى ما قدر لها من كمال، وحتى تنطلق من القيود والأغلال التي كبلها بها دعاة الأديان فيمن سلف من الأمم، ودعاة الحكمِ من المتألّهين فوق عروش الاستبداد، ودعاة العلم من المضلّلين والمشعوذين باسم العلم والفلسفة.

فالإسلام في نظر المسلمين الأولين لا يقيم للشخصيات مهما عظمت وزناً إلا بقدر ما لها من فضيلة تنهض بالمجتمع الإنساني وترفع من شأنه، فهو يريد أمة يسودها العدل الفردي والاجتماعي، ونعني به العدل الذي يهذب الحريات الشخصية، ويهيمن على صِلات الفرد بالجماعة، والجماعة بالفرد، بل يهيمن على صلات الإنسان بغيره من الكائنات.

لم يكد يفرغ أمر البيعة حتى تقدم أبو بكر رضي الله عنه بين يدي الأمة التي ولَّته قيادها وأسلمته بعد نبيها زمام سياستها، يرسم سياسته التي سيسير عليها، ويعاهد الأمة عهداً ينتزعه من الدستور الأعظم، يأخذ فيه من نفسه للأمة، ويأخذ من الأمة لنفسه.

روى ابن الأثير في التاريخ قال: «بعد أن تمت البيعة صعد أبو بكر المنبر فقال بعد حمد الله والثناء عليه: أيها الناس: وُلّيتُ عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوِّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ حقه له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ منه الحق إن شاء الله تعالى، لا يَدَع أحد منكم الجهاد، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله».

وهذه الكلمات القليلة المعدودات، ضمنها الخليفة الأعظم مبادئ الشورى العادلة، وأسس الحكومة الفاضلة، ووضح فيها واجب الرعية وحقها على الراعي، وبيّن واجب الراعي وحقه على الرعية، وحدد سلطة الحاكم بدستور الطاعة لله ولرسوله؛ فهل يدلنا المتشدقون من المولعين بالسياسة وأنظمة الحكم، على نظام حكومي في أية دولة من هذه الدول المتمدنة، يعلن فيه رئيس الدولة حق الأمة في هذه الصورة الباهرة كما أعلنه أول خليفة للأمة الإسلامية في كلمته الخالدة؟ وهل يدلنا علماء الاجتماع على أسس لتربية الحيوية في الأمة وغرس مبادئ الرجولية في أفرادها أفضل من قول أبي بكر رضي الله عنه: «لا يدع أحد منكم الجهاد، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله

بالذل»؟ أفلا يشعر المسلمون اليوم أن ما هم فيه من ذل واستعباد إنما حل بهم من استمرائهم الترف والليونة المهينة، وتجافيهم عن ذرائع الرجولية، وتركهم الجهاد تزلفاً إلى هذه المدنيات الفاجرة؟!.

كانت وفاة سيدنا رسول الله ﷺ، فوق كونها في ذاتها أفدح نكبة مُني بها الإسلام والمسلمون، باباً ولجت منه فتنة عمياء بأحداث جسام، فقد ارتد بعض العرب، وتظاهر المنافقون، واشرأبت أعناق اليهود، والمسلمون في همّ ناصب مع قلَّة عدد، وزاد ذلك عليهم أن رسول الله ﷺ كان قد أمّر أسامة بن زيد على جيش ليتوجه إلى الشام غازياً في عدد من جند المسلمين عظيم، وكان صلوات الله عليه شديد الرغبة في توجه هذا الجيش، فكثيراً ما كان يقول وهو في مرضه: «أيها الناس أنفذوا جيش أسامة». فأي عبء هذا الذي تحمل أبو بكر رضي الله عنه؟ ولكنها الرجولية تؤدي امتحانها كما امتحن الإيمان فرجح بإيمان الأمة جميعها!.

تهامس الناس: العرب قد انتقضت علينا، وفي جيش أسامة جند المسلمين، وأسامة شاب لم تعركه التجارب، فليرفعوا أصواتهم إلى الخليفة قائلين: «إن جيش أسامة جند المسلمين، والعرب قد انتقضت علينا، فلا ينبغي أن تفرق عنك جماعة المسلمين». ولكن أبا بكر ليس رجلاً كالرجال، بل هو شخصية أسمى وأرفع؛ إنه كما قلنا ينزع من منبع النبوة، ومن حديث النبوة الذي اتخذه أبو بكر أسوته في هذا المقام: أن النبي ﷺ في مبدأ الدعوة تحدث إليه عمه أبو طالب حديثاً ظنه رسول الله ﷺ ضعفاً عن نصرته، فقال لعمه: «يا عم والله

لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه». وأبو بكر رضي الله عنه لم يكد يسمع ممن بلغه مقالة المسلمين حتى قال: «والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بَعْث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته»!

نعم، فلينفذ جيش أسامة، ولكن ليولِّ عليهم من هو أقدم سناً من أسامة، فمن يكلم الصديق بهذا؟ وهل غير عمر بن الخطاب يجرؤ على ذلك؟ قال عمر: «إن الأنصار أمروني أن أبلغك أنهم يطلبون إليك أن تولي أمرهم رجلاً أقدم سناً من أسامة». فما كان من الصديق إلا أن وثب حين سمع من عمر مقالته حتى أخذ بلحية عمر وقال: «ثكلتك أمك يا بن الخطاب! استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه، لو خطفتني الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله ﷺ»!.

شيّع أبو بكر رضي الله عنه جيش أسامة ماشياً وأسامة قائد الجيش راكب، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن! فقال الصديق: «والله لا تنزل ولا أركب، وما عليّ أن أغبر قدميَّ في سبيل الله ساعة، فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمئة حسنة تكتب له، وسبعمئة درجة ترفع له، وسبعمئة خطيئة ترفع عنه». وفي هذا تكملة لدرس من دروس الصدِّيق في قصة أسامة، فهو قد أراد أن يريهم في نفسه مقدار تعظيمه لأسامة لأن رسول الله ﷺ ولاه قائداً، وهو قد أراد أيضاً أن يرغب المؤمنين ويقوي نفوسهم على الجهاد لتتمحض

بالإخلاص رغبة فيما عند الله وتجافياً عن الدنيا، ثم هو يزيد في إظهار قَدْر أسامة في نظر جنده وفيهم كثرة من جلّة الصحابة، فيستأذنه في أن يترك له عمر يستعين به لأنه كان جندياً من جنود أسامة فيأذن له فيه، وفي ذلك بيان لقيمة قائد الحرب العسكرية في نظر الإسلام.

توجَّه جيش أسامة في وجهه، فزحفت عبس وذبيان على المدينة، وترامت إلى المسلمين أخبار المتنبئين والمرتدين ومانعي الزكاة، فشمّر أبو بكر لقتالهم جميعاً، فتهيب المسلمون وفيهم عمر ابن الخطاب ذلك القتال، ولكن أبا بكر وهو وارث النبوة المحمدية الأول والقائم على تراثها المجيد أبى إلا أن يمضي في طريقه قُدُماً، وقال: «والله لأجاهدنَّهم ما استمسك السيف بيدي، ولو منعوني عِقالاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلهم»! فقال له عمر: «وكيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها وحسابه على الله تعالى»؟ فقال أبو بكر: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، وقد قال: إلا بحقها». قال عمر: «فوالله ما هو إلا أن رأيتُ اللهَ شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق».

قوة الإيمان إذا صادفت رجولية حركت الجبال الرواسي، ولو أن ما نزل بالمسلمين في أول خلافة الصديق نزل بأعظم الدول وأقواها لعصف بها، ولكن أبا بكر انتهض للأمر فجدد الدين وأرسى قواعده ووجه الجيوش بعد ذلك للفتح والهداية.

وإنّا لنجد خير ما نختم به الحديث عن سيرة الصديق الأعظم ـ والحديث عنه لا ينتهي ولا يُملّ ـ تلك الكلمة العظيمة التي صورت بها شخصيةَ الصدّيق أمُّ المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، قالت: «أبي وما أبيه؟ أبي والله لا تَعْطوه الأيدي، ذاك طود منيف، وفرع مديد، هيهات كذبت الظنون، أنجح إذ أكديتم، وسبق إذ ونيتم، سبق الجواد إذا استولى على الأمد، فتى قريش ناشئاً، وكهفها كهلاً، يفك عانيها، ويريش مملقها، ويرأب شعبها، ويلم شعثها، حتى حَلِيته القلوب، ثم استشرى في دين الله فما برحت شكيمته في ذات الله عز وجل حتى اتخذ بفنائه مسجداً يُحيي فيها ما أمات المبطلون، وكان رحمه الله غزير الدمعة، وقيذ الجوانح، شجيَّ النشيج، فانقضت إليه نسوان مكة وولدانها يسخرون منه ويستهزئون ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾، فأكبرت ذلك رجالات من قريش فحنت قسيَّها، وفوقت سهامها، وامتثلوه غرضاً، فما فلُّوا له صفاة، ولا قصفوا له قناة، ومرَّ على سيسائه حتى إذا ضرب الدين بجِرانه، ورست أوتاده، ودخل الناس فيه أفواجاً، ومن كل فرقة أرسالاً وأشتاتاً، اختار الله لنبيه ما عنده.

فلما قبض الله نبيه ﷺ ضرب الشيطان رُواقه، ومد طُنُبه، ونصب حبائله، وأجلب بخيله ورَجِلِهِ، واضطرب حبل الإسلام، ومرج عهده وماج أهله، وبُغي الغوائل، وظنت رجال أن أكثبت أطماعهم نهزها، ولات حين الذي يرجون، وأنّى والصدِّيق بين أظهرهم، فقام حاسراً مشمّراً، فجمع حاشيتيه ورفع قطريه، فرد رَسَن الإسلام على غَرْبه، ولمَّ شعثه بطبه، وانتاش الدين فنعشه، فلما

أراح الحق على أهله، وقرر الرؤوس على كواهلها، وحقق الدماء في أهبها، أتته منيّته، فسدّ ثلمته بنظيره في الرحمة وشقيقه في السيرة والمعدلة، ذاك ابن الخطاب، لله درّ أمٍّ حملت به ودرّت عليه. . . فأروني ماذا ترتأون؟ وأي يوميَ أبي تنقمون؟ أيوم إقامته إذ عدل فيكم؟ أم يوم ظعنه إذ نظر لكم؟! أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم».

* * *

مصعب بن عمير

كان مصعب بن عمير أحد السابقين الأولين من رجالات الرعيل الأول في الإسلام، وكان لعظيم فضله، وحسن خلائقه وأخلاقه يلقب بين المسلمين «مصعب الخير» وهو هاشمي منافي عَبْدري، في القمة من بيوتات قريش، والذروة في أرومتها.

ألقت نسائم الهداية إلى أذنه روح الدعوة إلى الله تعالى، إذ بلغه ـ وهو في مَيْعة الترف، ونعيم الثراء، ومتع الدنيا. يتقلب فيها من نعمة إلى نعمة، يغدق عليه أبواه من ثرائهما ما شاء من خوض غمرات الدنيا وشهواتها ـ أن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام في دار الأرقم بن أبي الأرقم مستتراً بدعوته، فدلف إليه مصعب وهو في ريعان الشباب متخفياً من أبويه وقومه، وألقى بقلبه وعقله ونفسه بين يدي رسول الله ﷺ، وأسلم وشهد شهادة الحق وكتم إسلام، وجعل يختلف إلى رسول الله ﷺ فيمن آمن معه، متسلّلاً تحت جنح الخفاء، مستهدياً بما يرى من سمت رسول الله ﷺ وفعله في هديه، وبما يسمع منه من الآيات والحكمة، حتى أُشرب قلبه حب الإيمان وأصبح شعلة تضيء مشاعره وأحاسيسه، لا تشرق عليه شمس يوم جديد إلا وهو في زيادة من الهداية.

وكانت أمه مليئة، كثيرة المال، عظيمة الثراء، طيعة لمطالبه.

لا تضن عليه بشيء من متع الدنيا ولذائذها، تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقه، وكان مصعب أعطر أهل مكة، يلبس الحضرمي من النعال.

يقول ابن سعد في الطبقات: كان مصعب بن عمير فتى مكة شباباً وجمالاً وسبيباً[1] وكان النبي ﷺ يذكره فيقول: «ما رأيت بمكة أحسن لِمَّة[2]، ولا أرق حلة، ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير».

وفي حديث عروة بن الزبير قال: بينا أنا جالس يوماً مع عمر بن عبد العزيز وهو يبني المسجد فقال: أقبل مصعب بن عمير ذات يوم والنبي ﷺ جالس في أصحابه، عليه قطعة نمرة قد وصلها بإهاب ـ جلد ـ قد ردنه ـ أي جعل الإهاب ردناً ـ أي كُمّاً لنمرته. ثم وصله إليها، فلما رآه أصحاب النبي ﷺ نكسوا رؤوسهم رحمة له. ليس عندهم ما يغيرون عنه، فسلم، فرد عليه النبي ﷺ، وأحسن عليه الثناء، وقال: «الحمد لله، ليقلب الدنيا بأهلها، لقد رأيت هذا ـ يعني مصعباً ـ وما بمكة فتى من قريش أنعم عند أبويه منه، ثم أخرجه من ذلك الرغبة في الخير، في حب الله ورسوله».

والإيمان طلاَّع لا يحجب، يعلن عن نفسه، مهما حاول صاحبه كتمانه والإسرار به، وقد ظل مصعب يكتم إيمانه، ويسره عن أبيه وأمه، وعشيرته وقومه، فأبى عليه إشراق نوره أن يظل حبيس الخوف، أسير الكتمان، فأعلن عن نفسه في وقفة بين يدي الله تعالى وهو يصلي

---

(١) السبيب، كأمير: شعر الناصية والخصلة من الشعر.
(٢) اللمة من شعر الرأس: ما ألمَّ بالمنكبين.

ـ والصلاة هي العنوان الأكبر للإسلام ـ فرآه عثمان بن طلحة العبدري، أحد رجالات قومه، فأسرع إلى إخبار أمه، فأخذوه، وحبسوه وضيّقوا عليه، وعذّبوه بالجوع والظمأ، فصبر على ضيق الحبس، وصبر على قسوة التجويع والإعطاش، ولكنه لم يستنم ولم يستسلم، حتى أتيحت له نهزة الإفلات من حبسه، فخرج مهاجراً إلى الله ورسوله، حيث يأمن على دينه ونفسه، حيث أخبرهم رسول الله ﷺ عن أرض بها ملك لا يُظلم عنده أحد، أرض الحبشة، واستقرّ به المقام مع أصحابه الذين هاجروا هجرته، يحتملون آلام الغربة، وشدائد البأساء في سبيل اطمئنان قلوبهم بإيمانهم.

وفي صدى أكذوبة طيرها الشيطان بإسلام قريش وهدوء ما بينها وبين المسلمين من شحناء، عاد مصعب إلى مكة مع من عاد إليها من إخوانه المهاجرين، ولكنه عندما وصل إلى مكة وجد أن أكذوبة الشيطان بإسلام قريش كانت صرخة في وادي الأباطيل، ووجد قريشاً على أشد كفرها وجحودها، واشتدّ الأذى بمن عادوا من الحبشة فعادوا من حيث أتوا، وعاد مصعب معهم، وبقي بأرض الغربة ردحاً من الزمن، وعاد موطّناً نفسها على عزائم الصبر، واحتمال الأذى مؤتسياً برسول الله ﷺ، وخاصّةِ المؤمنين.

ولما رأته أمه إثر عَوْدته من الحبشة، وكان قد حالَ حالُه، وتغيَّر سمته، وشظف عيشه وقشفت حياته، رقَّت له، وكفَّت عن لومه وعذله. ولكنها لم تعد إليه بما كانت تغدق عليه قبل إسلامه، وما كان هو ليرغب أو يرضى شيئاً من دنياها ودنيا قومها، فقد رضي بالله تعالى

ربّاً، ورضي بالإسلام ديناً، ورضي بسيد الخلق محمد ﷺ نبياً ورسولاً وقدوة وإماماً.

كان مصعب رضي الله عنه من أحسن الناس خُلُقاً، وأنبلهم نفساً، طلّق الدنيا وكانت متعها بين يديه فصدَّ عنها ولم يُعِرْها نظراً، لا يماري أهلها، ولا يختلف مع أحد في شأن من شؤونها، يقول خِدْنُه وصديقه عمر بن ربيعة: كان مصعب بن عمير لي خدناً وصاحباً من يوم أسلم إلى أن قتل رحمه الله بأُحد، خرج معنا إلى الهجرتين جميعاً بأرض الحبشة، وكان رفيقي من بين القوم، فلم أرَ رجلاً قطّ أحسن خلقاً، ولا أقل خلافاً منه.

ولما تمَّت بيعة الأنصار الأولى ـ بعد التمهيد لها على يد ستة نفر من الخزرج ـ وفشا الإسلام في المدينة المنورة، أرسلت الأنصار رجلاً إلى رسول الله ﷺ، وكتبت إليه كتاباً: ابعث إلينا رجلاً يفقِّهنا في الدين ويقرئنا القرآن، فبعث إليهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير.

فقدم مصعب المدينة، ونزل على أسعد بن زرارة، فتلازما في الدعوة إلى الله، وهذا هو الثابت، وفي طبقات ابن سعد أن مصعباً نزل على سعد بن معاذ، وهذا غلط؛ لأن سعد بن معاذ لم يكن يومئذٍ قد أسلم، وإنما كان إسلامه على يد مصعب بن عمير، وصاحبه أسعد بن زرارة، وقد ذكر ابن سعد في الطبقات هذه الرواية الصحيحة، بعد ذكره تلك الرواية الغالطة.

وشمَّر مصعب للقيام بأعباء الدعوة إلى الله، يفقِّه المؤمنين في دين الله، ويعلِّمهم معالم الإسلام، ويقرئهم القرآن، وكان يُسمَّى

المقرئ، ويدعو من لم يكن قد آمن إلى الإيمان.

وكان لمصعب رضي الله عنه طريق وأسلوب في الدعوة إلى الله من أحكم وأحسن ما استنَّ الدعاة إلى الله.

كان يأتي الأنصار في دورهم وقبائلهم، فيدعوهم إلى الإسلام، يقرأ عليهم القرآن، فيُسلم الرجل والرجلان، وهو صابر مصابر، حتى فشا الإسلام، وظهر في جنبات المدينة وضواحيها من العوالي، ولكن صاحبه أسعد بن زرارة لم يعجبه أن يرى دعوة الإسلام تمشي وئيدة بين قومه وفي بلده، فدفع بصاحبه مصعب إلى موقف جريء. ولكنه مفْعَم بالخير والبركة، وهو قد علم من شأن هذا الداعية العظيم وحسن أدبه في اقتناص القلوب، واقتناع العقول ما جعله يطمئن إلى دفعته الجريئة المباركة التي جاءت بزعماء المدينة إلى حظيرة الإسلام على يدي مصعب الخير، وأسلوبه الذي سلكه في تحبيب الإسلام إلى قلوبهم وعقولهم، وإعطائهم النَّصَف في السماع إليه.

روى ابن إسحاق أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد دار بني عبد الأشهل ودار بني ظَفَر، وكان سعد بن معاذ رضي الله عنه ابن خالةِ أسعد بن زرارة، فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر، على بئر يقال له بئر مرق. فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم ـ وسعد بن معاذ، وأُسيد بن حضير يومئذاً سيدا قومهما، بني عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه ـ فلما سمعا بمصعب ودعوته قال سعد لأسيد: لا أبالك؟ انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفّها ضعفاءنا فازجرهما وانههما أن يأتيا دارينا، فإنه

لولا أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مغنماً.

فأخذ أُسيد حربته ثم أقبل عليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب: هذا سيد قومه، وقد جاءك فاصدق الله فيه.

قال مصعب: إن يجلس أكلمه، فوقف أُسيد بن حضير عليهما مُتَشتِّماً، فقال: ما جاء بكما إلينا؟ جئتما تسفِّهان ضعفاءنا.. اعتزلا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أوَتجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره، قال أسيد: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وعرض عليه معالمه وشرائعه وآدابه، وقرأ عليه القرآن، فاستبان لهما أمره، وعرفا في وجهه الإسلام، قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهُّله.

ثم قال لهما أُسيد: ما أحسن هذا وأجمله.. كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهَّر، وطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي، فقام أسيد واغتسل، وطهر ثوبيه، وتشهَّد شهادة الحق ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتّبعكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن: سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم.

فلما نظر سعد إلى أسيد مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم. فلما وقف أسيد على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت

بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، فقال له سعد: والله ما أراك أغنيت شيئاً، ثم أخذ سعد حربته وخرج إليهما فلما رآهما مطمئنَّيْن عرف أن أسيداً إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف سعد عليهما مُتشتِّماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمْت هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره؟. وكان أسعد ابن زرارة قد قال لمصعب لما رأى سعد بن معاذ مقبلاً: جاءك والله سيد قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان، فقال مصعب في ثقة واطمئنان: أو تقعد فتسمع، فإن رضيت شيئاً رغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره.

فقال سعد بن معاذ: أنصفت، ثم ركز حربته، وجلس، فعرض عليه مصعب الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قرأ عليه أول سورة الزخرف ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، فتهلل وجهه وأشرق فعرفا فيه الإسلام قبل أن يتكلم، في إشراقه وتسهله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قال مصعب: تغتسل فتطهَّر، وتطهِّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، فقام سعد فاغتسل وطهر ثوبيه، وشهد شهادة الحق، ثم أخذ حربته فأقبل عائداً إلى قومه، ومعهم أسيد ابن حضير، فلما رآه قومه مقبلاً، قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يابني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبة، قال سعد: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فما بقي في دار بني الأشهل رجل أو امرأة إلا مسلماً أو مسلمة.

هكذا كان مصعب في قوة إيمانه، وصبره، وحُسن بلائه، ومعرفته بطبائع النفوس البشرية حيث اختير داعية إلى الإسلام، فكان خير داعية إلى الله تعالى، استجابت له يثرب بأوسها وخزرجها، رجالها ونسائها، شبابها وشيوخها.

لقد كانت حياة مصعب بن عمير رضي الله عنه عجباً من العجب، فهو في جاهليته فريد في حياته ثراء عريض، وترف مريض، ونِعم من حوله تغمره، وهو منغمس في لجّتها لا يفيق. وإذا هو في إسلامه آية من آيات الله في رجالات الإسلام وشبابه، أسوة الدعاة إلى الله تعالى، وأسوة البطولة في ميادين الجهاد في سبيل الله، وأسوة الرضى عن الله تعالى في مجاري أقداره وحكمته، أحب الإسلام حباً غمر مشاعره، وأحب الله ورسوله حباً ملأ عليه قلبه.

ولما رأى مصعب أن الإسلام قد غمر المدينة المنورة، وغلب صوته على كل صوت، ودخل على المخدَّرات والعذارى مداخلهن، ولم يبقَ بيت من بيوت الأنصار إلا وللإسلام فيه دويّ، ولرسول الله ﷺ ذكر وإلى طلعته شوق ـ عمد إلى خطة تجمع القلوب وتؤلف بين المجتمع الإسلامي الجديد، وتجعل منه وحدة شعورية يعنونها الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ، وتدفع بالدعوة إلى الاستعداد الأعظم لاستقبال الحدث الأعظم، استقبال رسول الله ﷺ في خاصة أصحابه، لتكون المدينة قلعة الإسلام وعاصمته الأولى وحصنه الحصين.

رأى مصعب أن يجمِّع بالمسلمين في يوم من أيام الأسبوع ليجعل من صوت الإسلام قوة تدخل في مداخل التجمعات اليهودية

التي كانوا يسبتون بها في سبتهم، فكتب إلى رسول الله ﷺ يستأذنه أن يجمِّع بالمسلمين، فأذن له رسول الله ﷺ، وكتب إليه: «انظر من اليوم الذي يجهر فيه اليهود لسبتهم، فإذا زالت الشمس، فازدلف إلى الله فيه بركعتين واخطب فيهم».

فجمع مصعب بن عمير في دار سعد بن خيثمة، وهم اثنا عشر رجلاً - أي الذين حضروا أول تجميع في الإسلام وما ذبح لهم إلا شاة، فهو أول من جمَّع في الإسلام جمعة.

ولما أظلّ الناس موسم الحج خرج فيه سبعون من الأوس والخزرج ليوافوا رسول الله ﷺ وخرج معهم مصعب بن عمير يرافقه صاحبه وصديقه أسعد بن زرارة، فقدم مكة، وكان أول منزل قصده لدى وصوله إلى مكة هو منزل رسول الله ﷺ، وجعل يخبر رسول الله ﷺ على الأنصار وسرعتهم إلى الإسلام واستبطائهم رسول الله ﷺ - أي في الهجرة إليهم - فسُرَّ رسول الله ﷺ بكل ما أخبره.

وبلغ أمّ مصعب قدومه إلى مكة، فأرسلت إليه تقول له: يا عاقّ أَتَقْدُم بلد أنا فيه لا تبدأ بي؟ فقال مصعب: ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله ﷺ، فلما سلَّم على رسول الله ﷺ وأخبره بما أُخبر به ذهب إلى أمه، فقالت له: إنك لعلى ما أنت عليه من الصَّبْأة بعد، قال: أنا على دين رسول الله ﷺ، وهو الإسلام الذي رضيه الله لنفسه ولرسوله.

قالت: ما شكرتُ ما رثيتك مرة بأرض الحبشة، ومرة بيثرب، فقال: أفرُّ بديني أن تقتلوني، فأرادت حبسه، فقال: لئن أنتِ حبستني لأحرضن على قتل من يتعرض لي، قالت: فاذهب لشأنك، وجعلت تبكي.

فقال مصعب يا أمّه إني لك ناصح، عليك شفيق، فاشهدي أنه لا إلـه إلا الله وأن محمداً عبده ورسـوله. فقالت أمُّه: والثواقـب لا أدخل في دينـك، فيُزْرى برأيي، ويُضعَّف عقلي، ولكن أدعك وما أنت عليه، وأقيم على ديني.

وقد أقام مصعب رضي الله عنه بمكة بقية ذي الحجة والمحرم وصفر، وعاد إلى المدينة فقدمها قبيل مقدم رسول الله ﷺ باثنتي عشرة ليلة.

ولما اسـتقرّ المقام برسـول الله ﷺ وأصحابـه، وآخى بيـن المهاجرين والأنصار، وأقام المجتمع الإسلامي على دعائم القوة التي تابى الضيم، شَرق المشركون بهذا الاستقرار، ونشبت المعارك الحربية، وكانت أولاَها وقعة بدر الكبرى، أعظم معارك الإسلام انتصاراً.

خرج إليها رسول الله ﷺ في ثلاثمئة مجاهد بعدة متواضعة، ورفع رسول الله ﷺ لواءها الأعظم إلى البطل القارئ المقرئ مصعب ابن عمير، وشد مصعب يده على اللواء، والتقى الجمعان، ودارت رحى الحـرب بين قوتين غير متكافئتين عدداً وعُدّة، ولكن كان مع القلة المسلمة صبر الإيمان وقوة العقيدة، ومع الكثرة الكافرة غرور الكفر، ومهانة الشرك وذل الوثنية.

هزّ مصعب لواء الإسلام، وتنادى تحت ظلاله فرسان الإيمان وأبطال الإسلام من المهاجرين والأنصار، وما هي إلا جولة حتى تجلَّت عواصف المعركة عن نصر الله لدينه وعبده ورسوله، وجنده

وحزبه، وقُتل صناديد قريش، ورؤوس الكفر، وأُسر منهم من نجا من القتل.

وكان في الأسرى أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه، أسره رجل من الأنصار.

يقول أبو عزيز: مرَّ بي أخي مصعب ورجل من الأنصار يأسرني، فقال له: شد يديك به، فإن أمه مليئة ذات متاع، لعلها تفديه منك، فكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا كلما قسموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا.

ثم فُدي أبو عزيز بأربعة آلاف درهم. وهي أعلى فدية.

وفي هذه القصة إشراقة من مطالع نور الإيمان، فمصعب رضي الله عنه، كان حاملاً في هذه المعركة التي أُسر فيها أخوه وشقيقه أول لواء في أول معركة بين الإسلام والكفر، وهي أعظم معركة في تاريخ الإسلام، قد حشد لها المشركون قضّهم وقضيضهم، فلم يتركوا فارساً من أبطالهم إلا جاؤوا به إلى حتفه، والنبي ﷺ كان على علم بضراوة المعركة وعدم التكافؤ فيها، وكان ﷺ قد تعرف على قوة العدو، عدداً وعدة فكان على بصيرة من أمرها، ومع ذلك كله دفع اللواء الأعظم إلى البطل المعلِّم القارئ المقرئ مصعب الخير، واللواء لا يحمله في ميادين الوغى، ولاسيما في المعارك الكبرى إلا بطل، تعرف شجاعته وبصره بالحرب، وقوة إيمانه، وصرامة عزيمته، وكان مصعب بن عمير كل أولئك في إهاب رجل عليه من إيمانه بدينه مشاعره.

ويتسامى إيمان مصعب رضي الله عنه عن تأثره للعواطف والقرابة، فهو يرى أخاه شقيقه لأبيه وأمه أسيراً في يد الأنصاري، فيغريه به، ويحرضه على شدة الاستمساك به، فيقول له: شُدَّ يديك عليه، فإن أمه ثرية، ذات متاع كثير، وستفديه منك بأعلى فداء، وقد صدق الخبر، وفُدي أبو عزيز أخو مصعب بأربعة آلاف درهم، وكان هذا القدر فيما تعورف أعلى فداء فُدِيَ به أسير.

ثم جاءت غزوة أُحد، وهي غزوة تكالب فيها الشرك بمجموعه وجحافله وأحقاده للثأر، ويختار رسول الله ﷺ بطل اللواء في واقعة بدر لحمل اللواء في هذه الغزوة التي أعد لها أعداء الإسلام من المشركين وأخابث اليهود والمنافقين كل ما يملكون من قوة حاقدة، وشراسة ضارية، ليثأروا لقتلاهم في بدر.

فكان مصعب نِعْمَ القائد البطل، ونِعم حامل لواء في الأولى والآخرة، لم يسقطه من يده، ولم يسلمه لغيره إلا بعد أن أشهد الله ورسوله والمؤمنين أنه لم يبقَ فيه بقية من حياة، ويسقط مصعب شهيداً مضرجاً بدماء الشرف ومجد البطولة.

يقول ابن سعد في الطبقات: حمل مصعب بن عمير اللواء يوم أحد، فلما جال المسلمون ثبت مصعب باللواء، فأقبل ابن قميئة على فرس له، فضرب يد مصعب اليمنى فقطعها، فحنى مصعب على اللواء وأخذه بيده اليسرى، فضرب ابن قميئة يده اليسرى فقطعها، فحنى مصعب على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره، ثم حمل عليه ابن قميئة الثالثة بالرمح فأنفذه واندق الرمح، ووقع مصعب، وابتدر

اللواء رجلان من بني عبد الدار، أحدهما أخو مصعب، هو أبو الروم ابن عمير، فلم يزل في يده حتى دخل به المدينة حين انصرف المسلمون.

وقد وقف النبي ﷺ على مصعب وهو منجعف ـ أي مصروع ملقى ـ على وجهه، فقرأ عليه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ إلى آخر الآية. ثم قال: إنْ رسول الله يشهد أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة، ثم أقبل على الناس، فقال: «أيها الناس زوروهم وأتوهم، وسلّموا عليهم، فوالذي نفسي بيده لا يسلِّم عليهم مسلم إلى يوم القيامة إلاَّ ردّوا عليه السلام».

وفي حديث خبَّاب بن الأرت قال: هاجرت مع رسول الله ﷺ في سبيل الله، نبتغي وجه الله، فوجب أجرنا على الله، فمنّا من مضى ولم يأكل من أجره شيئاً، منهم مصعب بن عمير، قتل يوم أُحد، فلم يوجد له شيء يكفن فيه إلا نمرة، فكنا إذا وضعناها على رأسه خرجت رجلاه، وإذا وضعناها على رجليه خرج رأسه، فقال لنا رسول الله ﷺ: «اجعلوها مما يلي رأسه، واجعلوا على رجليه من الإذخر. ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدها ـ أي يجتنيها ـ».

هذا مَثَلٌ من أمثلة الدعاة إلى الله تعالى، ونموذج من نماذجهم الذين أُشربت قلوبهم منهج رسول الله ﷺ في احتمال الأذى، والصبر على المحن والبلايا في سبيل القيام بعبء نشر الإسلام، في حرص على أن تبلغ دعوته إلى أعماق النفوس، وأن يكون أسلوب الدعوة قائماً على الحكمة والموعظة الحسنة، ورياضة النفوس ومعرفة

أحوالها، والرضا من الدنيا ببُلْغة الرَّمَق، مع عزة الإيمان، وشجاعة القلب وقوة اليقين.

وقد كان لهذا المسلك الذي سلكه مصعب رضي الله عنه في تبليغ الدعوة والروح التي تشبَّع بها في التأسِّي برسول الله ﷺ أثره العظيم في نشر دعوة الإسلام وتثبيت دعائمها بالمدينة المنورة، أَلانَ فتح القلوب المغلقة برتائج الوثنية العمياء والعصبيات الجَهْلاء، وأَلانَ النفوس الجامحة، ومهد (يثرب) مع ما كان فيها من حروب دموية، وأحقاد يهودية، ونفاق ماكر خبيث، لتكون قلعة الإسلام ومدينته التي يأرِز إليها عند اشتداد الملمَّات.

فرضي الله تعالى عن مصعب بن عمير، فقد كان طرازاً من الدعاة إلى الله أحوج ما يكون الإسلام في يومه الآن إلى أن يقتبس دعاتُه من أنوار مصعب وهديه ومنهجه في الدعوة إلى الله.

* * *

عبد الله بن مسعود

شيخ العبادلة، وفقيه المهاجرين الأولين، وحبر العراقيين، وإمام المدرسة التشريعية في الكوفة، وسادس ستة كانوا أسبق أهل الأرض إلى الهداية والخير، والاستجابة إلى كلمة الحق ودعوة اليقين، وأول من جهر بالقرآن الكريم بمكة، فصَكَّ بقوارعه عنجهية الشرك وطغيان الجبروت، وصاحب الهجرتين، والغلام المُعْلَّم، كما لقبه رسول الله ﷺ في أول الإسلام، وجندي بدر الكبرى، وشاهد مواقع الإسلام بعدها، وأخو الزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ فيما قبل الهجرة، وأخو سعد بن معاذ أحد سادات الأنصار فيما بعدها، ومبعوث الفاروق إلى أهل القادسية أستاذاً ومعلِّماً.

ذلكم هو عبد الله بن مسعود، صاحب سر رسول الله ﷺ ومِطْهرته، وحامل نعليه، يرى منه ما لا يرى جميع الناس، ويدخل عليه حين يحجب عامة الخلق وخاصتهم فيسمع ما لم يسمعوا، ويشهد ما لم يشهدوا، حتى كان أعلم الناس بأحوال النبي ﷺ، في مدخله ومخرجه، وسفره وحضره، ونومه ويقظته.

قال العلامة العَيْني في شرح البخاري: «وكان النبي ﷺ خصّص ابن مسعود بنفسه اختصاصاً شديداً: كان لا يحجبه

رسول الله ﷺ إذا جاء، ولا يخفي عنه سره، وكان يلج عليه، ويلبسه نعليه، ويستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام؛ وكان يعرف في الصحابة بصاحب السواد والسواك، وكان يقول له النبي ﷺ: «أذنتك على أن ترفع الحجاب وتسمع سوادي حتى أنهاك».

وروى البخاري عن أبي موسى الأشعري أنه قال: «قدمت أنا وأخي من اليمن فمكثنا حيناً ما نرى إلا أن عبد الله بن مسعود رجل من أهل بيت النبي ﷺ، لما نرى من دخوله ودخول أمه على النبي ﷺ».

وروى الترمذي عن حذيفة «أن ناساً قالوا له: حدثنا بأقرب الناس من رسول الله ﷺ هَدْياً ودَلاً، نلقاه فنأخذ عنه ونسمع منه، قال: كان أقرب الناس هدياً ودلا وسمتاً برسول الله ﷺ ابن مسعود، لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أن ابن أم عبد من أقربهم إلى الله زلفى».

وقد كان لهذه الخصِيصة أثر ظاهر في حياة عبد الله بن مسعود العلمية، جعلت منه أحد أولئك الغر البهاليل الذين حملوا لواء التشريع الإسلامي في أطراف الأرض، وخلَّفوا للإنسانية تراثاً فكرياً خالداً يمدها بما تشاء من قوانين فاضلة، وسياسة عادلة، في أي زمان أو مكان. وقد كان عبد الله بن مسعود في هذا ملاذاً يرجع إليه أكابر الصحابة في الفتيا والفقه وأصول الدين؛ روى ابن سعد في الطبقات «أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ كانوا في دار أبي موسى الأشعري يعرضون مصحفاً، فقام عبد الله بن مسعود فخرج، فقال أبو مسعود:

هذا أعلم من بقي بما أنزل على محمد ﷺ، فقال أبو موسى: إن يكن كذلك فقد كان يؤذن له إذا حُجبنا، ويشهد إذا غبنا».

وكان أبو موسى يسمِّي ابن مسعود (الحبر) فقد جاء في الطبقات عن أبي عطية الهمداني قال: «كنت جالساً عند عبد الله بن مسعود فأتاه رجل فسأل عن مسألة، فقال: هل سألت عنها أحداً غيري؟ قال: نعم، سألت أبا موسى، وأخبره بقوله؛ فخالفه عبد الله، ثم قام فقال: لا تسألوني عن شيء وهذا الحبر بين أظهركم». وكان عمر بن الخطاب إذا ذكر عبد الله بن مسعود يقول: «كُنَيْف ملئ علماً آثرت به أهل القادسية». ولما سيّره عمر إلى الكوفة معلماً وبعث عماراً أميراً، قال: إنهما من النجباء من أصحاب محمد فاقتدوا بهما.

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: «لو كنت مؤمّراً أحداً بغير مشورة لأمّرت ابن أم عبد». وفي صحيح البخاري عن مسروق قال: ذكر عبد الله (بن مسعود) عند عبد الله بن عَمْرو فقال: ذاك رجل لا أزال أحبه بعد ما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «استقرؤا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، فبدأ به».

وقال مسروق بن الأجدع: «لقد جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ (مجتمع الماء) فالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ يروي المئة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم، فوجدت عبد الله بن مسعود مِن ذلك الإخاذ». وفي الحديث الصحيح عن علي رضي الله عنه «لرِجْل عبد الله أثقل في الميزان من أُحد». ويقول بعض التابعين:

«جالست أصحاب رسول الله ﷺ فما رأيت أحداً أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أحب إليّ أن أكون في صلاحه من ابن مسعود». وكان عمر بن الخطاب يعظم ابن مسعود تعظيماً كبيراً، فقد روي أن عبد الله بن مسعود رأى رجلاً قد أسبل إزاره، فقال له: ارفع إزارك، فقال الرجل: وأنت يا بن مسعود فارفع إزارك، فقال: إني لست مثلك، إن بساقي حُموشة وأنا آدم الناس، فبلغ ذلك عمر، فضرب الرجل وقال له: أترد على ابن مسعود؟!.

وكان ابن مسعود على ضئولة جسمه يحمل بين جنبيه قلباً جريئاً تمثلت فيه شجاعة الأبطال، وقد سجل له تاريخ الإسلام في صحائفه مواقف عظيمة؛ فقد روى أن النبي ﷺ قال يوماً لأصحابه: «إني أُمرت أن أقرأ على الجن الليلة، فمن يتبعني»؟ قالها ثلاثاً؛ فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «لم يحضر ليلة الجن أحد غيري، فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة في شِعب الحَجون، فخط لي خطاً، وقال: لا تخرج منه حتى أعود إليك، ثم افتتح القرآن وسمعت لغطاً شديداً حتى خفت على رسول الله ﷺ، وغشيته أسْوِدة كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته، ثم انقطعوا كقطع السحاب، فقال لي رسول الله: هل رأيت شيئاً؟ قلت: نعم: رجالاً سوداً مستثغري ثياب بيض، فقال: أولئك جن نصيبين».

وذكر أصحاب السير أن النبي ﷺ لما فرغ من غزوة بدر أمر بأبي جهل أن يُلتمس في القتلى، وقال: «اللهم لا يعجزَنّك»، وكان قد عقره معاذ بن عمرو بن الجموح، فمر به وهو عقير معوّذ بن عفراء،

فضربه حتى أثبته، ثم تركه وبه رمق، فمر عبد الله بن مسعود بأبي جهل حين سمع أمر رسول الله ﷺ أن يلتمس في القتلى، وقال لهم رسول الله ﷺ: «انظروا إن خفي عليكم إلى أثر جرح بركبته، فإني ازدحمت أنا وهو يوماً على مأدبة لعبد الله بن جدعان ونحن غلامان، وكنت أشَفَّ منه بيسير، فدفعته فوقع على ركبتيه فخدش في إحداهما خدشاً لم يزل أثره فيها بعد». فقال عبد الله بن مسعود: فوجدته بآخر رمق فعرفته، فوضعت رجلي على عنقه ـ وقد كان ضَبَث بي مرة بمكة فأذاني ولكزني، ثم قلت: هل أخزاك الله يا عدو الله؟! قال: وبماذا أخزاني؟ أعْمَدُ من رجل قتلتموه؟! لمن الدَّبَرة اليوم؟ قلت: لله ولرسوله ﷺ، وكان ابن مسعود يقول كما في بعض الروايات: إن أبا جهل قال لي لما وضعت رجلي على عنقه: لقد ارتقيت مرتقىً صعباً يا رُويعي الغنم. ثم احتززت رأسه وجئت به إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، هذا رأس عدو الله أبي جهل، فقال رسول الله ﷺ: آلله الذي لا إله غيره؟ ـ وكانت يمين رسول الله ﷺ ـ قلت: نعم والله الذي لا إله غيره، ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله ﷺ، فحمد الله!.

وكان عبد الله بن مسعود من فصحاء الصحابة وخطبائهم الأبيناء، وله أسلوب في خطابته يشبه أسلوب أكثم بن صيفي حكيم العرب، غير أن أكثم بن صيفي ينـزع عن حكمة التجارب ووحي الفكر الصادق، أما عبد الله بن مسعود فإنه يمتح من منبع الدين ووحي الروح. وقد روى ابن عبد ربه في كتابه (العقد) خطبة لعبد الله بن مسعود تؤيد ما ذهبنا إليه في أسلوبه الخطابي، قال: «أصدق

الحديث كتاب الله، وأوثق العرى كلمة التوحيد. التقوى خير زاد. أكرم الملل ملة إبراهيم ﷺ. خير السنن سنة محمد ﷺ. شر الأمور محدثاتها. خير الأمور عزائمها. ما قل وكفى خير مما كثر وألهى. لنفس يحميها خير من إمارة لا يحصيها. خير الغنى غنى النفس. خير ما ألقى في القلب اليقين. الخمر جماع الآثام، النساء حبائل الشيطان. الشباب شعبة من الجنون. حب الكفاية مفتاح المعجزة. شر الناس مَن لا يأتي الجماعة إلا دبراً، ولا يذكر الله إلا هجراً. سباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر، وأكل لحمه معصية. من يتألى على الله يكذبه، ومن يغفر يغفر له. مكتوب في ديوان المحسنين: من عفا عُفي عنه. الشقي من شقي في بطن أمه. السعيد من وعظ بغيره. الأمور بعواقبها. ملاك الأمر خواتمه، أحسن الهدى هدى الأنبياء. أقبح الضلالة الضلالة بعد الهدى. أشرف الموت الشهادة. من يعرف البلاء يصبر عليه، ومن لا يعرف البلاء ينكره».

وإذا وازنّا بين هذه الخطبة وخطبة أكثم بن صيفي بين يدي كسرى، ظهر لنا جلياً مكان المشابهة بين الأسلوبين، ومنزع كل من الخطيبين. يقول أكثم: «إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمها نفعاً، وخير الأزمنة أخصبها، وأفضل الخطباء أصدقها. الصدق منجاة، والكذب مهواة، والشر لجاجة، والحزم مركب صعب، والعجز مركب وطئ. آفة الرأى الهوى، والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر، وحسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة. إصلاح فساد الرعية، خير من إصلاح فساد الراعي. من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء. شر البلاد بلاد لا أمير بها. شر

الملوك من خافه البريء. أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته. يكفيك من الزاد ما بلّغك المحل. حسبك من شر سماعه. البلاغة الإيجاز. من شدد نفّر، ومن تراخى تألف».

ولولا اختلاف المنزع وظهور أثر البيئة في الكلامين، لصح لزاعم أن يزعم أنهما صدرا من نفس واحدة.

• • •

عبد الله بن مسعود

والقرآن الكريم

تحدثنا في المقال السابق عن مزيد اختصاص عبد الله بن مسعود بالنبي ﷺ في خاص أحواله وخفى شئونه، مما جعل بعض الأكابر من الصحابة يحسب أنه من آل البيت، لما يرى من كثرة دخوله على النبي ﷺ في أوقات وأحوال ليس لأحد غيره أن يدخل فيها عليه.

ومن الطبعي أن هذا الاختصاص لرجل مثل ابن مسعود من السابقين الأولين الذين أوتوا حساً مرهفاً، وذكاء فطرياً، وذهناً خصباً، وسريرة صافية، كان له أكبر الفضل في تميز ابن مسعود من بين إخوانه قادة الفكر الإسلامي الذين خرجتهم المدرسة المحمدية العظمى، بألوان شتى من الحياة الإسلامية تولدت منها مذاهب وآراء لها في تاريخ التشريع الإسلامي خطرها، ولا سيما فيما يتعلق منها بالقرآن الكريم، دستور الإسلام الأعظم، حفظاً وأداء وتدويناً، وفقهاً في أحكامه، وغوصاً على حِكمه وأسراره.

وقد رأينا أن هذه الناحية من المباحث الإسلامية عُني بها أشد العناية علماء المشرقيات من باحثي الغرب في عصرنا الحاضر،

ونشـروا في موضوعاتها كتبـاً وبحوثاً وتعليقات تردد صداهـا بين الباحثين، واشتجرت في شأنها الأقلام، فكان من حق البحث علينا ونحن نحاول أن نرسـم لشـباب الإسلام ـ في صدد الحديـث عن رجالات الإسـلام وقادة الفكر ـ صورة موجزة عن حياة هذا النابغـة الجليل، أن نلم إلمامة عاجلة بما تردد على أسـلات الأقلام حـول تدوين القرآن وقراءاته الباعثة على جمع الناس حول مصحف عثمان رضي الله عنه، وما يتصل بعبد الله ابن مسعود من ذلك، متوخِّين ذكر ما تطمئن إليه النفس ويرتاح له الضمير.

كان عبد الله بن مسعود من أقرأ أصحاب رسول الله ﷺ للقرآن، وأقومهم بأدائـه؛ رُوي «أن ابن عباس رضي الله عنهما قـال لبعض أصحابه: أي القراءتين تعدُّون أولى؟ فقالوا: قراءة عبد الله، فقال: إن رسول الله ﷺ كان يُعرَض عليه القرآن في كل رمضان مرة إلا العام الذي قبض فيه فإنه عرض عليه مرتين، فحضره عبد الله بن مسـعود فشهد ما نسخ منه وما بدّل». وهذا الأثر لم يتضح منه قراءة مَنْ مِن قُرّاء الصحابة التي جعلها ابن عباس في مساءلته أصحابَه عِدلاً لقراءة عبد الله بن مسعود، وأقرب الظن أنها قراءة زيد بن ثابت. ويرشح هذا أمران:

الأول ـ ما رواه ابن سـعد في الطبقـات عن شـقيق بن سلمة قـال: «خطبَنا عبد الله بن مسـعود حين أمر في المصاحف بما أمر، فذكر الغلول فقال: إنه من يَغُلّ يأت بما غَلَّ يوم القيامة، فغلوا في المصاحف، فلأن أقرأ على قراءة من أُحب أحبُّ إليَّ من أن أقرأ على

قراءة زيد بن ثابت؛ فوالذي لا إله غيره لقد أخذت مِن في رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة، وزيد بن ثابت غلام له ذؤابتان يلعب مع الغلمان؛ والذي لا إله غيره لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لأتيته! قال شقيق بن سلمة: ثم ذهب عبد الله فقعدت في الحِلق وفيهم أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم فما رأيت أحداً رد عليه ما قال». ففي هذه الخطبة دلالة على أن المنافس لعبد الله في قراءته هو زيد بن ثابت، فهو أجدر أن يكون مزاحماً بقراءته التي أصبحت فيما بعدُ قراءة الجمهور. وأثر ابن عباس يدلنا على أنه كان يذهب مذهب ابن مسعود في قراءته ويقدمها على قراءة زيد معللاً ذلك بأن عبد الله حضر العرضة الأخيرة التي استقر عندها محكم الكتاب.

الثاني ـ أن زيد بن ثابت ـ كما يقول السيوطي في الإتقان ـ انتهت إليه الرياسة في القراءة، وأنه هو الذي عهد إليه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما بأول جمع للمصحف، ولم يكن لغيره من القراء ما كان له؛ فقراءته أقرب إلى أن تكون هي الموازنة لقراءة عبد الله.

والذي يظهر أن لهذين الإمامين الجليلين ميزة في حفظ القرآن اختص كل واحد منهما بجانب منها، وقد كانت براعة عبد الله في حسن الأداء والترتيل، فقد روي «أن رسول الله ﷺ قال له: اقرأ عليَّ، فقلت: كيف أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: إني أشتهي أن أسمعه من غيري، قال عبد الله: فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا بلغت ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ قال لي: حسبك! فنظرت إليه وقد اغرورقت عينا النبي ﷺ

وقال: من سَرّه أن يقرأ القرآن غضّاً كما نزل فليقرأه قراءة ابن أم عبد».

وقد كان رضي الله عنه أُعطي حظاً عظيماً في تجويد القرآن، وكان يأمر به ويقول فيما روي عنه: «جوِّدوا القرآن». وفي الصحيحين عنه «أن رجلاً قال له: إني أقرأ المفصَّل في ركعة واحدة، فقال عبد الله: هذّاً كهذِّ الشعر؟ إن قوماً يقرؤون القرآن لا يجاوز تَراقِيَهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع». وكان رضي الله عنه يقول لتلاميذه وأصحابه: «لا تنثروه نثر الدَّقَل ولا تهذوه هذّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكون هَمّ أحدكم آخر السورة».

كانت هذه العناية الفائقة من ابن مسعود بالقرآن الكريم باعثاً قوياً على أن يدوّن لنفسه مصحفاً يجمع بين دفتيه ما سمع من النبي ﷺ. وحالة التدوين في أول عهد المسلمين به غامضة، والروايات في شأنها كثيرة، والناظر في تلك الروايات واختلاف عباراتها اختلافاً شديداً يدرك منها أن الذين دونوا ما سمعوه تدويناً فردياً لم يقصدوا إلى أن يجمعوا القرآن الحكيم في مصحف، وإنما قصدوا عمل مذكرات لهم يرجعون إليها عند الحاجة، ولم يقصد جمع القرآن في مصحف يكون إماماً للأمة ترجع إليه إذا أعوزتها آياته أحد قبل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ولذلك لم يكن عملهما عملاً فردياً كعمل غيرهما.

روى البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت قال: «أرسل إليّ أبو بكر مَقتلَ أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إن عمر أتـاني فقال: إن القتل قد اسـتَحرّ يوم اليمامة بقرّاء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقـرّاء في المواطن، فيذهب كثيـر من

القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. فقلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هو والله خير! فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك، الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن اجمعه. فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال هو والله خير! فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر، فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللخاف وصدور الرجال، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر».

وقد لا يُبعد من يفهم في هذا الحديث أنه ظاهر جداً في شدة الاحتياط في قرآنية ما يدون تدويناً جماعياً، لأن زيداً قال: فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال؛ فكأنه رضي الله عنه جعل لنفسه قاعدة لتدوين القرآن: أن يجد الآية أو السورة في العسب واللخاف وصدور الرجال، وليس يكفي وجدانها في واحد من هذه المصادر؛ ولما كان الوجود في صدور الرجال يتعدد غالباً نبه في الحديث على انفراد أبي خزيمة الأنصاري بآخر براءة مع القطع بأنها كانت مدونة في العسب واللخاف؛ وبهذا التأويل ينقطع الإشكال على تواتر القرآن، ويثبت له التواتر النقلي والتدويني؛

ولا أعلم في الروايات بعد البحث ما ينافي هذا التأويل .

وروي عن علي رضي الله عنه وكرم وجهه أنه كان يقول : «أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر ! هو أول من جمع كتاب الله» . وهذا الجمع من أبي بكر وعمر إنما كان خشية أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حفظته ، لأن أصل الكتابة والتدوين كان موجوداً في حياة النبي ﷺ ؛ قال الخطابي : «إنما لم يجمع ﷺ القرآن في المصحف لما كان يترقبه من وجود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته ، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك ، وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة ، فكان ابتداء ذلك على يد الصِّديق بمشورة عمر» .

انتهى هذا الدور ، ولم يظهر أثر لاختلاف المصاحف ، ولم يتردد صدى شيء من هذا النحو الذي ظهر في طور الجمع العثماني ؛ وكان ذلك لأن السبب في الجمعين مختلف ؛ قال ابن التِّين : «الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان أن جمع أبي بكر كان لخشية أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حملته ، لأنه لم يكن مجموعاً في موضع واحد ، فجمعه في صحائف مرتَّباً لآيات سوره على ما وقفهم عليه النبي ﷺ ؛ وجمع عثمان كان لما كثر الاختلاف في وجوه القراءة حتى قرؤوه بلغاتهم على اتساع اللغات ، فأدى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض ، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك ، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد ، مرتباً لسوره ، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش ، محتجاً بأنه نزل بلغتهم ، وإن كان قد وُسِّع في قراءته بلغة

غيرهم رفعاً للحرج والمشقة في ابتداء الأمر، فرأى أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت فاقتصر على لغة واحدة».

وقال القاضي أبو بكر الباقلاني: «لم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع نفس القرآن بين لوحين، وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي ﷺ، وإلغاء ما ليس كذلك، وأخْذَهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير ولا تأويل أُثبت مع تنزيل، ولا منسوخ تلاوته، كُتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه، خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعد».

وهذا الاختلاف في القراءات الذي دعا عثمان إلى جمع المصحف الإمام، كان موجوداً على عهد النبي ﷺ، كما يشهد له حديث الصحيح في اختلاف عمر بن الخطاب وحكيم بن هشام في سورة الفرقان وتحاكمهما إلى النبي ﷺ وتصويب قراءتهما جميعاً، لأن حياة النبي ﷺ ونزول الوحي عليه كانت أعظم ضمان لتنزيه القرآن عن أحرف لم ينزل بها الوحي، أما إذا انقطع الوحي بوفاة رسول الله ﷺ لم يبق مناص من سد الثغر التي ينفذ منها الخطأ، وذلك بجمع الناس على مصحف واحد يتخذونه إماماً لهم، وذلك ما صنع عثمان رضي الله عنه.

من هذه الروايات الكثيرة يظهر أن القرآن الكريم كان في حياة رسول الله ﷺ مكتوباً مجموعاً مرتباً ترتيبه الذي تلقته عليه الأمة جيلاً بعد جيل، من غير زيادة حرف أو نقص حرف، أو تقديم كلمة وتأخير أخرى؛ وهو الذي تضافرت عليه أقوال الأئمة المعتد بهم في جميع

الدهور والأعصار؛ قال القاضي أبو بكر الباقلاني: «الذي نذهب إليه أن جميع القرآن الذي أنزله الله وأمر بإثبات رسمه ولم ينسخه ولا رفع تلاوته بعد نزوله هو هذا الذي بين الدفتين الذي حواه مصحف عثمان، وأنه لم ينقص منه شيء ولا زيد فيه، وأن ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمه الله تعالى ورتبه عليه رسوله من آي السور، لم يقدَّم من ذلك مؤخَّر، ولا أخِّر منه مقدم، وأن الأمة ضبطت عن النبي ﷺ ترتيب آي كل سورة ومواضعها، وعرفت مواقعها، كما ضبطت عنه نفس القراءات وذات التلاوة».

وعن ابن وهب قال: سمعت مالكاً يقول: «إنما أُلِّف القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي ﷺ».

لم يبق سبيل للاعتماد على بعض الروايات الواهية أو المحرفة في فهمها التي تنسب إلى عبد الله بن مسعود من إنكار كون المعوذتين وفاتحة الكتاب ليستا من القرآن لأنهما لم يوجدا في مصحفه. قال الإمام فخر الدين الرازي: «نقل في بعض الكتب القديمة أن ابن مسعود كان ينكر كون سورة الفاتحة والمعوذتين من القرآن؛ وهو في غاية الصعوبة؛ لأنا إن قلنا إن النقل المتواتر كان حاصلاً في عصر الصحابة يكون ذلك من القرآن، فإنكاره يوجب الكفر، وإن قلنا لم يكن حاصلاً في ذلك الزمان فيلزم أن القرآن ليس بمتواتر في الأصل. والأغلب على الظن أن نقل هذا المذهب عن ابن مسعود باطل». وقال النووي في شرح المهذب: «أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن، وأن من جحد منها شيئاً كفر، وما نُقل عن

ابن مسعود باطل ليس بصحيح». وقال ابن حزم: «هذا كذب على ابن مسعود وموضوع؛ وإنما صح عنه قراءة عاصم عن زَرّ عنه وفيها المعوذتان والفاتحة». والذي يدل لذلك إجماع الأمة من لدن عصر النبوة على أنه لم تقع صلاة في الإسلام بغير فاتحة الكتاب، كما نقله صاحب الإتقان.

وقد قدمنا لك خطبة عبد الله بن مسعود التي تفيد أن الخلاف بينه وبين غيره إنما كان على القراءات، وقد قال له الناس حينما عزله عثمان عن الكوفة: أقم ونحن نمنعك أن يصل إليك شيء تكرهه، فقال: «إن له عليّ حق الطاعة، ولا أحب أن أكون أول من فتح باب الفتنة».

* * *

عبد الله بن عمر

- ١ -

أشـرقت شمس الإسلام فأرسـلت بأشعتها إلى بيوتات مكة، وكان من أول ما انفرج لها سقف آل الخطاب، فأضاءت قلب فتى الفتيان عمر بن الخطاب فأصبح فاروق الإسلام، وسرت منه سريان الكهرباء إلى قلب ناشئه وفلذة كبده وأكرم أهله عليه: ابنه عبد الله بن عمر، فآمن معه ولما يشبّ عن الطوق؛ وقد اشتدت قناة الإسلام، وعزت شوكته بهذه العناصر الجديدة التي دلفت إليه في ظل الفاروق وحمايته، وضاقت قريش بهذه العزة وتلك الحماية، فتسعَّر حقدها، وازداد بالمؤمنين أذاها، حتى أذن الله لرسوله ولأصحابه بالهجرة، فكانت فتحاً مبيناً؛ وهاجر عمر، وتبعه من أهله ابنه عبد الله وسنُّه لا تعدو العشر، وإذا نضال اللسان والحجة يتحول إلى جهاد السيف والقوة.

ويخرج جنود الحق يقودهم رسول الله، ويحدوهم الإيمان إلى غزوة النصر: إلى بدر الكبرى، ويتقدم عبد الله بن عمر في أسنان أمثاله يعرضون أنفسهم على القائد الأعظم صلوات الله وسلامه عليه، فيردهم لصغرهم، فيـرجع عبد الله ونفسـه - على طفولته - تضطرم شوقاً إلى الجهاد، فيرتقب الفرص، وسرعان ما تقبل غزوة المحنة

التي صهر الله بها نفوس المؤمنين، واستخلص رجولتهم، وطهَّر قلوبهم، ومحَّص بطولتهم، وأدَّبهم أكمل الأدب، فينهض عبد الله في غضارة شبابه، وحماسة طفولته، يعرض نفسه جندياً يجود بروحه في سبيل دينه وعقيدته التي ولد في أحضانها، ونهد في مهدها، فيأبى رسول الله إلا الصبر، لطراءة إهابه وصغر سنه، فيعود عبد الله وفي نفسه ما فيها متربصاً النُّهَز، وكأنما هو في تشوقه إلى وقفة في صفوف المجاهدين يدفع بالزمن دفعاً ليتقدم به إلى سن الجهاد حتى وقف به على سلم الخامسة عشرة من عمره. وأقبلت على المجاهدين غزوة الخندق، فتقدم إليها عبد الله يعرض نفسه على رسول الله ﷺ وهو يتوجس خيفة من الرد، ولكنه في هذه المرة انتصر وفاز برضاء القائد الأعظم أن يسلكه في عقد الرجولة، وينظمه في سلك المجاهدين.

ومن يومئذ لم يُعرف أنه تخلف عن غزوة غزاها رسول الله ﷺ. ومن ثم كان من أحرص الصحابة على ملازمة النبي ﷺ، وتعرُّف أحواله في حركاته وسكَناته، ونطقه وصمته، وإقامته وسفره، وإلى جانبه أكابر أصحابه؛ روى ابن القاسم عن الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه قال: «أقام ابن عمر بعد النبي ﷺ ستين سنة يقدم عليه وفود الناس، فلم يخفَ عليه شيء من أمر رسول الله ﷺ ولا أصحابه؛ وكان ابن عمر من أئمة الدين» وسأل يحيى بن يحيى مالكاً: هل سمعت المشايخ يقولون: من أخذ بقول ابن عمر لم يدع من الاستقصاء شيئاً؟ قال: نعم!.

ولقد كان بعض أئمة التابعين يميّل بينه وبين أبيه، وهذه منزلة

رفيعة جداً، حتى كان سلمة بن عبد الرحمن يقول: «مات ابن عمر وهو مثل عمر في الفضل، كان عمر في زمان له فيه نظراء، وكان ابن عمر في زمن ليس له فيه نظير».

وحقاً لقد أوتي عبد الله بن عمر من المزايا والخصائص ما جعل حياته خصبة حافلة، فملازمته للنبي ﷺ، وحرصه الشديد على المتابعة في كل شأن من شؤونه، وقرابة المصاهرة به، ومكانه من نفس أبيه، إلى مكانة أبيه من نفس النبي ﷺ والمؤمنين، كل أولئك جعل لحياة عبد الله شاناً عظيماً في الحياة الإسلامية، فكان من أوسع الصحابة علماً، وأملئهم بالأحاديث النبوية، وأقومهم بفهم القرآن.

وكان في فقهه يمثل مذهب المحافظين المتبعين أكمل تمثيل، وهو يرى أن جميع حركات النبي ﷺ وسكناته مكفولة بالعصمة؛ قال الزبير بن بكار: «كان ابن عمر يتحفظ ما سمع من رسول الله ﷺ، ويسأل من حضر من الصحابة إذا غاب عن قوله وفعله، وكان يتبع آثاره في كل مسجد صلَّى فيه، وكان يعترض براحلته في طريق رأى رسول الله ﷺ عَرَض ناقته، وكان لا يترك الحج، وكان إذا وقف بعرفة يقف في الموقف الذي وقف فيه رسول الله ﷺ».

وكان رضي الله عنه من أشد الناس اتقاء للحديث عن رسول الله ﷺ، وحذراً من الإقدام على الفتيا، فقد روي أنه سئل عن شيء فقال: لا أدري، ثم قال: أتريدون أن تجعلوا ظهورنا جسوراً في جهنم؟ تقولون: أفتانا بهذا ابن عمر!.

وقد ذاق حلو الحياة ومُرَّها، فأقبلت عليه الدنيا حتى كان

يضارب بالأربعين والخمسين ألفاً.

روى ابن الجوزي عن ابن عمير التميمي قال: سمعت عبد الله ابن عمر يقول: شهدت جلولاء، وابتعت من الغنائم بأربعين ألفاً، فقال عمر: يا عبد الله بن عمر لو انطُلق بي إلى النار كنتَ مفتديّ؟ قلت: نعم بكل شيء أملك، قال: فإني مخاصم، وكأني بك تبايع بجلولاء، يقولون: هذا عبد الله بن عمر صاحب رسول الله ﷺ وابن أمير المؤمنين، وأكرم أهله عليه، وأن يرخصوا عليك كذا وكذا درهماً أحب إليهم من أن يغلوا عليك بدرهم، وسأعطيك من الربح أفضل ما ربح رجل من قريش؛ ثم أتى باب صفية بنت أبي عبيد فقال: يا صفية بنت أبي عبيد: أقسمت عليك أن تخرجي من بيتك شيئاً وإن كان عنق ظبية! قالت: يا أمير المؤمنين ذلك لك؛ ثم تركني سبعة أيام، ثم دعا التجار فباع منهم متاعاً بأربعمئة ألف، فأعطاني ثمانين ألفاً، وأرسل ثلاثمئة وعشرين ألفاً إلى سعد، فقال: اقسم هذا المال فيمن شهد الوقعة، فإن كان مات منهم أحد فابعث بنصيبه إلى ورثته.

ولكن الدنيا بإقبالها لم تكن لتأخذ من قلب عبد الله بن عمر حيّز ذرة، بل كان معها أملك شباب قريش لنفسه، وأبعدهم عن الميل للدنيا. يقول عبد الله بن مسعود: «لقد رأيتنا ونحن شباب متوافرون، فما بيننا شاب هو أملك لنفسه عن الدنيا من عبد الله بن عمر». ويقول جابر بن عبد الله: «ما منا من أحد أدرك الدنيا إلا مالت به ومال بها غير عبد الله بن عمر». ويقول السدِّي: «رأيت نفراً من الصحابة كانوا يرون أنه ليس أحد فيهم على الحالة التي فارق عليها النبي ﷺ إلا ابن عمر». ولهذا يقول سعيد بن المسيِّب: «كان ابن عمر حين

مات خير من بقي، ولو شهدت لأحد من أهل الجنة لشهدت لابن عمر».

وكان رضي الله عنه بالدنيا جواداً في سبيل الله، يؤثر الإنفاق بأحب شيء لديه؛ روي أن عبد الله بن جعفر أعطاه في مولاه نافع عشرة آلاف درهم أو ألف دينار، فقيل له: ماذا تنظر؟ قال: فهلاّ ما هو خير من ذلك؟ هو حر!!.

ومن مُثله العليا في الإيثار ما رواه نافع قال: كانت لابن عمر جارية معجبة تدعى رمسه، فاشتد عجبه بها فأعتقها، وزوجها مولى له، فأتت منه بولد، فكان ابن عمر يأخذ الصبي فيقبّله ثم يقول: واها لريح فلانة! فقيل له في ذلك، فقال: سمعت قول الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾. وروى نافع أيضاً أن عبد الله اشتكى فاشتري له عنقود بدرهم، فأتاه مسكين، فقال: أعطوه إياه، فخالف إنسان فاشتراه منه بدرهم ثم جاء به إليه، فجاء السائل، فقال: أعطوه إياه، فخالف إنسان آخر فاشتراه بدرهم، ثم أراد السائل أن يرجع فمنع، ولو علم بذلك ابن عمر لما ذاقه.

وكان ابن عمر يتخادع في الله لمواليه فيعتق الصلحاء منهم، فعرفوا منه ذلك فكانوا يخدعونه بكثرة عبادتهم، فقيل له في ذلك، فقال: «من خدعنا في الله قبلنا منه». وروى زيد بن أسلم أن عبد الله مرّ براعٍ فقال: هل من جزرة؟ قال: ليس هٰهنا ربها، قال: تقول له: إن الذئبَ أكلها، قال: فاتق الله! فاشترى ابن عمر الراعي والغنم، وأعتقه ووهبها له.

• • •

ـ ٢ ـ

خرّجت مدرسة الإسلام الأولى من قادة الفكر، وزعماء العلماء ورجال العرفان، كثرة لا تعرف في التاريخ لمدرسة أخرى في أمة من الأمم التي سبقت الأمة الإسلامية أو عاصرتها. وقد كانت تلك الكثرة متفاوتة فيما بينها تفاوت قواها المدركة واستعدادها الفطري؛ وقد اشتهرت منهم جماعات في جوانب الحياة المتناوحة، وكان من أشهر هؤلاء عَبَادِلة الإسلام، الذين برزوا في العلم وتميزوا بالنبل، يقدمهم عبد الله بن عمر أحد ستة من تلاميذ هذه المدرسة لم يكن في رجال الإسلام أروى للحديث، ولا أعلم بأحوال النبي ﷺ منهم؛ وكان عبد الله منذ نعومة أظفاره ذكي الفؤاد ملهماً، لقناً لبقاً.

روى البخاري في صحيحه عنه «أن رسول الله ﷺ قال: إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وهي مَثَل المسلم، حدثوني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البادية، ووقع في نفسي أنها النخلة، قال عبد الله: فاستحييت، وفي رواية: فإذا أنا عاشر عشرة أنا أحْدَثهم، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم، فقالوا: يا رسول الله أخبرنا بها، فقال رسول الله ﷺ: هي النخلة. قال عبد الله: فحدَّثت أبي

بما وقع في نفسي، فقال: لأن تكون قلتها أحب إليّ من أن يكون لي حُمْر النَّعم».

وكان ابن عمر شديد الأخذ لنفسه وتكييفها بما يعلم، لا يتكاءده في سبيل العمل شيء، ففي الصحيحين عنه: «كان الرجل في حياة النبي ﷺ إذا رأى رؤيا قصها على النبي ﷺ، فتمنيت أن أرى رؤيا أقصها على النبي ﷺ، وكنت غلاماً أعزب أنام في المسجد على عهد النبي ﷺ، فرأيت في المنام كأن ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مطوية كطي البئر، وإذا لها قرنان كقرني البئر، وإذا فيها ناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار! فلقيهما ملك آخر، فقال لي: لم تُرَع!! فقصصتها على حفصة، فقصّتها حفصة على النبي ﷺ، فقال: نِعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل! قال سالم ـ هو ابن عبد الله بن عمر ـ فكان عبد الله لا ينام من الليل إلا قليلاً». وفي بعض الروايات «فرأيت في يدي سُرْقَةً من حرير فما أهوِي بها إلى مكان في الجنة إلا طارت بي إليه، فقصصتها على حفصة، فقصتها على النبي ﷺ، فقال: إن عبد الله رجل صالح». وهذه شهادة عظمى من الصادق المصدوق، ترفع درجة عبد الله إلى ذروة اليقين.

ويحدثنا نافع مولاه: «أنه كان له مهراس فيه ماء، فيصلي ما قُدّر له ثم يصير إلى فراشه فيغفي إغفاء الطائر ثم يقوم فيتوضأ ويصلي، ثم يرجع إلى فراشه فيغفى إغفاء الطائر، ثم يثب فيتوضأ ثم يصلي، يفعل ذلك في الليل أربع مرات أو خمساً».

وكان رضي الله عنه يكره من الناس الملق له، فقد روي «أن رجلاً قال له: لا يزال الناس بخير ما أبقاك الله!! فغضب وقال: إني لأحسبك عراقياً، وما يدريك علام أُغلق بابي!!».

وكان من أحلم العرب، جعل رجل يسبه وهو ساكت، فلما بلغ باب داره التفت إليه فقال: «إني وأخي عاصم لا نسبّ الناس».

وكانت له في الله تعالى ثقة لا تحد، فقد روى ميمون بن مهران: «أن أصحاب نَجْدة الحَروري مروا بإبل لابن عمر فاستاقوها، فجاء الراعي فقال: يا أبا عبد الرحمن احتسب الإبل، وأخبره الخبر، قال: فكيف تركوك؟ قال: انفلتّ منهم لأنك أحب إليّ منهم؛ فاستحلفه فحلف، فقال: إني أحتسبك معها! فأعتقه؛ فقيل له بعد ذلك: هل لك في ناقتك الفلانية فإنها تباع في السوق؟ فأراد أن يذهب إليها، ثم قال: قد كنت أحتسب الإبل فلأي معنى أطلب الناقة»؟!.

وقد رزق الله تعالى عبد الله عمراً طويلاً، فنبل وساد حتى كان شيخ قريش وعالمها، يرجع إليه في الملمات، ولا سيما في أحداث الفتن التي فرقت كلمة المسلمين. وكان شديد النكير على زعماء الفرق الذين تحدثهم أنفسهم بمس جانب الاحترام والإجلال في أصحاب رسول الله ﷺ.

روى البخاري في الصحيح: «جاء رجل من أهل مصر حج البيت، فرأى قوماً جلوساً، فقال: من هؤلاء القوم؟ قال: هؤلاء قريش، قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: عبد الله بن عمر، قال: يا ابن عمر إني سائلك عن شيء فحدثني عنه: هل تعلم أن عثمان فر يوم

أُحد؟ قال: نعم؛ فقال: تعلم أنه تغيّب عن بدر ولم يشهد؟ قال: نعم؛ قال: هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم؛ قال: الله أكبر! قال ابن عمر: تعال أبيّن لك: أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له! وأما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسَهْمه؛ وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث رسول الله ﷺ عثمان، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: هذه يد عثمان، فضرب بها على يده فقال: هذه لعثمان. فقال له ابن عمر: اذهب بها الآن معك».

وروى البخاري أيضاً: «جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن عثمان، فذكر محاسن عمله، قال: لعل ذاك يسوءك؟! قال: نعم، قال: فأرغم الله بأنفك! ثم سأله عن عليّ فذكر محاسن عمله، قال: هو ذاك بيته أوسط بيوت النبي ﷺ، ثم قال: لعل ذاك يسوءك؟! قال: أجل، قال: فأرغم الله بأنفك! قال: انطلق فاجهد عليّ جهدك».

وقد كان لعبد الله بن عمر موقف من النزاع الذي مزّق وحدة المسلمين بسبب الخلافة من أنبل المواقف وأسلمها، استمع فيه إلى نصيحة أبيه الفاروق رضي الله عنه؛ روى الثقات من المؤرخين أن عمر بن الخطاب لما طُعن وأيس من نفسه قال لابنه عبد الله: اذهب إلى عائشة وأقرئها مني السلام، واستأذنها أن أُقبر في بيتها مع صاحبيَّ، فأتاها عبد الله فأعلمها، فقالت: نعم وكرامة؛ ثم قالت:

يا بني أبلغ عمر سلامي، وقل له: لاتدع أمة محمد بلا راع، استخلف عليهم ولا تدعهم بعدك هَمَلاً فإني أخشى عليهم الفتنة، فأتى عبد الله فأعلمه، فقال: ومن تأمرني أن أستخلف؟ ثم قال: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، وسمَّاهم، ثم قال لهم: وأحضروا معكم الحسن بن علي وعبد الله ابن عباس فإن لهما قرابة وأرجو لكم البركة في حضورهما، وليس لهما من أمركم شيء، ويحضر ابني عبد الله مستشاراً، وليس له من الأمر شيء، قالوا: يا أمير المؤمنين إن فيه للخلافة موضعاً فاستخلفه فإنا راضون به، فقال: حسب آل الخطاب تحمل رجل منهم الخلافة، ليس له من الأمر شيء! ثم قال: يا عبد الله إياك ثم إياك لا تتلبس بها!!.

وأخلص عبد الله لموقفه وامتثاله نصيحة عمر إخلاصاً لم يميّله، مع الترغيب والإطماع اللذَين بسطهما له حزب الزبير وطلحة في خروجهما وإخراجهما أم المؤمنين عائشة، فإنه لما اجتمعت كلمتهم على المسير إلى البصرة قال طلحة للزبير: إنه ليس شيء أنفع ولا أبلغ في استمالة أهواء الناس من أن نُشْخص عبد الله بن عمر، فأتياه فقالا: يا أبا عبد الرحمن إن أمنَّا عائشة خفَّت لهذا الأمر رجاء الإصلاح بين الناس فاشخص معنا، فإن لك بها أسوة، فإن بايعَنا الناسُ فأنت أحق بها. فقال ابن عمر: أيها الشيخان أتريدان أن تخرجاني من بيتي، ثم تلقياني بين مخالب ابن أبي طالب؟! إن الناس إنما يُخدعون بالدينار والدرهم، وإني قد تركت هذا الأمر عياناً في عافية أنالها! فانصرفا عنه؛ ثم غدا مروان بن الحكم إلى طلحة

والزبير فقال لهما: عاودا ابن عمر فلعله ينيب، فعاوداه فتكلم طلحة فقال: يا أبا عبد الرحمن إنه والله لرب حق ضيعناه وتركناه فلما حضر العذر قضينا بالحق وأخذنا بالحظ، إن علياً يرى إنفاذ بيعته، وإن معاوية لا يرى أن يبايع له، وإنا نرى أن نردها شورى، فإن سرت معنا ومع أم المؤمنين صلحت الأمور وإلا فهي الهلكة! فقال ابن عمر: إن يكن قولكما حقاً ففضلاً ضيعت، وإن يكن باطلاً فشر منه نجوت، واعلما أن بيت عائشة خير لها من هودجها، وأنتما المدينةُ خير لكما من البصرة!!.

لم يحد عبد الله بن عمر عن هذا المبدأ رغم تقلب الأعاصير، ورغم توسل زعماء الأشياع والأحزاب بكل وسيلة إلى ضمه إليها لما له من المكانة السامية في نفوس المسلمين، فإن الموقف لم يكد يصفّى بين عليّ وحزب عائشة، ويقف معاوية وجهاً لوجه أمام علي كرم الله وجهه، حتى التجأ معاوية إلى ابن عمر يطمعه ويرغبه لينضم إليـه، فكان موقفه معه هو موقفـه مع طلحة والزبير، فقد كتب إليه معاوية: «أما بعد؛ فإنه لم يكن أحد من قريش أحب إليّ أن يجتمع الناس عليه منك بعد عثمان، وإني لست أريد الإمارة عليك، ولكني أريدها لك، فإن أنت أبيت كانت شورى بين المسلمين». فكتب إليه عبد الله في رده «أما بعد: فإن الرأي الذي أطمعك في هذا هو الذي صيّرك إلى مصيرك، وقد حدث أمر لم يكن إلينا فيه من رسول الله ﷺ عهد، ففزعتُ إلى الوقوف، وقلت: إن كان هذا فضلاً تركته، وإن كان ضلالة فشرٌ منه نجوت، فأغنِ عني نفسك».

وقد زاد هذا الموقف المسالم من عبد الله بن عمر مكانه في قلوب المسلمين، وبهذه المكانة وصل عمرو بن العاص إلى قلب أبي موسى الأشعري في التحكيم، فقال له في اجتماعهما: «هل لك أن نخلعهما جميعاً ونجعل الأمر لعبد الله بن عمر، فقد صحب رسول الله ﷺ ولم يبسط في هذه الحرب يداً ولا لساناً، وقد علمت من هو، مع فضله وزهده وورعه وعلمه؟! فقال أبو موسى: جزاك الله بنصيحتك خيراً! وكان أبو موسى لا يعدل بعبد الله بن عمر أحداً، لمكانه من رسول الله ﷺ، ومكانه من أبيه، ولفضل عبد الله في نفسه». فلما بلغ عبد الله ما كان من رأي أبي موسى كتب إليه: «أما بعد؛ يا أبا موسى فإنك تقربت إليّ بأمر لم تعلم هواي فيه، أكنت تظن أني أبسط يداً إلى أمر نهاني عنه عمر، أو كنت تراني أتقدم على عليّ وهو خير مني»؟!.

رحم الله عبد الله، فقد خلَّص نفسه من فتنة جامحة جانحة، ونجا منها صفياً، ومات والمسلمون لا يرون أحداً يعاصره أفضل منه.

* * *

عبد الله بن عمرو

ـ ١ ـ

هذه شخصية من رجالات الإسلام، وعلماء الصدر الأول، وتلاميذ مدرسة النبوة، تمثل ناحية جديدة من نواحي الحياة الفكرية الإسلامية، تلك هي ناحية اتصال الثقافة الأجنبية بالثقافة الإسلامية؛ ولسنا نفهم ولا أحد يرضى عن عقله يفهم من كلمة الثقافة الأجنبية وقتئذ معناها الواسع الذي يفهمه قارئ العصر الحاضر، وإنما الذي نفهمه ونقصده من كلمة الثقافة الأجنبية، ما تعطيه الحياة في بيئة الجزيرة العربية مشرق شمس الإسلام ومطلع نوره، على عهد البعثة المحمدية، فقد كانت هناك جاليات من اليهود لها كتابها وثقافتها الخاصة، تحتل جزءاً عظيماً من جزيرة العرب تعيش فيه بأسلوبها الخاص، وقد صار هذا الجزء بعد مجيء الإسلام مركز النهضة، ومصدر الحياة الفكرية الإسلامية، وكانت هناك جماعات من العرب وغيرهم يدينون بالنصرانية، لهم علومهم ومعارفهم الخاصة، ينبثّون في كثير من مواطن الجزيرة العربية.

ومن الطبعي ألا تقف هذه الجماعات يهودية ونصرانية جامدة إزاء حدث الإسلام الأعظم الذي هز الكرة الأرضية هزة نفضت عنها آثار الجمود، وقد صور القرآن الكريم النضال القوي بين هذه الجماعات وبين أهل الإسلام تصويراً رائعاً، يشرح في وضوحٍ نظرةَ

هؤلاء إلى من يساكنونهم من أبناء البلاد، وما في تلك النظرة من تحقير واستصغار، ويشرح لنا موقفهم العنيد إزاء الإسلام وشريعته.

ومن الغريب أن هؤلاء المتميزين بثقافتهم ودياناتهم لم يكونوا ينشطون في سبيل نشر ثقافتهم والدعاوة لدياناتهم، بل كانوا حرصاء أشد الحرص على ألا يعلم أحد من الناس علمهم، ولا يعنيهم أن يدين أحد غيرهم بدينهم، إبقاء لهذا التمايز الذي يَدلُّون به على سواهم، وقد صادف هذا الجمود طبيعة صدوفة عند العرب، منصرفة لتوافه الأمور، لا تبحث عن دين أو ثقافة، فإذا وجدنا منهم حينئذ من يقرأ ويكتب فقد وجدنا الفذ الذي لا يساميه أحد من أقرانه، وإذا وجدنا من يتجاوز القراءة والكتابة بالعربية إلى غيرها من لغات الأمم المجاورة أو الجاليات المخالطة، فقد وجدنا علائم انفتاح العقل العربي لحياة جديدة؛ ولكن هل كان من ذلك شيء يمثل ظاهرة عامة في الأمة؟! لو حاول الباحث أن يتلمس هذا النحو لأعياه أن يجد شيئاً له قيمة اجتماعية تشعر بالتحول أو الاستعداد إلا بمعجزة إلهية، وهذا ما قام به الإسلام بانقلابه الخطير.

ومهما يكن فإن الشخص الذي يُعنى في مثل تلك البيئة بشيء من العلم والثقافة لابدَّ أن يكون على استعداد فكري صالح للحياة التي أنشأها الإسلام، وهذا ما نجد شيئاً منه في حياة عبد الله بن عمرو.

كان عبد الله بن عمرو أسبق إلى هداية الإسلام من أبيه عمرو بن العاص. وأصحاب الطبقات يذكرون أن أباه أسلم سنة ثمان للهجرة، قدم هو وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة المدينة مسلمين، فلما

دخلوا على رسول لله ﷺ، ونظر إليهم قال: «قد رمتكم مكة بأفلاذ كبدها». وأخرج البخاري عن الشعبي أنه «لم يكن بين مولد عبد الله ومولد أبيه إلا اثنتا عشرة سنة». وهذا من نوادر التاريخ.

أسلم عبد الله بن عمرو في استواء رجولته واكتمال عقله، وكان ـ فيما يظهر ـ قبل إسلامه من القلائل الذين تخطوا حدود بيئتهم، فعنوا بشيء من المعارف الفكرية، وكتبوا وقرؤوا؛ ولم يقتصر عبد الله بن عمرو في معارفه البدائية على لغة قومه، بل تعلم غيرها من لغات الجاليات الأجنبية التي كانت تعايش العرب في جزيرتهم، فابن قتيبة يحدثنا في كتاب المعارف «أنه كان يقرأ بالسريانية».

وكان يقرأ التوراة، عارفاً بما فيها؛ ففي صحيح البخاري عن عطاء بن يسار قال: «لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: «ياأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا صخَّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صمّاً، وقلوباً غلفاً». قال عطاء: ثم لقيت كعباً فسألته عن ذلك فما اختلفا حرفاً.

وقد كانت لهذه الميزة التي كان لها خطرها في ذلك العهد، أكبر الأثر في توجيه حياة عبد الله بن عمرو، وتكييفها تكييفاً يتفق مع

استعداده الفطري، فقد اتجه عبد الله إلى حياة العلم، وصرف نفسه إليها دون غيرها من جوانب الحياة الإسلامية المتكاثرة. لازم رسول الله ﷺ، واستأذنه أن يكتب حديثه فأذن له، قال: «يا رسول الله أأكتب كل ما أسمع منك في الرضا والغضب؟ قال: نعم، فإني لا أقول إلا حقاً».

وفي حديث أبي هريرة «ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله ﷺ مني إلا عبد الله بن عمرو فإنه كان يعي بقلبه وأعي بقلبي، وكان يكتب وأنا لا أكتب». وروى الإمام أحمد أن عبد الله بن عمرو قال: «رأيت فيما يرى النائم كأن في إحدى يدي عسلاً وفي الأخرى سمناً وأنا ألعقهما، فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فقال: تقرأ الكتابين: التوراة والقرآن، وكان يقرؤهما».

جعل الله قرة عين عبد الله بن عمرو في العلم والعبادة، فكان من أعلم أصحاب النبي ﷺ بحديثه وسنته وأقضيته، وكان عنده منها ما ليس عند غيره من علماء الصحابة؛ وحسبنا شهادة أبي هريرة السابقة، وهي من رواية البخاري: «ما أجد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب...». وأبو هريرة يقول فيه أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر ابن الخطاب كما في طبقات ابن سعد: «أنت أعلمنا يا أبا هريرة برسول الله ﷺ وأحفظنا لحديثه».

وروى المقريزي عن حَيْوة بن شريح قال: «دخلت على حسين ابن شَفي بن ماتع الأصبحي وهو يقول: فعل الله بفلان!! فقلت: ما له؟

فقال: عمد إلى كتابين كان شَفي سمعهما من عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أحدهما: قضى رسول الله في كذا، وقال رسول الله كذا؛ والآخر ما يكون من الأحداث إلى يوم القيامة، فأخذهما ورمى بهما بين الخولة والرباب» (مركبين عظيمين من سفن الجسر).

وفي استيعاب ابن عبد البر: روى شفي عن عبد الله بن عمرو أنه قال: حفظت عن النبي ﷺ ألف مثل. وفي طبقات ابن سعد عن مجاهد قال: «رأيت عند عبد الله بن عمرو صحيفة فسألت عنها، فقال: هذه الصادقة، فيها ما سمعت من رسول الله ﷺ ليس بيني وبينه فيها أحد».

وقد كان عبد الله بن عمرو أحد علماء الصحابة الذين قامت عليهم النهضة الفكرية في الأقطار الإسلامية. فالتاريخ يحدثنا أنه رحل في كنف أبيه إلى مصر حينما أمّره معاوية عليها، وأقام عبد الله بها ينشر علمه على تلاميذه الذين دونوا هذا العلم وحفظوه ونشروه.

قال صاحب فجر الإسلام: «كان من الصحابة الذين بمصر علماء علّموا بها وأسسوا مدرستها، وأشهرهم عبد الله بن عمرو بن العاص، وقد كان عبد الله هذا من أكثر الناس حديثاً عن رسول الله ﷺ، وكان يدون ما يسمع، وكان مع هذا كثير الاطلاع في غير الحديث، وقد خرج مع أبيه إلى مصر عندما ولاه إياها معاوية، ولما حضرت الوفاة عَمْراً استعمل ابنه عبد الله عليها فأقره معاوية ثم عزله. ويُعَد بحق مؤسس المدرسة المصرية، فقد أخذ عنه كثير من أهل مصر،

وكانوا يكتبون عنه ما يحدّث».

والمتأمل في آثار الفكر الإسلامي في مصر أول عهدها بالنهضة يلمح الصبغة الروائية تغلب عليه، ويرى غلبة القصص والعناية بروايات التاريخ، وأحاديث الفتن، وهذا في الواقع من أثر ثقافة عبد الله بن عمرو الذي أحاط خبراً بكثير من أحاديث التوراة وقصصها.

أما عبادة عبد الله بن عمرو فقد روت لنا منها صحاح السنة مواقف تجعل عبد الله رأساً من رؤوس العباد الصالحين في الأمة المحمدية، فضلاً عما كانت سبباً له من التشريع الحكيم الذي رفع الله به الحرج عن هذه الأمة.

روى البخاري في صحيحه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: «حدثني عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال قال لي رسول الله ﷺ: يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟ فقلت: بلى يا رسول الله، قال: فلا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لِزَوْرك عليك حقاً، وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر كله. فشدَّدت فشُدِّد علي، قلت: يا رسول الله إني أجد قوة، قال: فصم صيام نبي الله داود عليه السلام ولا تزد عليه، قلت: وما كان صيام نبي الله داود عليه السلام؟ قال: نصف الدهر. فكان عبد الله يقول بعد ما كبر: يا ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ».

وفي هذا الحديث ضروب من الفقه وأسرار التشريع المرتكز

على رعاية المصالح ودرء المفاسد، والأخذ من الحياة بحظ الاستقامة القوية، فهو:

أولاً ـ يصور لنا صلة الفرد بالمجتمع، ويبين أن هذا الفرد ليس ملكاً مطلقاً لنفسه يتصرف فيها كما يشاء، حتى لو كان هذا التصرف في أبواب الخير الخاص، ويشرح لنا حق الجماعة على الفرد باعتباره عضواً فيها وأحد مقوماتها، فلا يجوز له أن يتصرف في نفسه تصرفاً يؤدي إلى نقص حيوية الأمة، وإضعاف نشاطها؛ وهذا كله واضح من إباء النبي ﷺ على عبد الله بن عمرو مواصلة الصوم، ولم يبال صلوات الله عليه بقول عبد الله: إني أجد قوة، بل قال له: لا تفعل، وقد جاء صريحاً في طريق آخر حكمة هذا النهي: روى البخاري أن النبي ﷺ قال لعبد الله بن عمرو: «إنك لتصوم الدهر وتقوم الليل؟ فقلت: نعم، قال: إنك إذا فعلت هجمت له العين، ونفهت له النفس، لا صام من صام الدهر»! ومعنى هجمت له العين: غارت ودخلت وضعف إبصارها من قلة الغذاء، ومعنى نفهت له النفس: تعبت وكلت، فلا تستطيع القيام بواجبها في الحياة، وأداء ما عليها من الحقوق.

وثانياً ـ فيه تصوير مقام رأفة النبي ﷺ ورحمته بأمته، وحرصه على برها وخيرها، تصديقاً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وثالثاً ـ فيه بيان حق أهل الرجل عليه، وأن الانصراف عنهم

إلى مداومة العبادة يوحشهم، وربما كان سبباً لقطع صلتهم به، ولا يخفى ما يترتب على ذلك من هدم بناء الأسرة وتعطيل النسل، وإهمال الذرية إذا وجدت، فلا تتوافر لها عوامل المراقبة والتربية الصالحة التي تجعلها عضواً عاملاً في الأمة، فوق ما يكتنف ذلك من إشاعة روح الجفوة والتزمت في أفراد الأسرة مما يكبت فيها روح التوثب والعمل النشيط.

ورابعاً ـ فيه بيان حق الضيف، والترغيب في مشاركته طعامه وشرابه، لتندفع عنه طبيعة الحياء التي تكون عادة عند أكثر الناس إذا كانوا في بيوت غيرهم، فإذا أحجم صاحب البيت عن مؤاكلة ضيفه انخذلت نفس الضيف وانقمعت، وحرمت قسطها من ضيافتها.

وخامساً ـ في قول عبد الله بن عمرو: «يا ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ» تحقيق لمعجزة نبوية، وتبيين لقوله ﷺ: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولن يُشادَّ الدين أحد إلا غلبه».

• • •

ـ ٢ ـ

ذكرنا في المقال السابق أن عبد الله بن عمرو بن العاص تميّز عن أقرانه من نوابغ الإسلام الأولين بغزارة علمه، وسعة اطلاعه على السنة النبوية، وحفظ حديث الرسول ووقائعه.

وعرفنا أن الذي ساعد على ذلك معرفته بالكتابة، فكان يحفظ ويكتب، وكان غيره يحفظ ولايكتب، كما أخبر بذلك أبو هريرة رضي الله عنه؛ وعرفنا أن اطلاعه تعدى حدود القرآن والسنة إلى التوراة بلغات أهلها، فأصاب من ذلك علماً تفرد به، كان يجدر بمؤرخي الإسلام ورجال الحديث، وكاتبي السيرة النبوية، وعلماء التفسير، أن يجعلوا علم عبد الله بن عمرو وأضرابه من الثقات الأثبات ميزاناً لعلم غيرهم من رواة أخبار التوراة، ومقياساً لروايات الذين أكثروا من الحديث عنها من أمثال كعب الأحبار، ونَوْف البِكَالي، ووَهْب بن منبِّه، فإن منزلة عبد الله بن عمرو من الصدق والإتقان والفقه في الدين ترفعه عن منازل الارتياب.

ولو أن العلماء تنبهوا إلى مثل هذا منذ القدم لأمكن تصفية التاريخ الإسلامي من هذه الأقاصيص الإسرائيلية المهلهلة، التي ملأت كتب التفسير والسيرة وشروح الحديث؛ وإذ فات هذا فلا أقل من أن يجعل الباحثون أحاديث عبد الله وأضرابه بعد التثبت من صحة

رواياتها وسيلة لامتحان هذه القصص المسطورة في الكتب.

وقد انضافت إلى ميزة عبد الله بن عمرو العلمية ميزةٌ أخرى لا تقل عنها أثراً في حياته، تلك هي شدته على نفسه في العبادة، فقد كان رضي الله عنه من عبّاد عبادلة الإسلام، أخذ نفسه بأحزم ما يأخذ به أنفسهم العابدون، حتى ضجر له أبوه، ورثى لحاله، واحتال لإخراجه من موقفه، فزوجه بامرأة ذات جمال وحَسَب علّها تأخذ من نفسه مكاناً يصرفه بعض الشيء عن هذا الجهد الذي صار إليه من إدامة الصيام بالنهار والقيام بالليل، فلم تؤثر فيه شيئاً، وشكاه أبوه إلى النبي ﷺ.

روى البخاري في صحيحه عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال: «أنكحني أبي امرأة ذات حسب، فكان يتعهد كَنّته فيسألها عن بعلها، فتقول: نِعم الرجل من رجل لم يطأ لنا فراشاً، ولم يفتش لنا كنفاً مذ أتيناه! فلما طال ذلك عليه، ذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: إلقني به، فلقيته بعد، فقال: كيف تصوم؟ قال: كل يوم، قال: وكيف تختم؟ قال: كل ليلة، قال: صم في كل شهر ثلاثة، واقرأ القرآن في كل شهر، قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: صم ثلاثة أيام في الجمعة، قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: أفطر يومين، وصم يوماً، قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: صم أفضل الصوم، صوم داود: صيام يوم وإفطار يوم، واقرأ في كل سبع ليال مرة؛ فليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ! وذاك أني كبرت وضعفت.

قال مجاهد: فكان يقرأ السبع من القرآن بالنهار على بعض

أهله، والذي يقرؤه يعرضه من النهار ليكون أخف عليه بالليل، وإذا أراد أن يتقوى أفطر أياماً وأحصى، وصام مثلهن كراهية أن يترك شيئاً فارق النبيَّ ﷺ عليه».

هذا الأدب النبوي الكريم رفع عن الأمة الإسلامية غشاوة الرهبنة التي أوشكت أن تتفشى فيما بين كثير من أصحاب النبي ﷺ، حتى لقد همّ بعضهم بأمر عظيم يصيب الأمة في ذريتها ونسلها، ولكن رحمة النبي ﷺ أدركتهم، وفقهوا أن الشريعة لم تنزل لتعذيبهم وإنما جاءت لتهذيبهم، فتواصلوا بهذا الأدب الرحيم.

روى البخاري «أن النبي ﷺ آخى بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء مُتَبَذِّلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا؛ فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً، فقال: كلْ، قال: فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، فقال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نم، فلما كان من آخر الليل، قال سلمان: قم الآن، فصلَّيا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه؛ فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له؛ فقال النبي ﷺ: صدق سلمان».

عاش عبد الله بن عمرو بعيداً عن الفتن السياسية، لم يعرف له فيها اتجاه خاص، رغم ما كان لأبيه عمرو بن العاص من مكانة باعتباره من دهاة العرب وقواد المسلمين وأمرائهم، حتى اشتد الخلاف بين علي ومعاوية، وكتب معاوية إلى عمرو وهو بفلسطين

يستدعيه ليكون من حزبه في رغائب وأطماع أعطاها له؛ ظهر حينئذ عبد الله بن عمرو إلى جانب أبيه أولاً مستشاراً ناصحاً، لا تميل به الدنيا ولا يستهويه السلطان؛ ذكر المؤرخون: أنه لما انتهى إلى عمرو بن العاص كتاب معاوية وهو بفلسطين استشار ابنيه عبد الله ومحمداً، وقال: يا بني إنه كان مني في أمر عثمان فلتاتٌ فلم أستقلها بعدُ؛ وقد كان من هربي بنفسي حين ظننت أنه مقتول ما قد احتمله معاوية عني، وقد قدم على معاوية جرير ببيعة عليّ، وقد كتب إليّ معاوية بالقدوم عليه، فما تريان؟

فقال عبد الله: «أرى والله أن نبي الله قبض وهو عنك راض، والخليفتان من بعده كذلك، وقتل عثمان وأنت غائب عنه، فأقم في منزلك فلست مجعولاً خليفة، ولا تريد أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة، وستهلكان فتستويان فيها جميعاً». وقال محمد: «أرى أنك شيخ قريش وصاحب أمرها، فإن ينصرم هذا الأمر وأنت فيه خامل يصغر أمرك، فالحقْ بجماعة أهل الشام، واطلب بدم عثمان فإنك به تستقيل إلى بني أمية». فقال عمرو: «أما أنت يا عبد الله فأمرتني بما هو خير لي في ديني، وأما أنت يا محمد فقد أمرتني بما هو خير لي في دنياي».

وقد أخذ عمرو برأي محمد، وانحاز إلى معاوية في حرب علي، ولم يقوَ عبد الله على مخالفة أبيه، بل وقف إلى جانبه في صفوف أهل الشام، وكانت الراية بيده يوم صفين، وقد ندم واعتذر لنفسه؛ قال أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب: «واعتذر عبد الله رحمه الله من

شـهوده صفين، وأقسـم أنه لم يرم فيها برمح ولا سـهم، وأنه إنما شهدها لعزمة أبيه عليه في ذلك، وأن رسول الله ﷺ قال له: أطع أباك!! وكان يقول: مالي ولصفين؟ ومالي ولقتال المسلمين؟! والله لوددت أني مت قبل هذا بعشر سنين! ثم يقول: أما والله ما ضربت فيها بسيف، ولا طعنت برمح، ولا رميت بسهم، ولوددت أني لم أحضر شيئاً منها، وأستغفر الله عز وجل من ذلك وأتوب إليه؛ وندم ندامة شديدة على قتاله مع معاوية، وجعل يستغفر الله ويتوب إليه».

والناظر في موقف عبد الله يرى أنه أقحم على الحرب إقحاماً لم يكن له فيـه كبير اختيار، وأنه لم يكن كغيـره يحارب عن عقيدة وإخلاص، أو عن طمع في دنيا يصيبها، ولكنه كما يبدو من اعتذاره مغلوب لأبيـه، ولذلك فإنـه رضي الله عنه كان لا يبـالي أن يرمـي بالكلمة يعتقد أنها الحق في آذان القوم على مسمع من أبيه، وعلى مشهد من معاوية متى سنحت له الفرصة؛ روى صاحب العقد عن حنظلة بن خـويلد قال: «إني لَجالـس عند معاويـة إذ أتـاه رجلان يختصمان في رأس عمّار، كل واحد يقول: أنا قتلته، فقال عبد الله ابن عمرو بن العاص: ليطب به أحدكما نفساً لصاحبه فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: تقتلك الفئة الباغية».

وحدَّث البيهقي في المحاسن أن عمرو بن العاص قال لابنه عبد الله يوم صفّيـن: تبين لي هل ترى علي بن أبـي طالب رضي الله عنـه؟ قال عبد الله: فنظرت فرأيتـه فقلت: يا أبـتِ هاهو ذاك على البغلة الشهباء عليه قباء أبيض وقلنسوة بيضاء، قال: فاسترجع وقال: والله ما حدث هذا بيوم ذات السلاسل، ولا بيوم اليرموك، ولا بيوم

أجنادين، وددت أن بيني وبين موقفي بعد المشرقين! فقلت: يا أبت فما الذي يمنعك؟ فوالله ما يحول بينك وبين ذلك أحد! فقال:

إن يرجع الشيخ ولم يعذّر إذ نزل القوم بضنك فانظر
ثم تأمل بعد هذا أو ذر

ولعل ذلك هو السبب في أن معاوية كان يرى عبد الله بن عمرو أقرب إلى نفوس أصحاب عليّ، فإذا شمرت الحرب عن ساقها، واحتوشت الشاميين بين أضراسها، هتف معاوية رحمه الله بعبد الله ليدعو الناس إلى المهادنة؛ روى ابن قتيبة: أن معاوية دعا عبد الله بن عمرو فأمره أن يكلم أهل العراق، فأقبل عبد الله حتى إذا كان بين الصفين نادى «يا أهل العراق! أنا عبد الله بن عمرو بن العاص، إنه كانت بيننا وبينكم أمور للدين والدنيا، فإن تك للدين فقد والله أسرفنا وأسرفتم، وإن تك للدنيا فقد والله أعذرنا وأعذرتم، وقد دعوناكم لأمر لو دعوتمونا إليه أجبناكم، فإن يجمعنا وإياكم الرضى فذلك من الله، وإلا فاغتنموا هذه الفرصة لعل الله أن ينعش بها الحي وينسي بها القتيل، وإن بقاء الحي بعد الهالك قليل».

وهذا كلام يخرج من قلب مخلص أشد الإخلاص، وراغب أقوى الرغبة في حقن دماء المسلمين، وحسم ما بينهم من فتن جائحة شهد عبد الله بن عمرو أهوالها فعبر عنها ـ كما يقول صاحب العقد ـ بهذه الأبيات:

فإن شهدت جمل مقامي ومشهدي بصفين يوماً شاب منها الذوائب
عشية جا أهل العراق كأنهم سحاب ربيع رفّعته الجنائب

وجئناهـم تترى كـأن صفـوفنـا ... مـن البحـر مـدّ مـوجـه متـراكـب
إذا قلت ولوا سراعاً بدت لنا ... كتائب منهم فارجحنت كتائب
فدارت رحانا واستدارت رحاهم ... سـراة النهـار مـا تـولـى المنـاكـب

وكان عبد الله ملازماً لأبيه في ولايته على مصر، فكان مؤسس مدرسة الفقه والمعارف الإسلامية وصاحب الفتيا فيها، ولما حضر أباه الموت قام بأمره وأوصى إليه؛ قال ابن عبد البر في الاستيعاب:

«لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة بكى، فقال له ابنه عبد الله: لم تبكي؟ أجزعاً من الموت؟ قال: لا والله، ولكن لما بعده! فقال له: قد كنت على خير؛ فجعل يذكره صحبة رسول الله ﷺ، وفتوحه الشام. فقال له عمرو: تـركتَ أفضل من ذلك، شهادة أن لا إلـه إلا الله، إني كنت على ثلاث طبقات، ليس منها طبق إلا عرفت نفسي فيه، كنت أول شيء كافراً فكنت أشد الناس على رسول الله ﷺ، فلو متُّ يومئذ وجبت لي النار، فلما بايعت رسول الله ﷺ كنت أشد الناس حياء منه، فما ملأت عيني من رسول الله ﷺ حياء منه، فلو متُّ حينئذ قال الناس: هنيئاً لعمرو أسلم وكان على خير، ومات على خير أحواله فترجى له الجنة؛ ثم بليت بالسلطان وأشياء فلا أدري أعليّ أم لي؟ فإذا متُّ فلا تَبْكِيَنْ عليَّ باكية، ولا يتبعني مادح ولا نار، وشدُّوا علي إزاري فإني مخاصم، وشنُّوا عليّ التراب شناً، فإن جنبي الأيمن ليس بأحق بالتراب من جنبي الأيسر، ولا تجعلن في قبري خشبة ولا حجراً، وإذا واريتموني فاقعدوا عندي قدر نحر جزور وتقطيعها بينكم أستأنس بكم».

* * *

عبد الله بن الزبير

موقفه من الخلافة الإسلامية

في سيرة عبد الله بن الزبير مواطن لاختبار معدن الرجولة جدير بشباب المسلمين أن يمعنوا النظر فيها، حتى يتخذوا لهم منها أسوة وإماماً، وحتى يصنعوا على ضوئها مثلهم العليا في هذا العصر الذي لا يدين إلا للقوى الحازمة، والعزائم الصادقة.

وسيرة عبد الله تحبب إلى عقولنا أيام المحن، وإن كرهتها غرائزنا وعواطفنا، لأنها مصانع للبطولة التي تبني تاريخ الأمم على قواعد المجد والعزة.

ولد عبد الله بن الزبير، وشبّ، واكتهل، وعاش ما عاش في أيام نضال كان الموت فيها أهون ما يلقى الرجل، ولم يكن عبد الله ليحجم عن خوض عَيْلم الأحداث، وقد نَهَد بين آذيّها، وترعرع في لججها، يشهد أهوالها، ويقتحم عبابها بما يحمل بين حنايا نفسه من مميزات البطولة التي تعده لمستقبل حافل بعظائم لا يقوم لها إلا آحاد من الناس يأتون في أجيال متعاقبة، تضربهم الحياة مثلاً لخصائص الرجولة في الإنسانية الحية القوية.

ومن الطبيعي أن يكون عبد الله وفياً أشد الوفاء إلى عهد عثمان رضي الله عنه، لأن ذلك العهد هو المدرسة الأولى التي شهد فيها أبو خبيب نبوغ نفسه وعبقريتها، وكانت منها أولى خطواته إلى تحقيق ما يطمح إليه من عُليا الأمور وسامياتها، فقد كانت سفارته ببشرى فتح أفريقية إلى عثمان، وخطبته التي قام بها يقص قصة الفتح، ويصف جند المسلمين على جمهرة من مشيخة المهاجرين والأنصار، فيهم أبوه، مطلع شمس ما كانت تنطوي عليه نفسه من بطولة جيّاشة بالآمال.

لم تكد بوادر الفتنة العثمانية تلوح في أفق المجتمع الإسلامي حتى كان عبد الله بن الزبير قائد أبطال الشباب في الدفاع عن الخليفة، ولما اشتدّ الحصار اخترط سيفه وأخذ بباب عثمان يقاتل عنه على رغم ما كان يرى من تباعد أبيه عن حزب الخلافة في ذلك الوقت، وعلى رغم ما كان يسمع من خالته أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها من نقد سياسة عثمان وحاشيته، ولكن ابن الزبير لم يكن بالشاب الذي ينقاد طيعاً لغيره، بل كان الرجل المعتدّ بنفسه، المستقل بتفكيره، يبني على حاضره مستقبل حياته.

وكان له على أبيه سلطان قوي جعله ينأى بجانبه عن خؤلته الهاشمية، وينحاز إلى جانب الأمويين، وفي ذلك يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ما زال الزبير رجلاً منا أهل البيت، حتى أدركه ابنه عبد الله فلفته عنا»، وقد أقر الزبير نفسه بهذا السلطان عليه، فقد روى صاحب العقد: أن رجلاً سأل الزبير بعد مقتل عثمان رضي

الله عنه فقال له: ما بالك يا أباعبد الله؟ فقال الزبير: مطلوب مغلوب، يغلبني ابني، ويطلبني ذنبي. وبهذا السلطان غلب على خالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وأخرجها لحرب عليّ وحزبه، وقد كان بعض أكابر الصحابة يشعرون بهذا السلطان له عليها.

روى أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب: «أن عائشة رضي الله عنها قالت: إذا مر ابن عمر فأرونيه، فلما مر ابن عمر قالوا: هذا ابن عمر، فقالت: يا أبا عبد الرحمن ما منعك أن تنهاني عن مسيري؟ قال: رأيت رجلاً قد غلب عليك، وظننت أنك لا تخلفيه - يعني ابن الزبير - قالت عائشة: أما إنك لو نهيتني ما خرجت، وبهذا السلطان قدمته على أبيه في الصلاة فصلى أبوه خلفه، فقيل له في ذلك؟ فقال: «أما صلاتي خلف ابني، فإنما قدمته عائشة أم المؤمنين»، وبهذا السلطان قاد الرّجالة في وقعة الجمل، ثم صارت إليه القيادة العامة بعد رجوع أبيه عن الحرب.

روي أن الزبير دخل على عائشة رضي الله عنهما فقال لها: «يا أماه، ما شهدت موطناً في الشرك ولا في الإسلام إلا ولي فيه رأي وبصيرة غير هذا الموطن، فإنه لا رأي لي فيه ولا بصيرة»، ثم قال لابنه عبد الله: «عليك بحربك، أما أنا فراجع إلى بيتي» فقال عبد الله: الآن حين التقت حلقتا البطان، واجتمعت الفئتان؟ والله لا نغسل رؤوسنا منها! فقال الزبير لابنه: لا تعد هذا مني جبناً، فوالله ما فررت عن أحد في جاهلية ولا إسلام، قال: فما يردك؟ قال: يردني ما إن علمته كَسَرك، فقام بأمر الناس عبد الله بن الزبير، وكان حرياً بهذا، فهو من أشجع الناس وأصبرهم على لأواء الحرب، وكان أحب الناس إلى خالته عائشة.

روى ابن حجر في الإصابة: أن عبد الله أخذ من وسط القتلى يوم الجمل وفيه بضع وأربعون جراحة، فأعطت عائشة البشير الذي بشرها بأنه لم يمت عشرة آلاف.

انتهت هذه الحروب، واستقر الأمر لمعاوية رحمه الله تعالى، وقد أراد في آخر حياته أخذ البيعة لابنه يزيد من بعده، ولم يكن يخشى أحداً أكثر ما كان يخشى عبادلة الإسلام والحسن والحسين، فأخذ يعد للأمر عدته، ويستوحي دهاءه وسياسته، ورأى أن يقدم المدينة ليروض هؤلاء النفر، فأرسل إلى عبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وأمر حاجبه ألا يأذن لأحد من الناس حتى يخرج هؤلاء النفر، ثم تكلم معاوية فقال: «أما بعد؛ فإني قد كبر سني، ووهن عظمي، وقرب أجلي، وأوشكت أن أدعى فأجيب، وقد رأيت أن أستخلف عليكم بعدي يزيد، وأنتم عبادلة قريش وخيارها وأبناء خيارها، ولم يمنعني أن أحضر حسناً وحسيناً إلا أنهما أولاد أبيهما، على حُسْن رأيي فيهما وشديد محبتي لهما، فردوا على أمير المؤمنين خيراً يرحمكم الله».

فتكلم القوم بكلام لم يثلج صدر معاوية، وكان مما قال عبد الله ابن الزبير: «أما بعد؛ فإن هذه الخلافة لقريش خاصة تتناولها بمآثرها السنية، وأفعالها المرضية، مع شرف الآباء وكرم الأبناء، فاتق الله يا معاوية، وأنصف من نفسك، فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ﷺ، وهذا عبد الله بن جعفر ذو الجناحين ابن عم رسول الله، وأنا عبد الله بن الزبير بن عمة رسول الله، وعلي خلَّف حسناً وحسيناً،

وأنت تعلم من هما، وما هما، فاتق الله يا معاوية، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك».

أعرض معاوية عن البيعة ليزيد خشية أن تعاد جذعة، وارتحل عن المدينة متحيناً الفرصة المواتية، وليس له همّ إلا هؤلاء النفر الذين ينافسون ابنه في مكانه من الخلافة، ولم يزل يفتل في غارب الأحداث، ويروض الناس، ويشاور، ويعطي الأقارب، ويداني الأباعد، حتى استوثق من أكثر الناس، وكان بدهائه يعلم أن عبد الله ابن الزبير أصلب القوم عوداً، وأصعبهم مراساً، وأبعدهم غاية، وأوسعهم طموحاً، وأشدهم إنكاراً لبيعة يزيد.

وقد وصف له سعيد بن العاص عامله على المدينة موقف ابن الزبير في كتاب بعث به إليه فقال: «أما الذي ظاهر بعدائه وإبائه لهذا الأمر فعبد الله بن الزبير»، ولم يكن معاوية بالذي يستهين برجل في إهاب أبي خبيب، فكتب إلى سعيد يقول له: «أما الذي يرد مع السباع إذا وردت، ويكنس إذا كنست فذلك عبد الله بن الزبير، فاحذره أشد الحذر» وقد تولى أمره بنفسه يروضه ويعجم عوده، فقال له: ما ترى في بيعة يزيد؟ قال عبد الله: «يا أمير المؤمنين إني أناديك ولا أناجيك، إن أخاك من صدقك، فانظر قبل أن تتقدم، وتفكر قبل أن تندم، فإن النظر قبل التقدم والتفكر قبل التندم»، فضحك معاوية وقال: «أنت ثعلب رواغ، كلما خرجت من جحر انجحرت في آخر، تعلمت الشجاعة عند الكبر، في دون ما تشجعت به على ابن أخيك ما يكفيك».

قدّر العبادلة لابن الزبير صراحته الحازمة، فأسندوا إليه

أمرهم، وفوضوا له التكلم بلسانهم عندما رأوا تصميم معاوية على تنفيذ رأيه، فاجتمعوا وقالوا لابن الزبير: اكفنا كلامه، فقال: على ألا تخالفوني، فقالوا: لك ذلك! ثم أتوا معاوية فرحب بهم وقال لهم «قد علمتم نظري لكم وتعطفي عليكم، وصلتي أرحامكم، ويزيد أخوكم وابن عمكم، وإنما أردت أن أقدمه باسم الخلافة، وتكونوا أنتم تأمرون وتنهون، فسكتوا، وتكلم ابن الزبير فقال: «نخيرك بين إحدى ثلاث، أيها أخذت فهي لك رغبة، وفيها خيار، إن شئت فاصنع فينا ما صنعه رسول الله ﷺ: قبضه الله ولم يستخلف، فدع هذا الأمر حتى يختار الناس لأنفسهم، وإن شئت فما صنع أبو بكر: عهد إلى رجل من قاصية قريش وترك ولده ومن رهطه الأدنين من كان لها أهلاً، وإن شئت فما صنع عمر: صيّرها إلى ستة نفر من قريش، يختارون رجلاً منهم، وترك ولده وأهل بيته، وفيهم من لو وليها لكان لها أهلاً» فقال معاوية: هل غير هذا؟ قال: لا، ثم قال للآخرين: ما عندكم؟ قالوا: نحن على ما قال ابن الزبير!.

تمّت البيعة ليزيد على كره جمهرة من شباب قريش يقودهم عبد الله بن الزبير، فتوجه إلى مكة، وتحصن بالبيت الحرام، ووجه إليه يزيد الجيوش لمحاربته، ولكن القدر كان أسرع إلى أجل يزيد، فاضطرب أمر بني أمية، واستشرى أمر عبد الله بن الزبير، وبايعه الناس، وكاد الأمر يتم له، لولا أن عبد الله أرادها خلافة راشدة، وأرادها منافسوه من آل مروان ملكاً عضوضاً، وأرادها عبد الله عُمرية عَلَويّة، وأرادها مزاحموه معاويّة عَمْرية.

روى المؤرخون أن حصين بن نمير الذي خلف مسلم بن عقبة في محاربة عبد الله بن الزبير لما بلغه موت يزيد قال لعبد الله: يا أبا بكر، أنا سيد أهل الشام، لا أدافع، وأرى أهل الحجاز قد رضوا بك، فتعال أبايعك الساعة، ويهدر كل شيء أصبناه يوم الحَرَّة، وتخرج معي إلى الشام فإني لا أحب أن يكون الملك بالحجاز، فقال عبد الله: والله لا أفعل، ولا آمن من أخاف الناس، وأحرق بيت الله، وانتهك حرمته، قال حصين: بلى، فافعل على ألا يختلف عليك اثنان، فأبى عبد الله، فقال حصين: فعل الله بك وبمن يزعم أنك سيد، والله لا تفلح أبداً.

ويحدّثنا التاريخ أن أخاه مصعب بن الزبير لما فرغ من فتنة المختار بن عبيد الثقفي قدم عليه ومعه وجوه أهل العراق الذين أيدوه وثبّتوا رايته بالعراق، وكلمه في الإحسان إليهم، فقال: «يا أمير المؤمنين، قد جئتك بوجوه أهل العراق، ولم أدع لهم نظيراً، فاعطهم من هذا المال»، فقال عبد الله: «جئتني بعبيد أهل العراق لأعطينهم من مال الله، وددت أن لي بكل عشرة منهم رجلاً من أهل الشام، صرف الدينار بالدرهم»، فقال رجل من القوم: أتدري يا أمير المؤمنين ما مثلنا ومثلك فيما ذكرت؟ قال: وما ذلك؟ قال: فإن مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام كما قال أعشى بكر بن وائل:

علقتها عرضاً وعلقت رجلاً غيري وعلق أخرى ذلك الرجل

ثم انصرف القوم من عنده خائبين وقد فسدت قلوبهم، وراسلوا عبد الملك بن مروان، فخرج إليهم بعد أن ملأ أيديهم

بالأموال وهزم جيوش عبد الله وقتل مصعباً، وهل يبعد هذا الموقف عن موقف علي بن أبي طالب وقد سأله أخوه عقيل بن أبي طالب شيئاً من مال فمنعه وانحاز إلى معاوية، فأغدق عليه وعلى أهل بيته، وقديماً أخذ الباحثون على عبد الله بن الزبير هذه الخلال التي تند عن خلال الرجال الذين يريدون أن يشيدوا ملكاً ويقيموا دولة في غير أزمان النبوة.

● ● ●

عبد الله بن الزبير

صرامته في الحق ـ فصاحته ـ شجاعته

قلنا في المقال السابق إن عبد الله بن الزبير كاد يتم له أمر الخلافة وتجتمع عليه الأمة لولا خلال عدها بعض المؤرخين نقصاً في استعداده لهذا المنصب الخطير، وعددناها تسامياً منه عن مزالق السرف ومضال السياسة الجائرة، فلا يضيره أن يكون أراد بالناس سياسة جَدّه الصدّيق وعدل الفاروق، ولم تكن له رعية الصديق ولا جند الفاروق. وإذا كان أبو خبيب قد أُتي من قِبل أطماع الناس وفساد ضمائرهم فإنه قد ساعد على نفسه بما فتح من ثُغَر بينه وبين أقرانه من الهاشميين، بدأت بالمنافسة التي أذكتها المعاصرة، وقد أخذت تشتد وتقوى حتى تحولت إلى خصومة ظاهرة تؤرثها المفاخرة، ويزيد أوارها المتربصون من الأمويين.

روى إبراهيم بن محمد البيهقي في كتاب (المحاسن والمساوي) أن عبد الله بن عباس دخل المسجد بعد مسير الحسين بن علي إلى العراق، فإذا هو بابن الزبير في جماعة من قريش قد استعلاهم بالكلام، فجاء ابن عباس حتى ضرب بيده بين عضدي ابن الزبير وقال: «أصبحت والله كما قال الأوّل:

يـا لـكِ مـن حُمّـرة بمعمَـر خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقّـري مـا شئـت أن تنقـري قـد رُفـع الفـخ فمـاذا تحـذري

خلت الحجاز من الحسين بن علي، وأقبلت تهدر في جوانبها».
فغضب ابن الزبير وقال: «والله لكأنك ترى أنك أحق بهذا الأمر من غيرك». فقال ابن عباس: «إنما يرى من كان في حال شك، وأنا من ذلك على يقين». فقال: «وبأي شيء تحقق عندك أنك أحق بهذا الأمر مني»؟ قال ابن عباس: «لأنا أحق ممن يدل بحقه، وبأي شيء تحقق عندك أنك أحق بها من سائر العرب إلا بنا»؟ فقال ابن الزبير: «تحقق عندي أني أحق بها منكم لشرفي عليكم قديماً وحديثاً». فقال ابن عباس: «أنت أشرف أم من قد شرفت به»؟ فقال ابن الزبير: «إن من شرفت به زادني شرفاً إلى شرف قد كان لي قديماً وحديثاً». قال ابن عباس: «أفمنّي الزيادة أم منك»؟ قال: «بل منك». فتبسم ابن عباس، فقال ابن الزبير: «يا ابن عباس دعني من لسانك هذا الذي تقلبه كيف شئت، والله لا تحبّوننا يا بني هاشم أبداً». قال ابن عباس: «صدقت، نحن أهل بيت مع الله عز وجل لا نحب من أبغضه الله تعالى». فقال ابن الزبير: «يا ابن عباس ما ينبغي لك أن تصفح عن كلمة واحدة». قال: «إنما أصفح عمن أقر، وأما عمن هرّ فلا، والفضل لأهل الفضل». قال ابن الزبير: فأين الفضل؟ قال: «عندنا أهل البيت، لا تصرفه عن أهله فتظلم، ولا تضعه في غير أهله فتندم». قال ابن الزبير: «أفلستُ من أهله»؟ قال: «بلى إن نبذت الحسد، ولزمت الجدد».

زادت هذه الخصومة شدة على مر الزمن، ودفعت الهاشميين إلى الامتناع عن بيعة ابن الزبير وإظهار الطعن عليه، فشردهم، وحبس زعماءهم، ونفى قادتهم. قال صاحب العقد: «ولما توطّد لابن الزبير أمره، وملك الحرمين، والعراقين، أظهر بعض بني هاشم الطعن عليه، وذلك بعد موت الحسن والحسين، فدعا عبد الله بن عباس ومحمد بن الحنفية وجماعة من بني هاشم إلى بيعته فأبوا عليه، فجعل يشتمهم ويتناولهم على المنبر، ثم قال لهم: لتبايعن أو لأحرقنكم بالنار! فأبوا عليه، فحبس محمد بن الحنفية في خمسة عشر من بني هاشم في سجن عارم؛ وفي ذلك يقول له كُثيّر عزة وكان شيعياً:

تُخَبِّرُ من لاقيتَ أنك عائذ ... بل العائذ المظلوم في سجن عارم
سَميُّ النبي المصطفى وابن عمه ... وفكّاك أغلال وقاضي مغارم

وقال ابن عبد البر في الاستيعاب: «إن ابن الزبير أخرج محمد ابن الحنفية ونفى ابن عباس إلى الطائف، وقد كان لهذا النزاع أثر سيء في فشل ابن الزبير وتفرق كثير من أصحابه عنه».

أما شجاعة عبد الله بن الزبير ورباطة جأشه وفصاحة منطقه وبراعة بيانه، فعن البحر حدث ولا حرج. ذكر ابن عبد ربه في كتاب العقد: «أن عبد الله لما بلغه قتل مصعب صعد المنبر فجلس عليه ثم سكت، فجعل لونه يحمرّ مرة ويصفرّ مرة، فقال رجل من قريش لرجل إلى جنبه: ماله لا يتكلم؟ فوالله إنه للخطيب اللبيب! فقال له الرجل: لعله يريد أن يذكر مقتل سيد العرب فيشتد عليه ذلك، وغير

ملوم. ثم تكلم عبد الله فقال: «الحمد لله الذي له الخلق والأمر، والدنيا والآخرة، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء. أما بعد؛ فإنه لم يعز من كان الباطل معه ولو كان معه الأنام طراً، ولم يذل من كان الحق معه ولو كان فرداً. ألا وإن خبراً من العراق أتانا فأحزننا وأفرحنا، فأما الذي أحزننا فإن لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه ثم يرعوي ذوو الألباب إلى الصبر وكريم الأجر، وأما الذي أفرحنا فإن قتل مصعب له شهادة، ولنا ذخيرة، أسلمه الطَّغام الصم الآذان أهل العراق وباعوه بأقل من الثمن الذي كانوا يأخذون منه، فإن يقتل فقد قتل أخوه وأبوه وابن عمه وكانوا الخيار الصالحين. أما والله لا نموت حتفاً كما يموت بنو مروان، ولكن قعصاً بالرماح وموتاً تحت ظلال السيوف! ألا إنما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذي لا يبيد ذكره، ولا يذل سلطانه، فإن تُقبل الدنيا عليّ لم آخذها مأخذ الأشر البطر، وإن تُدبر عني لم أبك عليها بكاء الخرِق المهين».

خرج العراق بمقتل مصعب عن طاعة عبد الله، وكانت الشام قد استتمت طاعتها لعبد الملك بن مروان، ولم يبق مع عبد الله غير الحرمين على ما فيهما من دخن ممن يوالي الهاشميين؛ فلما رأى عبد الله ذلك جمع خاصته من القرشيين ليستشيرهم، فقال لهم: ما ترون؟ فقال رجل من بني مخزوم: والله لقد قاتلنا معك حتى لا نجد مقيلاً، ولئن صبرنا معك ما نزيد على أن نموت، وإنما هي إحدى خصلتين: إما أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لأنفسنا، وإما أن تأذن لنا فنخرج. فقال عبد الله: لقد كنت عاهدت الله أن لا يبايعني أحد

فأقيله بيعته إلا ابن صفوان. فقال له ابن صفوان: أما أنا فإني أقاتل معك حتى أموت بموتك، وإني لتأخذني الحفيظة أن أسلمك في مثل هذه الحالة! وقال له رجل آخر: اكتب إلى عبد الملك بن مروان، فقال له: كيف أكتب؟ من عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الملك بن مروان؟ فوالله لا يقبل هذا أبداً! أم أكتب لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير؟ فوالله لأن تقع الخضراء على الغبراء أحب إليّ من ذلك! فقال أخوه عروة بن الزبير وهو جالس معه على السرير: يا أمير المؤمنين قد جعل الله لك أسوة، قال: من هو؟ قال: حسن بن علي، خلع نفسه وبايع معاوية. فرفع عبد الله رجله وضرب بها عروة حتى ألقاه عن السرير وقال: قلبي إذاً مثل قلبك!! والله لو قبلت ما يقولون ما عشت إلا قليلاً، وقد أخذت الدنية، وإن ضربة بسيف في عز، خير من لطمة في ذل!.

هذا موقف ليس في حاجة إلى التعليق على ما فيه من شجاعة، وشرف نفس، وقوة قلب، واستهانة بالموت في سبيل الكرامة والعقيدة. وليس بغريب على ابن أسماء الصديقية وابن الزبير حواري رسول الله ﷺ، فثمة ما هو أعجب وأسمى، وهو ما نحب أن نطيل التأمل فيه، ونود بجدع الأنف لو أن كل مسلم ولا سيما الشباب أطال التأمل فيه وجعله مَثَله الأعلى في تكوين رجولته، وتعلّم منه كيف تكون الحياة العزيزة. وكذلك نود لو أن كل امرأة مسلمة جعلته شعارها في تربية بنيها تربية صادقة الرجولة حتى يكون منهم للوطن الإسلامي عدة قوية في هذا العصر الثائر الكِلب.

روى أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب وجمهرة المؤرخين عن عروة بن الزبير وغيره، قال: «لما كان قبل قتل عبد الله بن الزبير بعشرة أيام، دخل على أمه أسماء وهي شاكية، فقال لها: كيف تجدينك يا أمه؟ قالت: ما أجدني إلا شاكية، فقال لها: إن في الموت لراحة، فقالت: لعلك تمنيته لي، ما أحب أن أموت حتى يأتي عليّ أحد طرفيك، إما قتلت فأحتسبك، وإما ظفرت بعدوك فتقر عيني! قال عروة: فالتفت إليّ عبد الله فضحك؛ فلما كان في اليوم الذي قتل فيه، دخل عليها في المسجد، فقالت له: يا بني لا تقبلن منهم خطة تخاف فيها على نفسك الذل مخافة القتل، فوالله لضربة سيف في عز خير من ضربة سوط في الذل!! فقال عبد الله: يا أماه أما ترين؟ خذلني الناس، وخذلني أهل بيتي، فقالت: لا يلعبن بك صبيان بني أمية، عش كريماً، ومت كريماً!! ثم قبل رأسها وودعها، وضمته إلى نفسها، فخرج من عندها وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أيها الناس! إن الموت قد تغشّاكم سحابه، وأحدق بكم ربابه، واجتمع بعد تفرق، وأرجحن بعد تمشق، ورجس نحوكم رعده، وهو مفرغ عليكم ودَقَه، وقاد إليكم البلايا تتبعها المنايا، فاجعلوا السيوف لها غرضاً، واستعينوا عليها بالصبر». ثم قال لعبد الله بن صفوان وكان صفيه: قد أقلتك بيعتي، وجعلتك في سعة، فخذ لنفسك أماناً؛ فقال ابن صفوان: مَهْ؟ والله ما أعطيتك إياها حتى رأيتك أهلاً لها، وما رأيت أحداً أولى بها منك، فلا تضرب فتيان بني أمية هذه الصلعة أبداً! ثم دخل ابن الزبير بيته

فنام، فجاء ابن صفوان وقد دنـا أهل الشـام من المسـجد فاسـتأذن، فقالت الجارية: هو نـائم، فقال ابن صفوان: أو ليلـة نوم هـذه؟! أيقظيه! فلم تفعل، فأقام ثم استأذن، فقالت: هو نائم، فانصرف ثم رجع آخر الليل وقد هجم القـوم على المسـجد، فخرج ابن الزبيـر فقال: والله ما نمت منذ عقلت الصلاة نومي هذه الليلة وليلة الجمل، ثم دعا بالسواك فاستاك متمكناً، ثم توضأ متمكناً ولبس ثيابه، ثم قال: أنظرني حتى أودع أم عبد الله فلم يبق شيء، وكان يكره أن يأتيها فتعزم عليـه أن يأخذ الأمان، فدخل عليها وقد كف بصرهـا، فسـلم، فقالت: من هذا؟ فقال: عبد الله، فتشـممته، ثم قالـت: يا بني لا ترض الدنيـة، فإن الموت لا بد منه! قال: إني أخاف أن يمثلوا بي، قالت: إن الكبش إذا ذبح لم يخف السلخ!.

ثم خرج وقد جعل له مصراع عند الكعبة فكان تحته، فقال له رجل من قريش: ألا نفتح لك باب الكعبة فتدخلها؟ فقال عبد الله: من كل شيء تحفظ أخاك إلا من نفسه، والله لو وجدوكم تحت أستار الكعبة لقتلوكم، وهل حرمة المسجد إلا كحرمة البيت؟ ثم تمثل:

ولسـت بمبتـاع الحيـاة بسُبّـة ولا مرتق من خشية الموت سلّما

ثم شد عليه أصحاب الحجاج، فقال: أين أهل مصر؟ فقالوا: هم هؤلاء من هذا الباب، لأحد أبواب المسجد، فقال لأصحابه: اكسـروا أغماد سيوفكم، ولا تميلوا عني، فإني في الرعيل الأول، ففعلوا، ثم حمل وحملوا معه، وكان يضرب بسيفين، فقال رجل يقال له خلبوب لأهل الشام: أما تستطيعون إذا والاكم ابن الزبير أن

تأخذوه بأيديكم؟ قالوا: ويمكنك أنت أن تأخذه بيدك؟ قال: نعم، قالوا: فشأنك، فأقبل وهو يريد أن يحتضنه، فاستقبله ابن الزبير بضربة قطع بها يده. فقال خلبوب: حسّ! فقال ابن الزبير: اصبر خلبوب! ثم دخل عليه أهل حمص من باب بني شيبة، فقال: من هؤلاء؟ فقالوا: أهل حمص، فشد عليهم حتى أخرجهم وهو يرتجز:

لو كان قِرني واحداً كُفيته أوردته الموت وقد ذكيته

ثم دخل عليه أهل الأردن من باب آخر، فجعل يضربهم بسيفه حتى أخرجهم من المسجد، ثم انصرف وهو يقول:

لا عهد لي بغارة مثل السَّيْل لاينجلي قتامها حتى الليل

فأقبل عليه حَجَر من ناحية الصفا وهو منصرف فضربه بين عينيه، فنكس رأسه وهو يقول:

ولسنا على الأعقاب تَدْمَىٰ قلوبنا ولكن على أقدامنا يقطر الدم

فلما علم أصحاب الحجاج بمقتله كبروا، فقال عبد الله بن عمر: ماهذا؟ قالوا: أهل الشام يكبرون لقتل عبد الله بن الزبير، فقال ابن عمر: الذين كبروا لمولده خير من الذين كبروا لقتله.

وروي أن عبد الله بن عباس قال لقائده: جنبني خشبة ابن الزبير، فلم يشعر ليلة حتى عثر فيها، فقال: ما هذا؟ فقال: خشبة ابن الزبير، فوقف ودعا له، وقال: «لئن علتك رجلاك لطالما وقفت عليهما في صلاتك» ثم قال لأصحابه: «أما والله ما عرفته إلا صوّاماً قوَّاماً».

وروى ابن القاسم عن مالك أنه كان يقول: «ابن الزبير كان أفضل من مروان، وكان أولى بالأمر من مروان ومن ابنه».

وقال مجاهد: «كان ابن الزبير إذا قام للصلاة كأنه عمود، وكان يواصل من الجمعة إلى الجمعة، وما كان باب من العبادة إلا تكلف، ولقد جاء سيل بالبيت فرأيته يطوف سباحة».

وقال عمرو بن دينار: «ما رأيت مصلياً أحسن صلاة من ابن الزبير».

* * *

عبد الله بن العباس

نحاول هنا أن نجلو صورة جديدة لشخصية من طَرْز جديد في أساتيذ تلك المدرسة المحمدية الخالدة، هذه الشخصية عبّت من بحر العبقرية الإسلامية، وعلى أساتذتها من رعيل الأنصار الأبرار وسادة المهاجرين الأولين تخرجت، ومن منبع النبوة وفيض الوحي استقت، ولكنها أخذت من الحياة بجانب العقل والفكر، فانصرفت إلى العلم ترويه وتحفظه، وتبثه وتنشره، جائلة في كنوز الإسلام وشرائعه، وآدابه وتعاليمه، غائصة في بحاره لالتقاط درره، ذلكم هو عبد الله بن العباس، حبر الأمة، وعلَم الإسلام، وعيلم العلماء، وترجمان القرآن، وابن عم رسول الله ﷺ.

يحدثنا التاريخ أن عبد الله بن العباس رحمه الله وُلد وبنو هاشم محاصرون في شِعب أبي طالب، أيام المحنة العظمى للدعوة الإسلامية، بما تضافر عليها من اجتماع أنصار الباطل وحلفاء الوثنية، حتى كانوا إلْباً على رسول الله وقومه، لا يبايعونهم، ولا يناكحونهم. وكانت هذه الحادثة أشد ما لقي الهاشميون من أذى قريش في سبيل ذيادهم عن النبي ﷺ عصبية له، وكانت أيضاً أول بدء للنضال القوي الصارم في سبيل توطيد أركان الإيمان بالعقيدة العتيدة، ومناهضة موروثات الوثنية البالية عن طريق إيقاظ العقل وتخليصه من ربقة الأسر

في أغلال التقليد البليد، فإنها كشفت عن روح التحكم الاستبدادي والعسف الآثم في مسلك قريش مع إخوتها وأبناء عمومتها، حتى نهض بعض الأباة من أضراب هشام بن عمرو وزمعة بن الأسود وزهير ابن أبي أمية وأبي البختري بن هشام والمطعم بن عدي، ينكرون على قريش شنعتها، ويأبون إلا أن يعيش الهاشميون مع الناس يأخذون ويعطون، ويحيون حياتهم الأولى في غير حرج ولا إعنات، ولكنهم لم يكادوا يخرجون إلى طبيعة الحياة حتى نكبوا بموت زعيمهم شيخ قريش ونبيلها أبي طالب عم النبي ﷺ، والقائم دونه يحميه ويذود عن دعوته، فكانت وفاته من أشد ما آلم نفس النبي ﷺ خاصة، ونفوس الهاشميين عامة، لمكانة أبي طالب فيهم وفي عامة العرب.

كان طبيعياً بعد موت أبي طالب وانحياز أبي لهب إلى جانب قريش، أن يقوم العباس ابن عبد المطلب مقام أخيه أبي طالب في زعامة الهاشميين، وكان مظهر الزعامة وقتئذ الوقوف في وجه قريش دفاعاً عن محمد بن عبد الله ودعوته، فعضد العباس الدعوة المحمدية كما كان يعضدها أبو طالب. وكتبُ السيرة مجمعة على رواية حضوره بيعة العقبة العظمى مع النبي ﷺ مستوثقاً له من اليثربيين؛ وكان العباس أول متكلم فقال: «يا معشر الخزرج إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، وهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه إليكم فمن الآن فدعوه». وتمت البيعة بمحضر من العباس، وفتح بها باب

الهجرة الذي نفذ منه المسلمون إلى جهاد عدوهم ونشر دعوتهم؛ وعبد الله بن العباس لمّا يشبّ عن الطوق، ولكنه يرى ويسمع، والحوادث تتوالى في شدة وسرعة، والآيات تترى، والوحي يتتابع، وشوكة الإسلام تقوى، وكلمته تعلو، وساعده يشتد، وأنصاره يكثرون، ومكة العصية تفتح، وقريش الجامحة تؤمن، وسادتها تطيع وتسلم، والعباس يؤمن ويهاجر، والحِجَاج العقلي يتعاظم، والعرب قاصيها ودانيها تقبل في وفود رؤوسها مسلمة لله مبايعة لرسوله عليه السلام.

هذه هي العناصر الحيوية، والمقومات الطبيعية، والمبادئ الاجتماعية، التي كونت حياة عبد الله بن العباس حبر الأمة وبحرها، وقد كان لكل ناحية منها أثرها في حياته، ولكن حرصه على العلم كان أربى وأسمى نواحيه؛ يحدث عن نفسه فيقول فيما يرويه عنه مولاه عكرمة: «لما قبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هَلُمَّ فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم اليوم كثير، قال: واعجبا لك! أترى الناس يفتقرون إليك؟! فترك ذلك، وأقبلت أسأل، فإن كان ليبلغني الحديث عن رجل فآتى بابه وهو قائل، ولو شئت أن يؤذن لي لأذن، لكن أبتغي بذلك طيب نفسه، فأتوسد ردائي على بابه يسفي عليّ الريح من التراب، فيخرج فيراني، فيقول: يا ابن عم رسول الله ما جاء بك؟ هلاَّ أرسلت إليَّ فآتيك؟ فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث، فعاش الرجل الأنصاري حتى رآني وقد اجتمع الناس حولي يسألوني، فقال: هذا الفتى كان أعقل مني».
وفي هذا الحديث من ضروب التربية التعليمية وأدب التهذيب

ما يرفعه إلى أن يكون دستوراً لحياة طالب العلم الذي رزق همة نبيلة، ففيه تصوير لمقدار الحرص على التعلم، وفيه تصوير لأدب تلقي العلم، وفيه تصوير لما يحتاج إليه طالب العلم من الصبر على لأواء الحياة، وفيه تصوير لقيمة الاعتداد بالنفس ومضاء العزيمة، فإن ابن عباس لم يكن حين توفي رسول الله ﷺ يجاوز ثلاث عشرة سنة من عمره، فيما يجزم به الواقدي، ومع ذلك فقد أبت همته أن يستصغر نفسه، فدأب يسأل ويتعلم حتى بلغ هذا المبلغ الذي لقب من أجله بالبحر، فيما يقوله مجاهد، ويرويه البخاري عن جابر بن زيد «سألت البحر عن لحوم الحُمُر ـ وكان ابن عباس يسمى البحر».

وقد حقق الله بما آتاه من العلم والحكمة دعوة النبي ﷺ له، فقد روي عنه أنه قال: صليت خلف النبي ﷺ، فأخذ بيدي حتى جعلني حذاءه، فلما أقبل على صلاته حبست، فلما انصرف قال: ما شأنك؟ فقلت: يا رسول الله أو ينبغي لأحد أن يصلي حذاءك وأنت رسول الله؟ فدعا لي أن يزيدني الله فهماً وعلماً. وروي أنه بات عند خالته ميمونة أم المؤمنين رضي الله عنها، فقام النبي ﷺ إلى الخلاء فسكب له وضوءاً، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: من وضع هذا؟ فقالت السيدة ميمونة: ابن عباس، فقال النبي ﷺ: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل». وكان عبد الله بن عمر يقول له: إني رأيت رسول الله ﷺ دعاك فمسح رأسك وتفل في فيك وقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل».

وقد عرف له أجلاَّء الصحابة وعلماؤهم هذا الفضل، فكان

عمر بن الخطاب يحبه ويقدمه على الأكابر من المهاجرين، فقالوا له: ألا تدعونا كما تدعو ابن عباس؟ فقال عمر: ذاكم فتى الكهول، له لسان سؤول، وقلب عقول. ويقول عبد الله بن عتبة: كان عمر يأخذ بقول ابن عباس في العَضْل، وعمر عمراً!!

ويخبرنا ابن عباس عن بعض شأن عمر معه فيقول: قدم على عمر رجل فسأله عن الناس، فقال: قرأ منهم القرآن كذا وكذا، فقال ابن عباس: ما أحب أن يسأل عن آي القرآن، قال: فزبرني عمر، فانطلقت إلى منزلي، فقلت: ما أراني إلا قد سقطت من نفسه، فبينا أنا كذلك إذ جاءني رجل فقال: أجب، فأخذ بيدي ثم خلا بي، فقال: ما كرهت مما قال الرجل؟ فقلت: يا أمير المؤمنين إن كنت أسأت فأستغفر الله! قال: لتحدثني، قلت: إنهم متى تنازعوا اختلفوا، ومتى اختلفوا ضلوا. قال: لله أبوك لقد كنت أكتمها الناس!!.

وكان علي كرم الله وجهه يقول فيه: إنه لغوّاص. وينبئنا ابن عبد ربه في كتاب العقد أن ابن عباس قال لعلي يوم التحكيم: اجعلني أحد الحكمين، فوالله لأفتلن لك حبلاً لا ينقطع وسطه ولا ينتشر طرفاه! فقال له علي: لست من كيدك ولا من كيد معاوية في شيء، لا أعطيه إلا السيف حتى يغلبه الحق، قال: وهو لا يعطيك إلا السيف حتى يغلبك الباطل، قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنك تطاع اليوم وتعصى غداً، وإنه يطاع ولا يعصى! فلما انتشر عن علي أصحابه قال: لله بلاد ابن عباس! إنه لينظر إلى الغيب من ستر رقيق. وسأل رجل عبد الله بن عمر عن آية، فقال: انطلق إلى ابن عباس فاسأله فإنه أعلم

من بقي بما أنزل الله تعالى على محمد. وفيه يقول عبد الله بن مسعود: أما إن ابن عباس لو أدرك أسناننا ما عاشره منا أحد، ونعم ترجمان القرآن ابن عباس!.

ولما مات زيد بن ثابت قال أبو هريرة: مات حبر هذه الأمة، ولعل الله أن يجعل من ابن عباس خلفاً. وكان ابن عباس شديد الإجلال لزيد بن ثابت، فقد روى الشعبي قال: ركب زيد بن ثابت فأخذ ابن عباس بركابه، فقال: لا تفعل يا ابن عم رسول الله، فقال ابن عباس: هكذا أُمرنا أن نفعل بعلمائنا، فقبّل زيد بن ثابت يده وقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا.

وقد جمع ابن عباس من صنوف العلم وفنونه ما لم يكن لأحد من معاصريه، لا يستثنى غير أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه، حتى إن ابن سعد في الطبقات يروي أنهم كانوا يميلون بينهما فيقولون: «إن عبد الله بن عباس كان أعلمهما بالقرآن، وكان علي أعلمهما بالمبهمات».

وما نظن هذا إلا لأن علياً شغلته السياسة عن الكلام في تفسير القرآن، وابن عباس تفرغ له فأكثر، ومهما يكن فإن ابن عباس تلميذ عليّ أخذ عنه كثيراً. والشيعة يرون أن ابن عباس سئل: أين علمك من علم ابن عمك؟ فقال: كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط.

ويروى عن عطاء بن أبي رباح أنه قال: ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس، أكثر فقهاً، وأعظم خشية، إن أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده، يصدرهم

كلهم من واد واسع. وقال مسروق: كنت إذا رأيت ابن عباس قلت: أجمل النـاس، فإذا نطق قلت: أفصح النـاس، فإذا تحدث قلت: أعلم الناس.

وروي أنه قرأ سـورة النور وجعل يفسـرها، فقـال رجل: لو سَمِعَتْ هذا الدَّيْلَمُ لأسلمت! وكان سعيد بن جبير يقول: كنت أسمع الحديث من ابن عباس فلو يأذن لي لقبلت رأسه.

وكان ابن عباس واسع العلم بلغة العرب وآدابها، روى أبو العباس في الكامل عن أبي عبيدة معمر بن المثنى أن عكرمة مولى ابن عباس قال: رأيت ابن عباس وعنده نافع بن الأزرق ـ أحد رؤوس الخوارج ـ وهو يسأله ويطلب منه الاحتجاج باللغة، فسأله عن قول الله جل ثناؤه: ﴿ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ فقال ابن عباس: وما جمع، فقال نافع: أتعرف ذلك العرب؟ قال ابن عباس: أما سمعت قول الراجز:

إن لنـا قـلائصـاً حقـائقـا مستوسقات لو يجدن سـائقا

وسأله عن قوله عز وجل: ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ فقال ابن عباس: هو الجدول، وأنشده:

سَلْماً ترى الدالج منه ازورا إذا تعب في السـرى هـرهـرا

وسأله عن قوله تعالى: ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ ما الزنيم؟ قال ابن عباس: هو الدعي الملزَق، أما سمعت قول حسان بن ثابت:

زنيـم تـداعـاه الـرجـال زيـادة كما زيد في عرض الأديم الأكارع

وسـأله عن قوله جل اسـمه: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ فقال ابن عباس: الشدة بالشدة، وأنشده:

أخو الحرب إن عضّت به الحرب عضها
وإن شـمّرت عـن سـاقها الحـرب شـمرا

وسأله عن قوله عز وجل: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ فقال له ابن عباس: غير مقطوع، فقال نافع: وهل تعرف ذلك العرب؟ فقال: قد عرفه أخو بني يشكر حيث يقول:

وترى خلفهن من سرعة الرَّجْـ ع منينـا كـأنـه أهبـاء

ولم يزل به يسائله حتى أملّه، فجعل ابن عباس يظهر الضجر. وطلع عمر بن عبد الله ابن أبي ربيعة على ابن عباس وهو يومئذ غلام، فسلّم وجلس، فقال له ابن عبـاس: ألا تنشـدنا شيئاً من شـعرك، فأنشده قصيدته التي يقول في مطلعها:

أمن آل نُعْم أنت غاد فمبكر غـداة غـد أم رائـح فمهجّـر
بحاجة نفس لم تقل في جوابها فتبلـغ عـذراً والمقـالـة تُعْـذر

حتى أكملها وهي ثمانـون بيتاً، فقال له ابـن الأزرق: يا ابن عباس أنضرب إليك أكباد الإبل نسألك عن الدِّين فتعرض، ويأتيك غلام من قريش فينشـدك سفهاً فتسـمعه؟! فقال: تالله ما سـمعت سفهاً!! فقال ابن الأزرق: أما أنشدك:

رأت رجـلاً أمـا إذا الشمـس عـارضـت
فيخـــزى وأمـــا بـــالعشـــي فيخســـر

فقال: ما هكذا قال، إنما قال:

رأت رجـلاً أمـا إذا الشمـس عـارضـت
فيضحـــى وأمـــا بـــالعشـــي فيخصـــر

قال نافع: أو تحفظ الذي قال؟ قال: والله ما سمعتها إلا ساعتي هذه، ولو شئت أن أردها لرددتها، قال: فإني أشـاء، فأنشـده إياها، فقال له نـافع: ما رأيت أروى منك قط، فقال ابن عبـاس: ما رأيت أروى من عمر ولا أعلم من عليّ.

وذكر المبرد في الكامل أن علياً وجّه ابن عباس إلى الخوارج ليناظرهم، فقال لهم: ما الذي نقمتم على أمير المؤمنين: قالوا: قد كان للمؤمنين أميراً فلما حكَّم في دين الله خرج من الإيمان فليتب بعد إقـراره بالكفر نَعُدْ له، فقال ابن عبـاس: لا ينبغي لمؤمـن لم يشب إيمانه شك أن يقر على نفسه بالكفر، قالوا: إنه قد حكَّم، قال: إن الله عز وجل قد أمرنا بالتحكيم في قتل صيد فقال عز وجل: ﴿ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ فكيف في إمامة قد أشكلت على المسلمين؟ فقالوا: إنه قد حُكم عليه فلم يرض، فقال: إن الحكومة كالإمامة، ومتى فسق الإمام وجبت معصيته، وكذلك الحكمان لما خالفا نبذت أقاويلهما، فقالوا: إذ كان على حق لم يشكك فيه وحكم مضطراً فما باله حيث ظفر لم يَسْب؟ فقال ابن عباس: قد سمعتم الجواب في التحكيم، فأما قولكم في السباء، أفكنتم سابين أمكم عائشة؟ فوضعوا أصابعهم في آذانهم وقالوا: أمسـك عنا غرب لسانك يا ابن عباس فإنه طُلَق

ذُلَق، غواص على موضع الحجة. وقد صدق الخوارج في وصفهم له، فإنه أوتي من البراعة في البيان وقوة الحجة ما سدَّ عليهم مسالك الجدل مع قوتهم في الاحتجاج.

روي أن الحطيئة الشاعر نظر إلى ابن عباس في مجلس عمر بن الخطاب وقد قرع بكلامه، فقال: من هذا الذي نزل عن القوم بسنه وعلاهم في قوله؟ قالوا: هذا ابن عباس، فأنشأ يقول:

إني وجدت بيان المرء ناقلة يهدى له ووجدت العى كالصمم
المرء يبلى وتبقى الكلم سائرة وقد يُلام الفتى يوماً ولم يلم

وحدَّث شاعر الإسلام حسان بن ثابت قال: كانت لنا عند عثمان حاجة فطلبناها إليه بجامعة من الصحابة منهم ابن عباس، وكانت حاجة صعبة شديدة، فاعتل علينا، فراجعوه إلى أن عذروه، وقاموا إلا ابن عباس، فلم يزل يراجعه بكلام جامع حتى سدَّ عليه كل حاجة، فلم يرَ بُدّاً من أن يقضي حاجتنا، فخرجنا من عنده وأنا آخذ بيد ابن عباس، فمررنا على أولئك الذين كانوا عذروا وضعفوا، فقلت: كان عبد الله أولاكم بها، قالوا: أجل، فقلت أمدحه:

كفى وشفى ما في الصدور ولم يدع
لذي إربة في القول جداً ولا هزلا
سموتَ إلى العليا بغير شبيهة
فنلت ذراها لا دَنيّا ولا وَغلا

وكان ابن عباس من حلماء العرب، فقد روي أن رجلاً شتمه

فقال له ابن عباس: إنك لتشتمْني وفيّ ثلاث: إني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل فأحبه ولعلي لا أقاضى إليه أبداً؛ وإني لأسمع بالغيث يصيب البلاد من بلدان المسلمين فأفرح به ومالي بها سائمة ولا راعية؛ وإني لآتي على آية من كتاب الله تعالى فوددت أن المسلمين كلهم يعلمون منها مثل ما أعلم. والحديث عنه طويل الذيول فحسبنا هذه الصورة الإجمالية عن عبقريته لنتحدث عن إخوان له جروا في شوطه.

* * *

الحسن البصري

ولد أبو سعيد الحسن بن يسار البصري سنة إحدى وثلاثين للهجرة، وهي مبتدأ المرحلة التي انتقل فيها زمام الدولة الإسلامية من عدل الخلافة الراشدة إلى جور المُلك العضوض، كما أخبر بذلك النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أصحاب السنن من قول النبي ﷺ: «الخلافة بعدي ثلاثون. ثم تكون مُلكاً عضوضاً».

وفي هذا الحديث إشارة إلى ما وقع من الفتن التي اجتاحت المجتمع الإسلامي، وفرقت كلمة المسلمين في ظل هذا الملك العضوض فلم تجتمع بعد ذلك.

كان يسار أبو الحسن البصري من سبي ميسان، ثم صار مولى لزيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، وكانت أم الحسن (خيرة) جارية لأم المؤمنين السيدة الجليلة أم سَلَمة زوج النبي ﷺ.

ففي بيت النبوة نشأ الحسن مع أمه في ظل أب عاش في كنف رجل من أفضل وأعلم الأنصار، وفي هذا الجو الروحاني شب الحسن وترعرع، حتى كان شاباً أريباً، يسمع ويرى، فيعلم ويعقل، وهو لَمَّاح الذكاء، مصقول الفطرة، مشرق الروح، نيِّر العقل، طاهر القلب، يرى آثار النبوة تتراءى أمام عينيه، فتنطبع في نفسه خلقاً كريماً، وتتمثل في حركاته عملاً وسلوكاً، ويسمع من الأجلَّاء ما يُروى من أحاديث

رسول الله ﷺ في وصف حاله وعيشه، وسَمْته، وأدبه، وأخلاقه في بيته ومع سائر أصحابه، فيحفظ ما يسمع، ويتأمل في معاني ما يسمع، ويتفقَّه في حقائقها، ويحيلها في نفسه صوراً حية، ويجعل من شرائعها عملاً واقعاً في حياته، فيعمل بما علم، ويتعمق فيما عقل منها.

فنشأة الحسن منذ مهده نشأة أدب رفيع، وتهذيب عليم، ودين محكم، وهَدْي مستقيم وخلق عظيم.

استقبل الحسن رحمه الله في طليعة حياته ألواناً من الفتن القاسية التي ألمت بالعالم الإسلامي، وفي مقدمتها الفتنة العثمانية، وهي تشتعل لهباً مدمراً، أحرق أمن المجتمع وقضى على سلامه، وأذاب طمأنينته واستقراره، ودفعه إلى الفوضى والاضطراب دفعاً أسلمه إلى فرقة قصمت ظهره، فلم تستقم له قناة بعدها، ولم تجتمع له كلمة، فرقة تنادى بها الشيطان فخب فيها وأوضع، وتواثب المنافقون إلى كانونها يُذْكون أواره، وتسارع إلى تنورها أخابث اليهود، من بقايا الغثاء الإنساني الذين تستروا بالتظاهر بالإسلام، ليكيدوا للإسلام، ووثب إلى صدرها الطامحون الطامعون من شباب لم تستنر أرواحهم بأنوار النبوة ولم تشرب قلوبهم حب الإيمان، ولم تخالط بشاشته أفئدتهم، وهم فتية استعبدتهم الدنيا بزخارفها، فجعلوا سلطانها أكبر همهم، وأعظم غاياتهم، وأجلّ مقاصدهم، استهدفوا من حياتهم هذا السلطان الدنيوي، فخاضوا للوصول إليه الدماء، واقتحموا في سبيله جماجم الأبرياء، أولئك الذين أضلهم الله، وأضل بهم، فعاثوا في أرض السلام والإسلام فساداً، فكانوا من الأخسرين أعمالاً الذين ضل

سعيهم في حياتهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

رأى أبو سعيد الحسن بن يسار البصري كل هذا فأرمض نفسه، وألبسه ثوباً من الحزن الكظيم لم يخلعه حتى مضى لسبيله إلى الله تعالى.

فهو قد شهد الخليفة الراشد ذا النورين عثمان بن عفان في محنته، محنة الإسلام كله، ورأى صبره على جهد البلاء، ومصابرته لحاملي لواء الفتنة، وسمع عثمان يخطب الناس ويحدثهم، فروى عنه ما سمع، وكان له يوم قتل عثمان رضي الله عنه خمس عشرة سنة، وهي سن تبدأ فيها فورة الشباب وقوته، وتطلُّعه إلى آفاق الآمال البعيدة، وهي سن تبدأ فيها مقومات الشخصية تتمايز عناصرها، وتأخذ إلى الحياة سمتها الذي تعيش به فيها، وهي سن يبدأ فيها العقل تصحيح موازين الأمور، وتبدأ فيها القوى الفكرية متحفزة لالتقاط صور الحقائق والمعاني في هذه الحياة.

في هذه السن المبكرة روى الحسن عن عديد من الصحابة، كان من أجلّهم عثمان رضي الله عنه، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعمران بن حصين، وسمرة بن جندب، وعمرو بن تغلب، ورأى الحسن ـ كما يقول أبو نُعيم في الحلية على لسان الحسن ـ سبعين بَدْرياً، صفوة الإنسانية، رآهم في سمتهم وسلوكهم، وشاهد عن عيان زهدهم في الدنيا، وعزوفهم عن زخارفها، وعرف عن قرب شجاعتهم في الحق، وعلمهم وتعبدهم، وإيثارهم لله على من سواه، فتخلق بأخلاقهم، والتزم في حياته سمتهم، وسلك طريقهم، حتى

بلغ في التابعين ذروة الفضل، واقتعد سنام المكارم في الإسلام، وكان يدعى (سيد التابعين)، يعظِّمه العلماء، ويجله الأمراء، ويهابه الولاة، تخشى كلمته، ويُحترَم رأيه، ويُقدِّر علمَه وفضلَه كبار الصحابة الذين أدركهم، وتَلْمَذ لهم، فكان أنس بن مالك رضي الله عنه إذا سئل قال لسائله: اسأل مولانا الحسن، فيقال له: يا أبا حمزة نسألك فتقول: اسألوا مولانا الحسن، فيقول أنس رضي الله عنه تقديراً لعلم الحسن وفضله، وثقة في نقله ورأيه: إن الحسن سمع وسمعنا، وحفظ ونسينا.

وفي تقدير فضل الحسن يقول علي بن زيد: لو أن الحسن أدرك الصحابة وهو رجل لاحتاجوا إلى رأيه. وكان عامر الشَّعْبي يظهر إكباره وإجلاله للحسن بمظاهر من الإكبار والإجلال لا يصنعها مع أحد غيره، فقال له ابنه مرة: يا أبت إني أراك تفعل بهذا الشيخ من الإكبار ما لم أرك تفعله مع أحد قط، فقال الشعبي: يا بني أدركت سبعين من أصحاب رسول الله ﷺ، فلم أر أحداً أشبه بهم من هذا الشيخ.

كان الحسن رحمه الله أفصح أهل عصره وأخطبهم، إذا تكلم أبان عن مقاصده أبلغ إبانة، وإذا خطب قال من يسمعه: لو وضع له منبر في عكاظ ما استمع الناس معه لِقُسِّ بن ساعدة، ولا لأكثم بن صَيْفي، وإذا وعظ وجفت القلوب، وذرفت العيون، لم ينازعه براعة البيان وروعة الفصاحة في عصره سوى طاغية عصره أخيشف ثقيف الحجاج الثقفي، قيل لأبي عمرو بن العلاء سيد القراء، وإمام اللغة: من أخطب الناس؟ فقال: الحجاج بن يوسف، وصاحب العمامة

السوداء بين أخصاص البصرة، يعني الحسن، وكان الحسن يتعمم بعمامة سوداء، اقتداء بالنبي ﷺ ـ كما جاء في بعض روايات تعممه ووصف عمامته.

روى مسلم عن عمرو بن حريث قال: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر وعليه عمامة سوداء، قد أرخى طرفيها بين كتفيه، وفي حديث جابر بن عبد الله عند مسلم قال: دخل رسول الله ﷺ مكة وعليه عمامة سوداء.

وكان الحسن رحمه الله أحرص الناس على التأسي برسول الله ﷺ في أخلاقه وأحواله، يترسم ذلك فيما يراه من حياة أصحابه الذين رأوه وأطالوا عشرته وتخلَّقوا بأخلاقه.

ومن لطائف ما يذكر أن العلماء والرواة الذين ترجموا للحسن قالوا: إن سبب براعته الفائقة في الفصاحة وروعة البيان، أن أمه (خيرة) كانت ـ كما ذكرنا ـ جارية للسيدة أم المؤمنين، أم سَلَمة زوج النبي ﷺ، فأرسلتها سيدتها أم المؤمنين في حاجة لها، وكان الحسن إذ ذاك طفلاً رضيعاً في مهده، فبكى بكاء شديداً، حرك في قلب أم المؤمنين رقة ورحمة، فأخذته ووضعته في حجرها لتسكته، وألقمته ثديها، فدرَّ عليه فشرب منه، فمن تلك الرضعة التي شرب من أم المؤمنين كانت فصاحته وبراعته البيانية.

ولباب ما يشير إليه الرواة في هذه القصة أن الحسن رحمه الله أدركته نفحة من نفحات النبوة التي نَهَد في كنفها، وامتزجت بجسمه قطرة أو قطرات من غيثها في لبن أم المؤمنين رضي الله عنها.

وقد نشأ الحسن رحمه الله مهذَّب النفس، حكيم اللسان، عليم القلب، حصيف العقل، زكي الفؤاد، مرهف الحس، تقياً نقياً، ورعاً زاهداً في الدنيا وزخارفها، ينأى عنها، ولا يزاحم أهلها في تَطَلُّبها، قوالاً بالحق في شجاعة لا تتهور، عزوفاً عن المظاهر، عياباً للدنيا والمتكالبين عليها، لا يصفها إلا بما يضعها تحت أقدام المتقين، مشغولاً عنها بالآخرة، يخاف فتنتها، ويخشى غرورها وسطوتها، يحذر نفسه من شرورها، إذا خلى بنفسه وعظها وخوَّفها بأس الله وبطشه، وإذا كان مع الناس كان فيهم من شدة حزنه وخوفه من عذاب الله، حتى كأن النار لم تخلق إلا له.

روي أن الشَّعْبي قال لحميد، وهم بمكة: إني أحب أن تخلِّي لي الحسن، فنقل حميد رغبة الشعبي إلى الحسن، وكان حميد مع الحسن في بيت واحد، فأجاب الحسن رغبة الشعبي، وقال لحميد: إذا شاء، فجاء الشعبي إلى البيت وحميد واقف على الباب، فقال للشعبي: ادخل عليه، فإنه في البيت وحده، قال الشعبي: إن أحب إلى أن تدخل معي، قال حميد: فدخلنا، فإذا الحسن واقف قبالة القبلة، وهو يقول مخاطباً نفسه: يا ابن آدم لم تكن فكونت، وسألتَ فأُعطيت، وسُئلتَ فمنعتَ، فبئس ما صنعتَ، ثم يذهب ويجيء وهو يردد هذه الكلمات، ولم يشعر بوجود الشعبي وحميد، ولم يلتفت إليهما، فقال الشعبي لحميد: يا هذا انصرف بنا، فإن هذا الشيخ في غير ما نحن فيه.

كان الإمام أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي بن الحسين،

إذا ذكر عنده الحسن قال: الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء . . . ؟

ويصف خالد بن صفوان ـ وكان منطقياً وصافاً ـ الحسن، وقد سأله عنه مَسْلمة بن عبد الملك فقال له: يا خالد أخبرني عن حسن أهل البصرة؟ قال خالد بن صفوان: أصلح الله الأمير، أخبرك عنه بعلم، أنا جاره إلى جنبه، وجليسه في مجلسه، وأعلم مَنْ قِبَلي به: هو أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبههم قولاً بفعل، إن قعد على أمر قام به، وإن قام على أمر قعد عليه، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، رأيته مستغنياً عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه.

قال مسلمة بن عبد الملك: حسبك يا خالد!! كيف يضل قوم هذا فيهم؟ يقول الرواة والإخباريون من أهل الصدق والثقة: عاش الحسن ما عاش فلم ير ضاحكاً، لا يراه الناس إلا حزيناً، وما كان أحد أطول حزناً منه، وكان يقول: يحق لمن يعلم أن الموت مورده، وأن الساعة موعده، وأن القيام بين يدي الله مشهده أن يطول حزنه.

وكان رحمه الله يقول وهو يتمثل أحوال أصحاب رسول الله ﷺ في حياتهم التي عاشها وشهدها: نضحك ولا ندري لعل الله قد اطَّلع على بعض أعمالنا فقال: لا أقبل منكم شيئاً، ويحك يا ابن آدم!! هل لك بمحاربة الله طاقة؟ إنه من عصى الله فقد حاربه. ولقد أدركت سبعين بدرياً أكثر لباسهم الصوف، ولو رأيتموهم لقلتم مجانين، ولو رأوا خياركم لقالوا: ما لهؤلاء من خَلاَق، ولو رأوا شراركم لقالوا: ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب، ولقد رأيت أقواماً

كانت الدنيا أهون على أحدهم من التراب تحت قدميه، ولقد رأيت أقواماً يمسي أحدهم وما يجد عنده إلا قوتاً، فيقول: لا أجعل هذا كله في بطني، لأجعلن بعضه لله عز وجل، فيتصدق ببعضه، وإن كان هو أحوج ممن يتصدق به عليه.

قيل للحسن رحمه الله مرة: صف لنا أصحاب رسول الله ﷺ، فبكى، ثم قال: ظهرت منهم علامات الخير في السيماء والسمت، والهدى والصدق، وخشونة ملابسهم بالاقتصاد، وممشاهم بالتواضع، ومنطقهم بالعمل، ومطعمهم ومشربهم بالطيب من الرزق، وخضوعهم بالطاعة لربهم تعالى، واستقادتهم للحق فيما أحبوا وكرهوا، وإعطائهم الحق من أنفسهم. ظمئت هواجرهم، ونحلت أجسامهم، واستخفُّوا بسخط المخلوقين طلباً لرضى الخالق، لم يفرطوا في غضب، ولم يحيفوا في جَوْر، ولم يجاوزوا حكم الله تعالى في القرآن. شغلوا الألسن بالذكر، بذلوا دماءهم لله حين استنصرهم، وبذلوا أموالهم حين استقرضهم، حسنت أخلاقهم، وهانت مؤنتهم، وكفاهم اليسير من دنياهم لآخرتهم.

كان الحسن رحمه الله لا يدنو من الأمراء والولاة، ولا يأتي أبوابهم، وكان هؤلاء الأمراء والولاة يستنصحونه لما يعلمون من تجافيه عن الدنيا وإخلاصه دينه لله تعالى.

وقد كانت بينه وبين عمر بن عبد العزيز مودَّة ومكاتبات ومراسلات، تفيض نصحاً، وإخلاصاً وإرشاداً، فقد كتب الحسن إلى عمر لما استخلف: أما بعد فإن الدنيا دار مخيفة، إنما أُهبط آدم

من الجنة إليها عقوبة، واعلم أن صرعتها ليست كالصرعة، من أكرمها يهن، ولها في كل حين قتيل، فكن منها يا أمير المؤمنين كالمداوي جرحه، يصبر على شدة الدواء خيفة طول البلاء. والسلام.

يرسم الحسن صورة حية لأخلاق المؤمن يلتقط معالمها من أخلاق أصحاب رسول الله ﷺ فيقول: إن من أخلاق المؤمن قوة في دين، وإيماناً في يقين، وحلماً في علم، وعلماً في حلم، وتحملاً في فاقة، وقَصْداً في غنى، وإنصافاً في استقامة. لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم في مساعدة من يحب، لا يهمز ولا يلمز، ولا يلهو ولا يلعب، ولا يتبع ما ليس له، ولا يجحد الحق الذي عليه، ولا يتجاوز في العذر، ولا يشمت بفجيعة غيره. قوله شفاء، وصبره تقى، وسكوته فكرة، ونظره عبرة، يخالط العلماء ليتعلَّم. إن أحسن استبشر، وإن أساء استغفر، وإن عتب استعتب، وإن سُفِه عليه حَلِم، وإن ظلم صبر. وقور في المَلاَ، شكور في الخلا، قانع برزقه، حامد في الرخاء، صابر على البلاء، إن جلس مع الغافلين كتب من الذاكرين.

هكذا كان المسلمون من سلفكم الصالح، وإنما غيَّر بكم ما غيَّرتم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

كان عزوف الحسن عن الدنيا، وإعراضه عن المظاهر من أقوى أخلاقه التي جعلته لا يبالي بكلمة الحق في وجه من يدعوه دينه أن يجابهه بها، مهما كانت مرارتها، ومهما كانت مكانة من يقولها له،

ومهما كانت النتائج التي تترتب عليها .

أرسل إليه عمر بن هُبَيرة لما ولى العراق من قبل يزيد بن عبد الملك ، وأرسل إلى الشَّعْبي معه ، وأمر لهما ببيت يعد لراحتهما ، فنزلا فيه ، وأقاما شهراً ، ثم جاءهما ابن هبيرة يتوكأ على عصا ، فسلم عليهما معظِّماً لهما ، ثم قال لهما : إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك ينفذ إلي كتباً أعرف أن في إنفاذها الهلكة ، فإن أطعته عصيت الله ، وإن عصيته أطعت الله عز وجل ، فهل تريا لي في مبايعته فرجاً . . . ؟

فقال الحسن للشعبي : يا أبا عمرو أجب الأمير ، فتكلم الشعبي فانحط في حبل ابن هبيرة ، فقال ابن هبيرة : ما تقول أنت يا أبا سعيد؟

فقال الحسن : أيها الأمير ، قد قال الشعبي ما سمعت ، فقال ابن هبيرة : ما تقول أنت يا أبا سعيد؟ فقال الحسن : أقول : يا عمر ابن هبيرة ، يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى ، فظ غليظ ، لا يعصي الله ما أمره ، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك . يا عمر بن هبيرة ، إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك ، ولا يعصمك يزيد بن عبد الملك من الله عز وجل . يا عمر بن هبيرة ، لا تأمن من أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك نظرة مقت ، فيغلق بها باب المغفرة دونك . يا عمر بن هبيرة ، لقد أدركت ناساً من صدر هذه الأمة كانوا والله على الدنيا وهي مقبلة أشد إدباراً من إقبالكم عليها وهي مدبرة . يا عمر بن هبيرة ، إني أخوفك مقاماً خوفكه الله ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ .

يا عمر بن هبيرة، إن تك مع الله تعالى في طاعته كفاك بائقة يزيد بن عبد الملك، وإن تك مع يزيد بن عبد الملك على معاصي الله وكلك الله إليه.

فبكى عمر بن هبيرة، وقام عنهما بعَبْرته، فلما كان الغد أرسل إليهما بإذنهما وجوائزهما وكثر منه ما كان للحسن، وكان في جائزته للشعبي بعض الإقتار، فخرج الشعبي إلى المسجد فقال: يا أيها الناس من استطاع منكم أن يُؤْثر الله تعالى على خَلْقه فليفعل، فوالذي نفسي بيده ما علم الحسن منه شيئاً فجهلته، ولكني أردت وجه ابن هبيرة فأقصاني الله منه. ثم قال الشعبي: سفسفنا فسُفْسِف لنا.

وكان الحسن من ألزم الناس للمسجد، يدرّس ويعلم ويعظ، وإذا سئل في درسه أجاب بما يعلم أنه الحق، وكان منافقو السياسة يتتبعونه في دروسه، ويدفعون إليه بالسائلين، يسألونه في الفتنة، ورأيه فيها، وللحسن رأي في ذلك وقف عنده، فلم يك مع الثائرين بالسلاح في وجه الولاة الظَّلَمة، ولم يك مع هؤلاء الولاة يبرِّر ظلمهم ويدافع عنهم خشية سطوتهم، ولكنه اعتزل السياسة، وشغل بالعلم، فإذا جاءته السياسة تمشي على ألسنة المنافقين جبهها بكلمة الحق، لا يبالي على من وقعت، ولا من أصابت.

سأله رجل على مسمع من جماعة أهل الشام، وهم حضائن الدولة المروانية، فقال: يا أبا سعيد، ما تقول في الفتن، مثل فتنة يزيد بن المهلَّب، وابن الأشعث، وكانا ممن خرج بالسلاح على المروانيين، فقال الحسن في صراحة الحق الذي يعتقده: لا تكن مع

هـؤلاء ولا مـع هـؤلاء، فقـال الرجـل: ولا مـع أميـر المؤمنيـن يـا أبا سعيد. . . ؟

وهذا القائل لعله أراد إحراج الحسن، أو كان مدسوساً عليه، فغضب الحسن لهذا النفاق السياسي، ثم حرك يده حركات تعجبية، تشعر القائل والسامعين أن الحسن أدرك الهدف الخبيث الذي يرمي إليه هذا القائل، ثم قال: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد؟ نعم، ولا مع أمير المؤمنين.

وكان الحسن رحمه الله لا يرى الخروج والثورة على الولاة والأمراء الظَّلَمة الذين استقر لهم الحكم في الدولة، ويقول: إنما هم نِقْمة، فلا تقابلوا نقمة الله بالسيف، وكان يوصي بالصبر حتى تنفرج الغمة.

ولم يكن الحسـن بعيداً عن بطش الحجاج، ولكن الله تعالى حفظه منه. فلم تلحقه يده، يقول الإمام أيوب السختياني: إن الحجاج أراد قتل الحسن وعزم عليه مراراً، فعصمه الله منه، ويقول ميمون بن مهران: بعث الحجاج مرة إلى الحسن وقد هم أن يبطش به، فلما قام الحسن بين يدي الحجاج، قال له: يا حجاج كم بينك وبين آدم من أب؟ قال: كثير، قال: فأين هم؟ قال: ماتوا، ثم نكس الحجاج رأسه، وخرج الحسن لم يمسسه منه سوء.

وقد تولى الحسن القضاء حسبة، لم يأخذ عليه أجراً، ولكنه لم يلبث فيه طويلاً، لأنه رأى أن منصب القضاء يحتاج إلى تفرغ يبعده عن جمهور الشعب، وكان المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت أحوج

إلى سماع صوت الحسن في دروسه ومواعظه وتوجيهاته منه إلى أحكامه القضائية، لأن مكانه في القضاء لا يعدم من يقوم فيه مقامه، ولكن مكانه في حلقات الدرس والتوجيه والإرشاد لا يسدُّ فيه مسدَّه أحد.

ولما اعتزل القضاء ألحَّ على عَصْريِّه وقرينه الألمعي، ذي الفراسة الصادقة إياس بن معاوية أن يتولى القضاء خَلَفاً عنه، لأنه - في رأي الحسن - أصلح من يكون له علماً وذكاء وفضلاً.

وتفرغ الحسن للدراسة، يدرس الحديث والسنة رواية ودراية، وكان كثير المراسيل، يرويها لثقته وثقة الناس به، فإذا سئل عمن روى ذلك أجاب.

ذكر ابن سعد في الطبقات أن الحسن قال في مجلسه: كان موسى نبي الله ﷺ لا يغتسل إلا مستتراً، فقال له عبد الله بن بريدة: يا أبا سعيد، ممن سمعت هذا؟ فقال: سمعته من أبي هريرة.

والمحدِّثون ونَقَدة الرجال لم يجعلوا مراسيل الحسن في ميزان مع مراسيل سعيد بن المسيب ورجَّحوا عليها مراسيل سعيد.

وكان الحسن قواماً بتفسير القرآن الكريم رواية عن الصحابة، ودراية مستنبطة برأيه وعلمه وفهمه، يروي عنه أبو جعفر الطبري وسائر المفسرين القدامى، ممن اقتصروا على تفسير القرآن بالمنقول.

ومما روي عنه من تفسير الفهم والدراية تفسيره لآيات خواتيم سورة الفرقان التي تصف عباد الرحمن، قال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾، والهون في كلام العرب اللين والسكينة

والوقار ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا ﴾ حلماء لا يجهلون، وإن جُهل عليهم حلموا، يصاحبون عباد الله نهارهم ما يسمعون، ثم ذكر ليلهم خير ليل فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴾ ينتصبون لله على أقدامهم، ويفترشون وجوههم سجداً لربهم، تجري دموعهم على خدودهم فَرَقاً من ربهم، لأمر ما سهروا ليلهم، ولأمر ما خشعوا نهارهم ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾.

وكل شيء يصيب ابن آدم ثم يزول عنه فليس بغرام، إنما الغرام اللازم له ما دامت السموات والأرض، صدق القوم والله الذي لا إله إلا هو، فعملوا، وأنتم تتمنون، فإياكم وهذه الأماني رحمكم الله، فإن الله لم يعط عبداً بأمنيته خيراً في الدنيا والآخرة.

وكان عصر الحسن رحمه الله مستنبتاً لبذور الفرق الإسلامية، التي بدأت جذورها في أرض الإسلام تنفلق عن أغصان التفرق في بعض نواحي العقيدة، وفي كثير من مسائل الفروع، فقد ظهر أوائل الشيعة بعقيدتهم في الإمامة، وربطوها بالإيمان، وظهرت معهم طلائع الخوارج بمقالاتهم التي كفروا بها سائر طوائف المسلمين، وقد أشجَوا الدولة بحروبهم، وكانوا شَجًا في حَلْق الخلافة العلوية، حتى انتهت بقتلهم أمير المؤمنين علياً بن أبي طالب، رضي الله عنه، ثم تحولوا إلى حروب مدمرة مع الأمويين.

وكان الحسن رحمه الله على علم بمقالات هؤلاء وهؤلاء، ولكنه لم يكن يعرض لها بجدل إلا إذا سئل فإنه يجيب بحجته وعلمه

الذي ينبثق من الكتاب والسنة . . .

وقد جرى في مجلسه الكلام عن مرتكب الكبيرة، هل هو مؤمن أو غير مؤمن، فقرر الحسن أنه مؤمن فاسق، غير مخلَّد في النار، وابتدر لمخالفته تلميذه واصل بن عطاء، وقرر أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين منزلتي الإيمان والكفر، فلا هو مؤمن، ولا هو كافر، وهو مخلَّد في النار، وهذه المقالة في حقيقتها عين مقالة الخوارج الذين قالوا بكفر مرتكب الكبيرة والاختلاف بين المقالتين لفظي، لأن الخلود في النار لا يكون جزاء إلا على الكفر، ولكن واصلاً جبن عن إطلاق لفظ الكفر كما أطلقه الخوارج، واعتزل واصل حَلْقة أستاذه، وعقد لنفسه حلقة، وتبعه عمرو بن عبيد وآخرون، فقال الحسن: اعتزلنا واصل، ومن ثَمَّ جاء اسم المعتزلة على أصحاب واصل ومن نحا نحوهم.

دخل رجل المسجد على حلقة الحسن، فقال له: «يا إمام الدين، لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفّرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفر، يخرج به من الملة، وهم وعيدية الخوارج، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان، ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طامة، وهم مرجئة الأمة، فكيف نحكم لنا في ذلك اعتقاداً» فتفكر الحسن في الأمر، وابتدر واصل الجواب قبله فقال: أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق، ولا بكافر مطلق، بل هو في منزلة بين المنزلتين، ولا مؤمن ولا كافر.

ويرى بعض الباحثين من القدامى أن مذهب الحسن كان معروفاً مشهوراً، وإنما أسرع واصل بإجابته على سؤال السائل وهو غير موجه إليه ليرد على مذهب الحسن، ويقرر له مذهباً في المسألة.

ولقد كان لمكانة الحسن العلمية ومقامه في الأمة أثر بعيد المدى في ادّعاء الفرق له، وانتمائهم إليه؛ فالشيعة يحسبونه من أئمتهم، والمعتزلة يعتدون به أشد الاعتداد، وينظمونه في سِلْكهم، والخوارج لا يتورعون عن ضمه إلى صفوفهم، والصوفية ينتهون بأسانيدهم إليه، وأهل السنة والحديث يعدّونه رأسهم.

وإذا كانت هذه صورة موجزة لهذه الشخصية العظيمة في الإسلام. فحسبها أنها رسمت خطوطها العريضة في إطار الحقائق التاريخية التي توضح أن الحسن البصري كان أكبر شخصية معبرة عن حياة عصره، وأعظم داعية من دعاة الإسلام بعد أصحاب رسول الله ﷺ.

* * *

الإمام ابن تيمية

ليس هذا الحديث ترجمة لابن تيمية رحمه الله لأن ترجمة شخصية تاريخية مثل شخصية هذا العلم العليم، عبقري دهره، ونسيج وحده، تستدعي كتاباً جامعاً، يحلل ويستشهد، ويوازن بين أحداث الشخصية ليحكم بعد أن ينقد، ويجمع النظير إلى نظيره ليستنتج، ودون ذلك مئات الصفحات تنفد ولا ينفد الحديث عن معالم هذه الشخصية التي فتح لها التاريخ صدره فاستقرت منه في قرار من الخلود مكين.

وإنما هو حديث عن جانب من جوانب شخصية هذا الإمام الذي جدَّد الله به لهذه الأمة أمر دينها، بعد أن فقد المسلمون معالم الطريق لهدايته في غمرة من المحن، وصيِّب من البلاء، والذي نهض بعبء الإصلاح في الأمة الإسلامية، وبعث الله به الفكر الإسلامي بعد الجمود، وأيقظ به الحياة بعد الركود.

ذلك الجانب هو جانب الدعوة إلى الله تعالى، فهذا الحديث يقصد إلى تصوير شخصية ابن تيمية بوصفه نموذجاً حياً للدعاة في عصور الركود الفكري والجمود الديني، وفي هذا الجانب نجد في

ابن تيمية شخصية عريضة المعالم، عميقة الغور، صنعها الله على عين الإسلام في بدئه غريباً، وفي قوته مؤيداً رهيباً، وفي سماحته رغيباً أريباً، وفي عدله حكيماً لبيباً، وفي رحمته مواسياً حبيباً، وفي آدابه وشرائعه معلماً نجيباً.

جاء ابن تيمية إلى الحياة على فترة من المصلحين في تاريخ الإسلام، كان المجتمع الإسلامي فيها قد وصل إلى صورة يعجز القلم عن تصوير ما كان يغمر هذا المجتمع من الانحلال الاجتماعي، والتحلل السياسي، والتفتت المذهبي، مجتمع مزقه الهوى، ومزقه الترف البطين، واستولت على سياسته قيادات حاكمة عاشت لشهواتها الداعرة في ظل من الجهالة الجاهلة، واستحوذ عليه البلاء من كل جانب، وصبت عليه المحن القواصم صباً، وأحاطت به الرزايا العواصف، فعصفت بمقوماته حتى أفقدته الإحساس بالمقاومة، فهو يبصر ولا يعي، ويسمع ولا يفقه، ويساق فلا يدري.

تألبت عليه الصليبية الحاقدة في تعصب مسعور، تريد أن تستأصل شأفته من الأرض، وتكالبت عليه معها وحشية التتار في جنون مجنون، تعب من دماء البشر فلا تشبع، وتخرِّب كل عامر فلا تقنع، وتدمِّر كل قائم فلا تهدأ. تشرد الآمنين، وتطارد الهاربين، وتفتك بالزَّمْنَى والعاجزين، لا يصدها عن غيها دين، ولا يردعها عن كفرها وضلالها ضمير، ولا يردها عن طغيانها رحمة، ولا توقف عتوها مروءة. فهي لعنة الله على أهل الأرض، ونقمته بالمسلمين، وبطشه بمن نام منهم عن رعيته فتولى رعيها الذئاب تنهش ما تبقى في

أشباحها من بقايا الحياة، ولا تزال أسواء هاتين النكبتين العاصفتين بفضائل الإسلام في مجتمعه تلازم هذا المجتمع وتفتك به، ولا يزال هذا المجتمع في أشد الحاجة إلى من يقوده ويوجهه من نماذج الدعاة المصطفين للقيام بالدعوة إلى الله بإيمانهم وعلمهم وصادق إخلاصهم.

فالصليبية الحاقدة لا تزال تشن على الإسلام والمسلمين حرباً شعواء في صور وألوان مختلفة، من أقساها وأمرها وأشدها فتكاً بخصائص المجتمع الإسلامي، هذه الحرب الفكرية الإلحادية التحللية التي وَجَّهت وتوجه الفكر الإسلامي وجهات بعيدة كل البعد عن معالم دينه، وصرفته عن منابعه الأصيلة وأصوله التي أنزله الله عليها، فأخرج بها الناس من الظلمات إلى النور، والتي وضع الله بها في يد الأمة الإسلامية أزمّة القيادة الإنسانية منذ أهاب بها ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ فاستجابت متصدرة محافل العلم والمعرفة، حاملة لواء القيادة للحياة سلطاناً وعلماً وخلقاً، مما أوغر صدور أعدائها حقداً، فتربصوا بها حتى عَشَت عن طريق إسلامها وضلَّت طريقه في الهداية والدعوة إلى الله، وخلعت عن جيدها قلائد فضائله، فوثبوا عليها وثبة المجنون ينطلق من وراء أسوار الظلام، فلا يصادفه في طريقه شيء إلا أتى عليه تحطيماً.

وهذا الحقد الصليبي الأسود الذي أدرك الإمام ابن تيمية آثار أعاصيره الدامية لم يكتف بإثارة العصبية العمياء في إشعال نيران الحروب المدمرة، وتأليب النصرانية الكافرة بنعمة الإسلام

والمسلمين عليها يوم أن عاشت في ظله آمنة مطمئنة في الشرق والغرب، ولكنه أثار في ظل تكتلاته المسعورة بجميع مذاهبه وطوائفه حرباً من الأكاذيب الفكرية، توهَّم موقدوها من قِسِّيسهم ورهبانهم كما يتوهم مستشرقوهم اليوم أنهم يستطيعون ـ وحزوبهم المدمرة تحميهم ـ أن ينالوا من الإسلام في عقائده وتشريعاته نيلاً، ولكن الله تعالى كان لهم بالمرصاد فسلط عليهم سيف ابن تيمية العلمي، فنهض بقلمه ولسانه إلى رقاب شبههم يجزها بحجته، حتى تركها بين أيديهم كالرميم، ورماهم بباقعة الدهر في كتابه العظيم (الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح) الذي لم يؤلف في موضوعه مثله، بيَّن فيه أغاليط النصرانية الكافرة المبدَّلة المحرَّفة، وكشف سوءات الحقد الصليبي فيما زعموه ديناً وفلسفة، وقد حفظ الله للإسلام والمسلمين هذا الكتاب القيم ليكون مادة علمية تمد كل مسلم بأصدق البراهين على حقائق الإسلام، ديناً سماوياً خالداً، وشريعة إلـٰهية نسخ الله بها جميع الشرائع قبلها، وختم بها وحيه إلى الناس كافة، وسيظل هذا الكتاب شَجَاً في حلق الاستشراق والتبشير يغصان به، كاشفاً عن أباطيلهما، مضيئاً للناس في طريق الدعوة إلى الله.

ولئن خدع متزعمو المسلمين في أوطان الإسلام شرقاً وغرباً بأكاذيب النفاق السياسي، فتوهَّموا أو وُهِّموا أن هذه الحروب التي تشنها الصليبية الحاقدة اليوم بكل قواها وبكل صورها وأشكالها الظاهرة والخفية هي حروب سياسية جديدة لا تتصل بمطالع تلك الحروب الدينية الحاقدة المدمرة ـ فلن يُخْدَعَ الواقع الإسلامي أمام

الحقائق التي تُلظِّي هذه الحروب، وتلوِّنها مرة في صورة علم وبحث استشراقي خبيث، يضع للمسلمين السم في الشَّهْد، ومرة أخرى في صورة تبشير دعائي آثم كفور، يفتك بالعقائد والأخلاق، ومرة ثالثة في صورة أوضاع حضارية إباحية لا تقيم وزناً للقيم الأخلاقية والفضائل الإنسانية، ليخدعوا بها غرائز الشباب الفوارة لتنهار أمام عينيه حصون الفضائل، ومرة رابعة في صورة فلسفة إلحادية منحلَّة متحلِّلة تدعو إلى الدعارة الوجودية والإباحية الفاجرة، لتحطم مقدسات الأديان وأصول الشرائع الإلهية.

أما نكبة الوحشية التتارية فلا تزال رواسبها التي انحدرت وراثة في مواليد الأجيال تكمن في مكامن الحياة من نفوس العالم الإسلامي الذي اصطلى بنار تلك النكبة المسعورة في جنونها، فولدت فيه الرعب والخوف من كل حركة. يستشعرها حوله، لا يبالي أن تكون له أو عليه حتى أصبح كأنما هو المعني بوصف الجُذُوع الخاوية من أشباح المنافقين ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾، فإذا هو مجتمع متهافت، فقد كل مقومات المقاومة للدفاع عن نفسه، ودينه ووطنه، ومقدساته في الداخل والخارج، نتيجة لما أصيب به على أيدي وارثي وحشية التتار المغوليين من الملاحدة الشيوعيين الذين أفنوا ملايين المسلمين في أوطان إسلامية، كانت أنضر رياض الإسلام، بما كان فيها من شموس أعلام العلماء، حتى أصبحت - من شدة الهلع - كلمة (الإسلام) غريبة في منطق المتزعمين على أمم الإسلام، لا تكاد تجد لها مكاناً في أحاديثهم وخطبهم، وإذا ألجئوا إليها إلجاء لظرف قاهر، خرجت مهزوزة، مريضة، كأنما

تعاني بها ألسنتهم سكرات الموت، وإذا اضطروا لمناسبة تتملق الجماهير إلى ذكر النبي ﷺ ذكروه كما يذكره من لم ينشأ نشأة إسلامية أصيلة، فيقولوا: «النبي محمد» أو «محمد النبي» هكذا بهذا التعبير الغريب عن شعائر المسلمين.

من هذا التصوير الموجز لفداحة ما أصاب المجتمع الإسلامي في حياته الدينية، والفكرية، والاجتماعية، يوم أن نهد فيه الإمام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم المشهور بابن تيمية، داعية إلى الله تعالى في عصره، مصلحاً ما أفسده الجمود الفكري والضعف الاجتماعي، نستطيع أن نتعرف على المعالم الأصلية التي جعلت من هذا الإمام نموذجاً لأفضل الدعاة إلى الله تعالى في عصره والأعصر التي توالت بعده.

ومعالم الداعية إلى الله تعالى هي التي تهمنا في دراسة شخصية ابن تيمية، وقد اخترناه نموذجاً للدعاة الإصلاحيين في عصور الركود الفكري، وأما ما وراء ذلك من معالم عامة أو خاصة لشخصية هذا الإمام، فقد أشرنا إلى أنها أوسع وأعمق من أن يحاط بها في صفحات دراسية معدودة في زمن محدود.

والإمام ابن تيمية كان حظياً جدَّ الحظوة في سجل التاريخ، فقد كتب عنه الكثير بين كتب مطولة تترجمه، وبحوث موجزة تتحدث عنه، ومقالات وفصول تبين بعض فضائله، وتعليقات على فتاويه ورسائله، تشيد بعلمه، بيد أنه عاش عمره يتغلب على سراديب المحن ومضايق البلايا وهو صابر، لا يستلين لأحدٍ ناله بأذى،

ولا تلين قناته أمام صولة باطل، مهما أزبدَ وأرْعَد، قوَّال بالحق في غير تكلف ولا مصانعة، لا يصده عن الجهر به في وجه مَنْ كان وَعْدٌ أو وعيد، ولا يقعده عن إظهار معتقده وآرائه ترغيب أو ترهيب، زهد الدنيا فتحرر من ربقتها، كان إيمانه بالله مصدر قوته يناضل عن الحق، مهما لقي في طريقه من مصاعب وعقبات، والناس فيه بين محب أفرط فبالغ وتجاوز المدى، وشانئ أعمته البغضاء عن رؤية الحق.

ولو حكم الناس على الناس والأحداث بعلم ومعرفة ومعدلة لاستقامت بين أيديهم موازين الحق والعدل في تقدير الرجال، ووضعهم من الحياة في مكانهم الصحيح مع أحداث التاريخ، ولاسيما حياة الإسلام والمسلمين، فهي حياة ولود، ودود، لاتعرف العقم في ولادة الأكملين في خصائص الإنسانية الفاضلة، ولا ترضى بالظلم في غمط الفاضلين، فهي حياة مخصبة عادلة، والله تعالى وضع الميزان للناس في كتابه العزيز فقال عز شأنه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾، وقال تبارك وتعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ ﴾.

وللإمام ابن تيمية نسب روحي عريق في المحن والصبر على لأوائها، فهو وليد أسرة علمية تتمذهب بمذهب الإمام قدوة الصابرين في الإسلام على محن البلاء أحمد بن حنبل رضي الله عنه، فكأنما كان مهد ابن تيمية في أحضان هذه الأسرة إرهاصاً لما كان ينتظره في حياته

مسطوراً في لوح الغيب من الابتلاء بما ابتلي به في سبيل آرائه العلمية، فلا بد أن يكون ابن تيمية قد فتح عينيه، وأرهف أذنيه وأصغى بقلبه وعقله إلى ما تتناقله أسـرته وترويه من حيـاة إمامها أحمد بن حنبل معجبـة به، فخورة بصبره وثباتـه لتثبيت الحق في قلوب المؤمنين، ولا بد أنه قرأ عن محنة إمامه وعرف مصادرها ومواردها ونهاياتها، ومن كان فيها ولياً للشيطان يوقد نارها، ومن كان فيها ولياً للرحمن يطفئ بصبره أُوارها، ومن كعّ وتوارى وراء التورية والتعريض، ومن تخاذل فهرب من ميدان الجهاد في الله، ومن تلقَّى نَبْلها من قوس باطلها فرده في نحر أعداء الحق، فاختار ولا خيرة لمثله في هذا المقام، لأنه لمَّاح توَّاق لتسنُّم ذُرَى معالي مراتب الإيمان، ولو كانت بين أشواك المحن والبلاء، وإنها لكذلك في واقعها، ولا بد أنه سأل نفسه، هل كانت هذه المحنة، محنة العقيدة في صورة القول بخلق القرآن أُولى وآخـر البلايا والمحن في تاريخ الإسـلام؟ وهل كان إمامه، الإمام أحمد بن حنبل أول وآخر مبتلى صبَّار في أحداث الإسلام؟ ولا بد أنه أجاب نفسه عن هذه التساؤلات وتمثلت أمام عينيه مواقف من المحن والرزايـا منذ كانت دعوة الإسـلام، وكان دعاتها الذين خاضوا في سبيلها لجج البلاء والمحن صابرين مصابرين حتى أقاموا منائر الحق تضيء للسالكين طريق الدعوة إلى الله.

وإذا كان الصحابـة رضوان الله عليهم فوق مسـتوى من جـاء بعدهم، فلا يلحقهم في صبرهم على البلاء من يحاول اللحاق بهم، لما كان لهم من خصيصة التربية النبوية، ففي تلاميذهم من التابعين وتابعيهم نماذج وشـواهد، وأي إمام سـادت آفاق الأرض سـمعته

وسيرته وطوَّف في الأرجاء علمه وفضله لم يمتحن بقواصم البلايا على أيدي الظالمين؟! سعيد بن المسيب، سعيد بن جبير، مالك بن أنس، أبو حنيفة، سفيان الثوري، البويطي، وغيرهم وغيرهم ممن لا يحصيهم العد، فليكن ابن تيمية سليل هذا الرعيل في نسب الروح والإيمان وصلابة العزيمة، وليعمل كما عملوا، وليصبر كما صبروا، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون.

وأول معالم الداعية وأعظمها في شخصية ابن تيمية التي جعلته نموذجاً يحتذى، وقدوة به يقتدى، سعة معارفه في جميع فنون المعارف التي كانت معروفة في عصره، وكان كثير منها قد استوى في ذروته ونضجت مباديه وأصوله، فقرأها وهضمها، ونقدها وزيَّف الباطل منها، وانتفع بما فيها من حق وخير.

ولقد صادف ذلك عنده تبحره في علوم الإسلام والعربية بما لم يعرفه التاريخ العلمي في الإسلام لفرد غيره منذ أن قام بنهضته الإصلاحية داعياً إلى الله، مبلِّغاً رسالة الإسلام كما فهمها من الكتاب والسنة وأقاويل الصحابة والتابعين، وقد اعترف بفضله وقوته في العلوم والمعارف الفطاحل من معاصريه الذين كان لهم في مجال الفكر الإسلامي القَدَح المعلَّى، والذين تعتبر شهادتهم مفخرة في حياة هذا الإمام الداعية المجاهد.

يقول فيه الإمام ابن دقيق العيد ـ وكان قد اجتمع به وسئل عنه ـ: «رأيت رجلاً جمع العلوم كلها بين عينيه، يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريد».

ويقول عنه ابن سيد الناس: «كان يستوعب السنن والآثار حفظاً، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر في الحديث فهو صاحب علمه ودرايته، أو حاضر بالملل والنحل لم تر أوسع من نحلته في ذلك ولا أرفع من دلالته، برز في كل علم على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه».

ويقول فيه الإمام الزملكاني: «كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه من قبل، ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه، ولا تكلم في علم من العلوم سواء أكان من علوم الشرع أم غيرها إلا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه».

نشأ ابن تيمية في بيئة علمية بأوسع ما تعطى هذه الكلمة من معنى، فبيئته الخاصة، بيته وأسرته، أبوه وجده، من أساطين العلماء في عصرهم، اشتهر جده في علم الحديث، وفي فقه السنة وأصول الفقه وكان مرجعاً للفتوى فيها، وحسبه كتابه (المنتقى) في الحديث وفقهه، والذي شرحه الشوكاني في كتابه (نيل الأوطار)، واشتهر أبوه بالتدريس في مدارس الإسلام ببلده وفي دمشق التي رحلت الأسرة إليها أمام هجمات الوحشية التتارية حتى بلغ مرتبة مشيخة الحديث في مدارسه، وجَدَّته ذُكرت في التاريخ بأنها واعظة تجلس مجالس الوعظ والتعليم، وأمه يكتب إليها من مصر وهو في محنته رسائل

لا يكتبها إلا لمن كانت على جانب من المعرفة بما يجري في الدين والدنيا.

وبلده التي ولد ونهد فيها فكانت حاضنة طفوليته (حرَّان) وطن الفلسفة ومهد الصابئة وهي نحلة فلسفية وملَّة فلكية، ودمشق مهاجره ومهاجر أسرته العالمة كانت في عصره مَعْلَمة الدنيا بما تعج به من مدارس إسلامية للحديث والتفسير وفقه المذاهب يقوم بالتدريس فيها أعلام العلماء وأئمة الحديث والتفسير وعلم الكلام، وفنون العربية وآدابها، والفقه وفروعه، وعلوم الفلسفة وطوائف الملل والنحل، وزعماء الفرق الإسلامية وغيرها.

ففي هذه البيئة الخاصة والعامة نشأ الإمام ابن تيمية، يزينه عقل جمع الله له في المعارف قوى الفكر الإنساني، حفظاً وإدراكاً، ووعياً، فالتاريخ يضعه مع طليعة الأفذاذ الذين يضرب بهم المثل في الألمعية والذكاء المتفوق، وفي الحفظ الضابط، والذاكرة الواعية، الذين لا تغلِّطهم الأغاليط، ويقول عنه معاصروه: إنه ما حفظ شيئاً ونسيه، ولا نظر في مكتوب قل أو كثر إلا وحفظه، ولا سمع من العلم والمعارف شيئاً غاب عنه بعد أن علمه.

فإذا قرأنا عن مالك بن أنس إمام دار الهجرة أنه كان يسمع من شيخه إمام المحدثين ابن شهاب الزهري من الثلاثين إلى الأربعين حديثاً في مجلس واحد، فيحفظها لا يخرم منها حرفاً إذا تلاها، وقد ذكر الرواة أنه سمع مرة هذا القدر وفيه حديث السقيفة على اتساعه وطوله وتنوع الكلام فيه، فأعادها كلها لم تندَّ عنه منها كلمة، وإذا

قرأنا عن الإمام أبي عبد الله الشافعي أنه سمع من شيخه مالك بن أنس بضعة عشر حديثاً في مجلس واحد، فأعادها حفظاً بأسانيدها لم يختلف فيها عن سماعه من الإمام في كلمة أو حرف، إلى كثير ممن أوتوا في الإسلام حوافظ ضابطة ومدارك واعية ـ فإن ما أثر عن ابن تيمية منذ طفولته ـ وهو الرجل المخاصَم الذي يتربص به خصومه ليأخذوا عليه شيئاً يعيبونه به ـ لَيَضعه في الذروة مع أولئك الغر البهاليل من أئمة الإسلام، دون نكير.

يقول صاحب العقود الدرية في ترجمة ابن تيمية: «اتفق أن بعض مشايخ العلماء بحلب قدم إلى دمشق، وقال: سمعت في البلاد بصبي يقال له أحمد ابن تيمية. وأنه سريع الحفظ، وقد جئت قاصداً لعلي أراه، فقال له رجل خياط، هذه طريق كتّابه، وهو إلى الآن ما جاء، فاقعد عندنا الساعة يجيء... فجلس الشيخ الجليل قليلاً، فمر صبيان. فقال الخياط للشيخ الحلبي: هذا الصبي الذي معه اللوح الكبير هو أحمد بن تيمية، فناداه الشيخ فجاء إليه، فتناول الشيخ اللوح، فنظر فيه، ثم قال: يا ولدي إمسح هذا حتى أملي عليك شيئاً تكتبه ففعل، فأملى عليه من متون الأحاديث أحد عشر أو ثلاثة عشر حديثاً، فقال: اقرأ هذا، فلم يزد على أن تأمله مرة بعد كتابته إياه، ثم رفعه إليه وقال اسمعه، فقرأه عليه عرضاً كأحسن ما أنت سامع، فقال: يا ولدي امسح هذا ففعل، فأملى عليه عدة أسانيد انتخبها، ثم قال اقرأ هذا، ففعل فيه كما فعل أول مرة، فقام الشيخ وهو يقول: إن عاش هذا الصبي ليكونن له شأن عظيم، فإن هذا لم ير مثله».

وكانت مراجع العلوم والمعارف رجالاً وكتباً بين يديه، يغترف منها اغترافاً، وينهل من معينها عذباً زلالاً، فشيوخه أرْبَوا على المئة من الفطاحل البهاليل في كل علم وفنٍ، ومراجعه من الكتب تدل على كثرتها كثرةً لاتدخل تحت حصر نُقُوله منها ـ وهو الصادق المخاصَم ـ في فتاويه وكتبه، ولم يعرف ـ على كثرة خصمائه ـ أنه اتهم في نَقْل نَقَلِه، بل إن أصدقاءه بالغوا فيه وقالوا في علمه بالحديث: إن كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فهو ليس بحديث. ولم يعارض خصومه هذا القول ولا اتهموا قائليه.

ونشأة ابن تيمية ليست فيها غرائب ولا عجائب، فهي نشأة طبيعية، بيد أنها نشأته هو لا نشأة كل طفل وشاب ورجل، نشأته في بيئته وخصائصه العقلية وصفاته النفسية، فهي نشأة طفل حفظ القرآن الكريم في بيته منذ حداثة سنه، تقول بعض الروايات أنه أكمل حفظ القرآن في سن السابعة من عمره، واستبقى الله له هذه النعمة، فلم يكن شيء أيسر عليه في حجاجه وفتاويه وكتبه من سَوق الآيات القرآنية لمواضعها من الاستدلال بها في مناسباتها.

وكان من الطبيعي في مثل بيئة ابن تيمية أنه بعد أن حفظ القرآن يتجه إلى علم الحديث والفقه ووسائلهما من اللغة والأدب، فحبب إليه علم الحديث، وجعله كما هو في أصول الإسلام ثاني اثنين، القرآن والسنة، فبرع فيه وأحاط حفظاً بالكتب الستة المعتبرة أصولاً عند الأمة، وأضاف إليها موطأ مالك ومسند إمامه أحمد، والمستدرك للحاكم والمستخرجات وسنن الدارقطني وابن حبان والبيهقي

ومعاجم الطبراني ومسند الدارمي وغيرها من كتب الرواية والمسانيد، وكان يورد أحاديث هذه الكتب كلها إملاء ويسند إليها دون رجوع إلى أصولها، فتأتي من صحة النقل وجودة الحفظ كأنما هي منقولة نقلاً حرفياً من كتبها، وكان إلى جانب ذلك من أعرف الناس وأعلمهم بفقه الحديث يورد المسائل ويستدل عليها بالأحاديث كأنما جاءت هذه الأحاديث لهذه المسائل بعينها.

أما معرفته بالفقه الإسلامي فعجب من العجب، كان ضليعاً في معرفة فقه المذاهب الأربعة. حتى قيل إن علماء المذاهب كانوا يستفيدون منه مسائل في مذاهبهم لم يكونوا يعرفونها ولا اطلعوا عليها. فإذا اختبروا صدقه في هذه الغرائب التي يجيء بها إليهم من داخل بيوتهم وهم عنها غافلون وجدوه صدوقاً متحرياً، وكان إلى جانب ذلك عليماً بفقه الصحابة ومسائلهم التي تضمنتها المصنفات مثل مصنف عبد الرزاق وابن أبي شيبة وغيرهما، إلى ما كان يورده من فقه الأئمة الذين لم تدون مذاهبهم كالأوزاعي، والسفيانَيْن: الثوري وابن عيينة، والليث بن سعد، وزيد وجعفر، وأبي ثور، وداود وسواهم كثرة لا تحصى، يورد أحكام المسائل من مذاهبهم ويحتج لهم بما احتجوا به من الأدلة القرآنية والحديثية.

أما علمه بتفسير القرآن وأقاويل المفسرين من لدن الصحابة إلى عصره فأمر يدخل في دائرة الإكرام الإلـهي الذي لا يستقل به فرد من الأفراد، والنظر في تفسير ما فسره من آيات أو سور من القرآن الكريم يحقق ذلك ويصدقه، ويقول بعض مؤرخيه: أنه كتب في

التفسير نحو ثلاثين مجلداً، بعضها نقل لأقاويل السلف من الصحابة والتابعين مجرداً عن الاستدلال، وبعضها بيان لمعاني الآيات مستعيناً عليه بالمنقول إن كان عنده روايات من صحيح هذا المنقول، وهذا النوع الأخير هو الذي تظهر فيه براعة الإمام ابن تيمية وعمق نظره ونضج عقله.

وقد كتب إليه بعض تلاميذه وهو في سجنه الأخير ـ وكان الإمام قد عكف على مذاكرة القرآن والتفقه فيه وإثارة حقائقه ومعانيه ـ يطلب منه كتابة تفسير مرتب للقرآن كلِّه انتهازاً لفرصة خلوته في سجنه، فكتب إليه الإمام يقول: «إن القرآن منه ما هو بين بنفسه، وفيه ما قد بينه المفسرون في غير كتاب، لكن بعض الآيات أشكل تفسيرها على جماعة العلماء، فربما يطالع الإنسان فيها عدة كتب ولا يتبين له تفسيرها، وربما كتب المصنف الواحد في آية تفسيراً، ويفسر غيرها بنظيره، فقصدت تفسير تلك الآيات بالدليل، لأنه أهم من غيره، وإذا تبين معنى آية تبين معاني نظائرها . . . وقد فتح الله عليَّ في هذه المرة من معاني القرآن ومن أصول العلم بأشياء كان كثير من العلماء يتمنونها وندمت على ضياع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن».

وقد طبع من تفسيره الذي أمكن العثور عليه تفسير سورة النور، وسورة الإخلاص، وسورتي المعوذتين، وأُدرج له في الفتاوى كثير من تفسير الآيات، كما أُدرج له منها تفسير سورة الجن، وقد فسرها تفسيراً موجزاً، وله مقدمة التفسير صغيرة الحجم، عظيمة المعاني والنفع. وله رسالة في منهاج التفسير بيّن فيها الطريق إلى فهم القرآن.

ويظهر من تتبع سيرة الإمام ابن تيمية العلمية أن القرآن الكريم كان جماع علمه ومعارفه، وكان محوره الذي يدور عليه عقله متفقهاً، مستنبطاً، وقد يحسن بمن يحاول أن يجلِّي جانب الدعوة إلى الله في هذا الإمام أن يبيّن نهجه في تفسير القرآن ليكون نموذجاً يتجلَّى به طريقـه في فهم الكتاب الكريم الذي جعلـه مفتاح معارفـه العقليـة والنقلية.

وقد تخيرنا هذا النموذج مما ذكر في فتاويه استطراداً لتفسير قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ قال رحمه الله: «ولما سلط الله العدو على الصحابة يوم أحد قال: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ ﴾ الآية، وقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ الآيات ـ والأكثرون يقرأون قاتل، والرِّبيُّون الكثير عند جماهير السلف والخلف هم الجماعات الكثيرة، قال ابن مسعود وابن عباس في رواية عنه، والفرَّاء: ألوف كثيرة، وقال ابن عباس في أخرى ومجاهد وقتـادة: جماعـات كثيرة، وقرئ بالحركات الثلاث في الراء، فعلى هذه القراءة ـ أي قراءة (قاتل) ـ فالربيون الذين قاتلوا معه الذين ما وهنوا وما ضعفوا، وأما على قراءة أبي عمرو وغيره ـ أي قُتلِ ـ ففيها وجهان:

أحدهما: يوافق الأول، أي الربيون يقتلون فما وهنوا، أي ما وهن من بقي منهم لقتل كثير منهم، أي ما ضعفوا الذلك ولادخلهم خَوَر ولا ذلُّوا لعدوهم، بل قاموا بأمر الله في القتال حتى أدالهم الله عليهم وصارت كلمة الله هي العليا.

والثاني: أن النبي ﷺ قتل معه ربيون كثير فما وهن من بقي منهم لقتل النبي ﷺ، وهذا يناسب صرخ الشيطان أن محمداً قد قتل، لكن لا يناسب لفظ الآية، فالمناسب أنهم مع كثرة المصيبة ماوهنوا، ولو أريد: أن النبي قتل ومعه ناس لم يخافوا لم يحتج إلى تكثيرهم، بل تقليلهم هو المناسب لها، فإذا كثروا لم يكن في مدحهم بذلك عبرة. وأيضاً لم يكن فيه حجة على الصحابة، فإنهم يوم أحد قليلون، والعدو أضعافهم، فيقولون: ولم يهنوا لأنهم ألوف ونحن قليلون. وأيضاً فقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾ يقتضي كثرة ذلك، وهذا لا يعرف أن أنبياء كثيرين قتلوا في الجهاد. وأيضاً فيقتضي أن المقتولين مع كل واحد منهم ربيّون كثير، وهذا لم يوجد، فإن من قبل موسى من الأنبياء لم يكونوا يقاتلون، وموسى وأنبياء بني إسرائيل لم يقتلوا في الغزو، بل ولا يعرف نبي قتل في جهاد، فكيف يكون هذا كثيراً ويكون جيشه كثيراً؟.

والله تعالى أنكر على من ينقلب سواء كان النبي مقتولاً أو ميتاً فلم يذمهم إذا مات أو قتل على الخوف، بل على الانقلاب على الأعقاب، ولهذا تلاها الصدّيق رضي الله عنه بعد موته ﷺ فكأن لم يسمعوها قبل ذلك.

ثم ذكر بعدها معنى آخر وهو: أن من كان قبلكم كانوا يقاتلون فيقتل منهم خلق كثير وهم لا يهنون، فيكون ذكر الكثرة مناسباً لأن من قتل مع الأنبياء كثير، وقتل الكثير من الجيش يقتضي الوهن، فما وهنوا وإن كانوا كثيرين، ولو وهنوا دل على ضعف إيمانهم، ولم

يقل هنا: ولم ينقلبوا على أعقابهم، فلو كان المراد أن نبيهم قتل لقال فانقلبوا على أعقابهم، لأنه هو الذي أنكره إذا مات النبي أو قتل فأنكر سبحانه شيئين: الارتداد إذا مات أو قُتل، والوهن والضعف والاستكانة لما أصابهم في سبيل الله من استيلاء العدو، ولهذا قال: ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ﴾ إلخ. . . ولم يقل: فما وهنوا لقتل النبي، ولو قتل وهم أحياء لذكر ما يناسب ذلك، ولم يقل: «فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله» ومعلوم أنَّ ما يصيب في سبيل عامة الغزوات لا يكون قتل نبي.

وأيضاً فكون النبيّ قاتل معه أو قتل معه ربيون كثير لا يستلزم أن يكون النبي معهم في الغزاة بل كل من اتبع النبي وقاتل على دينه فقد قاتل معه، وكذلك كل من قتل على دينه فقد قتل معه، وهذا الذي فهمه الصحابة، فإن أعظم قتالهم كان بعد وفاته ﷺ، حتى فتحوا البلاد، شاماً ومصراً وعراقاً ويمناً، وعجماً، ودوماً، ومغرباً، ومشرقاً، وحينئذ فظهر كثرة من قتل معه، فإن الذين قاتلوا وأصيبوا وهم على دين الأنبياء كثيرون، ويكون في هذه الآية عبرة لكل المؤمنين إلى يوم القيامة، فإنهم كلهم يقاتلون مع النبي ﷺ على دينه، وإن كان قد مات، والصحابة الذين يغزون في السرايا والنبي ليس معهم كانوا معه يقاتلون وهم في داخلون في قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ الآية، وفي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ﴾ الآية، ليس من شرط من يكون مع المطاع أن يكون مشاهداً للمطاع ناظراً إليه.

وقد قيل في (ربّيّون) هنا: أنهم العلماء، لما جعل هؤلاء هذا كلفظ الرباني، وعن ابن زيد: هم الأتباع كأنه جعلهم المربوبين، والأول أصح من وجوه:

أحدها: أن الربانيين عين الأحبار، وهم الذين يربون الناس، وهم أئمتهم في دينهم، ولا يكون هؤلاء إلا قليلاً.

الثاني: أن الأمر بالجهاد والصبر لا يختص بهم، وأصحاب الأنبياء لم يكونوا كلهم ربانيين، وإن كانوا قد أعطوا علماً ومعه الخوف من الله.

الثالث: أن استعمال لفظ الرباني في هذا ليس معروفاً في اللغة.

الرابع: أن استعمال لفظ الرُّبِّي في هذا ليس معروفاً في اللغة، بل المعروف فيها هو الأول، والذين قالوه قالوا هو نسبة للرب بلانون، والقراءة المشهورة (رِبِّي) بالكسر، وما قالوا إنما يتوجه على قراءة من قرأه بنصب الراء، وقد قرئ بالضم، فعلم أنها لغات.

الخامس: أن الله تعالى يأمر بالصبر والثبات كل من يأمره بالجهاد، سواء كان من الربانيين أو لم يكن.

السادس: أنه لا مناسبة في تخصيص هؤلاء بالذكر، وإنما المناسب ذكرهم في مثل قوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ الآية، وفي قوله: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ فهناك ذكرهم به يكون مناسباً.

السابع: قيل أن الرباني منسوب إلى الرب، فزيادة الألف والنون كاللحياني، وقيل: إلى تربيته الناس، وقيل إلى ربان السفينة، وهذا أصح، فإن الأصل عدم الزيادة في النسبة، لأنهم منسوبون إلى التربية، وهذه تختص بهم.

وأما نسبتهم إلى الرب فلا اختصاص لهم بذلك، بل عبد له فهو منسوب إليه إما نسبة عموم أو خصوص، ولم يسم الله أولياءه المتقين ربانيين، ولا سمى رسله وأنبياءه، فإن الرباني من يربي الناس، كما يربي الرباني السفينة، ولهذا كان الربانيون يذمون تارة، ويمدحون أخرى، ولو كانوا منسوبين إلى الرب لم يذموا قط، وهذا هو الوجه.

الثامن: أنها جعلت مدحاً، فقد ذُموا في مواضع، وإن لم تكن مدحاً لم يكن لهم خاصة يمتازون بها من جهة المدح، وإذا كان منسوباً إلى رباني السفينة بطل قول من يجعل الرباني منسوباً إلى الرب، فنسبة (الربيون) إلى الرب أولى بالبطلان.

التاسع: أنه إذا قدر أنهم منسوبون إلى الرب فلا تدل النسبة على أنهم علماء، نعم، تدل على إيمان وعبادة وتألُّه، وهذا يعم جميع المؤمنين، فكل من عبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً، فهو متألِّه، عارف بالله، والصحابة كلهم كذلك ولم يسمّوا ربانيين، ولا رِبيُّون، وإنما جاء أن ابن الحنفية قال لما مات ابن عباس: اليوم مات رباني هذه الأمة، وذلك لكونه يؤدبهم بما آتاه الله من العلم، والخلفاء أفضل منه، ولم يسموا ربانيين، وإن كانوا هم الربانيين،

وقال إبراهيم: كان علقمة من الربانيين، ولهذا قال مجاهد: هم الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره، فهم أهل الأمر والنهي، والأحبار يدخل فيه من أخبر بالعلم ورواه عن غيره، وحدث به، وإن لم يأمر أو ينه، وذلك هو المنقول عن السلف في الرباني، نقل عن علي: هم الذين يغذون الناس بالحكمة ويربونهم عليها. وعن ابن عباس قال: هم الفقهاء العلماء الحكماء. قال ابن قتيبة: وأحدهم رباني، وهم العلماء المعلِّمون. قال أبو عبيد: أحسب الكلمة عبرانية أو سريانية، وذلك أن أبا عبيد زعم أن العرب لا تعرف الربانيين. قلت: اللفظة عربية منسوبة إلى ربان السفينة الذي ينزلها ويقوم لمصلحتها، ولكن العرب في جاهليتهم لم يكن لهم ربانيون، لأنهم لم يكونوا على شريعة منزلة من الله عز وجل.

وكان رحمه الله تعالى في علوم العربية آية من آيات الله في الإحاطة بفنونها، وقد ذكر مترجمو حياته أنه وقع له مع أبي حيان المفسر النحوي صاحب كتاب البحر في التفسير قصة تدل على سعة اطلاعه وطول باعه في معرفة دخائل العربية.

وكان أبو حيان مفتوناً بسيبويه إمام العربية، ينكر على من يغمزه بخطأ في العربية، وكان أبو حيان عارفاً بفضل ابن تيمية يقدِّره ويعرف مكانته من العلم والمعرفة، ولكنه سمع ابن تيمية مرة يخطّئ سيبويه في مسألة من كتابه. فعظم ذلك على أبي حيان واشتد على ابن تيمية في إنكاره أن يكون سيبويه مخطئاً، مما حمل ابن تيمية على النظر في كتاب سيبويه نظرات ناقدة. فاستخرج منه عدة مواضع كشف فيها عن خطأ سيبويه.

وحسب ابن تيمية حجة في براعته اللغوية فصاحة أسلوبه في المناقشة والجدل وإملاء كتبه ورسائله وفتاويه. وهي بالقدر الذي لم يذكر التاريخ أن أحداً خَلَّف مثلها كيفاً وكمّاً.

وقد يكون غريباً أن يقف ابن تيمية للفلاسفة يناقشهم وينقض عليهم فلسفتهم بأسلوبهم ومنطقهم، فقد تعرض لابن سينا وآرائه، وناقش ابن رشد فيما ذهب إليه في كتابه (فصل المقال) وغيره، مناقشة الخبير بطرائقهم، وفضح رسائل (إخوان الصفا)، ونقد المتكلمين من جميع الفرق، وفند آراءهم المخالفة لنهج الكتاب والسنة، وانتقد أبا حامد الغزالي في انحيازه إلى الفلاسفة في بعض المسائل، وإن كان يعترف له بأنه لم يكن يوافقهم في كل ما يقولون.

وفي ذلك يقول ابن تيمية: «كان أبو حامد مع مايوجد في كلامه من الرد على الفلاسفة وتكفيره لهم وتعظيمه النبوة، ومع ما يوجد منه من أشياء حسنة بل عظيمة القدر نافعة، يوجد في بعض كلامه مادة فلسفية وأمور أُضيعت توافق أصول الفلاسفة المخالفة للنبوة، بل المخالفة لصريح العقل. وينقل ابن تيمية عن أبي عبد الله المازري، وكان من أشد خصوم الغزالي قوله:

ووجدت هذا الغزالي يعوِّل على ابن سينا في أكثر ما يشير إليه في علوم الفلسفة حتى أنه في بعض الأحيان ينقل نص كلامه من غير تغيير وأحياناً يغيره وينقله إلى الشرعيات أكثر مما نقل ابن سينا لكونه أعلم بأسرار الشريعة منه، فعلى ابن سينا ومؤلف رسائل إخوان الصفا عوَّل الغزالي في علم الفلسفة».

ولابن تيمية موقف إسلامي عظيم مع الشيعة الرافضة والنصرانية الملحدة والباطنيـة الكافرة أبان فيه عن إلحادهم وكشـف كذبهم، وجعل من كتابه (المنهاج) آية على أن هذه الطوائف الخبيثة التي ينتسب بعضها إلى الإسلام زوراً هي أعدى أعداء الإسلام.

ولم يقف معهم عند حدِّ كشف باطلهم علمياً، ولكنه أبان عن عوارهم السياسي وخبثهم في دسائسهم ضد الإسلام والمسلمين، وأنهم كانوا أعوان أعداء الإسلام من الصليبيين الحاقدين ومن التتار المتوحشين، وأن خبيثهم ابن العلقمي وزير الخلافة العباسية في أيام احتضارها على يدي المستعصم هو الذي خان الإسلام والبلاد وفتح أبـواب بغداد لهؤلاء الوحـوش المغوليين حتى قضـوا على الخلافـة الإسـلامية قضاء نهائياً، بل قضوا على الفكر الإسـلامي وآثاره مـن التراث العلمي التي عبثوا بها عبثاً بغيضاً منكراً، وأعملوا سلاح الفتك بالعلماء يقتلونهم ويشرِّدونهم.

ولو لم يقيض الله تعالى ملوك مصر وجندها بتحريض الإمام المجاهد الصابر المحتسـب ابن تيميـة فردوهم عن بلاد الإسـلام مدحورين، لما بقي على الأرض أثر للخير والهدى، ولكن الله تعالى الذي أنزل كتـابه المجيد هدى ورحمـة للعالمين، ورضي لعبـاده الإسلام ديناً ـ ألقى في روع الإمام ابن تيمية أن ينفر إلى سلطان مصر الناصر قلاوون بعد هزيمتـه أمام التتار، ولم يـزل به يقوِّي عزيمته ويستنهض همته، ويوقظ دعائم الإيمان في قلبه، ويَعِدَه بنصر الله حتى شرح الله صدر هذا السلطان وجهز كتائبه وعاد إلى الشام لملاقاة

الوحوش التتارية، فحاربهم حرباً مريرة كان فيها ابن تيمية جندياً مجاهداً أو فارساً مُعْلَماً، يقف موقف الموت في صدر أبطال الحملة الإسلامية، وقد نصر الله جنده وهزم الباطل وحزبه، وعادت كلمة الإسلام مدوية في الآفاق، ولم تقم لدولة الباطل المتوحش قائمة بعد هذا النصر الإسلامي المؤزر الذي كان بطله الحقيقي هذا الإمام العالم الذي رباه الإسلام بتعاليمه وأدبه فأحسن تربيته.

ولم يقف أثر هذا النصر عند حد الهزيمة للمتوحشين التتار؛ ولكنه فتح أمامهم باب الهداية فدلفوا إلى الإسلام يدخلون فيه أفواجاً، حتى أصبحوا من أهله وأنصاره، وأقاموا في ظله المؤمن الموحد، وهذا من عجيب صنع الله ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾.

كان من أشد المحن التي لقيها الإمام ابن تيمية في حينه موقفه من (متصوفة) عصره، فقد حاربوه بألسنتهم وأيديهم، وأغروا به السفهاء حتى نالوا منه بأيديهم، وهذا أقسى ما يلقاه داعية إلى الله تعالى، وقد كان الإمام ابن تيمية كريماً مع أعدائه الذين آذوه بألسنتهم وأيديهم. لأنه كان يعيش للحق، يرفع لواءه، وينشره بين الناس، وهو أعرف العارفين بما لقي سيد الخلق محمد ﷺ في سبيل الدعوة إلى الله، ولم يكن يقابل أشد الإيذاء من السفهاء إلا بالتضرع إلى الله أن يهدي قومه، ويعتذر إلى الله عنهم بأنهم لا يعلمون، فكانت له برسول الله ﷺ أعظم الأسوة.

ذكر بعض من ترجم له أن بعض محبيه ومقدِّري فضله من عامة

أهل مصر أرادوا أن يدافعوا عنه بمثل ما أوذي به فأبى عليهم أشد الإباء، وقال لهم في مدافعتهم عن مقابلة السفهاء بمثل عملهم: إما أن يكون الحق لي، أو لكم، أو لله، فإن كان الحق لي فهم في حلٍّ منه، وإن كان الحق لكم فإن لم تسمعوا مني فلمَ تستفتوني؟ افعلوا ما شئتم، وإن كان الحق لله، فالله يأخذ حقه إن شاء.

والمتصوفة الذين حاربهم ابن تيمية هم أرباب الشطح الذين فلسفوا (التصوف) العملي، وجعلوه مذهباً نظرياً، يشطحون فيه بما يخالف شريعة الإسلام، بل بما يناقض الشرائع الإلٰهية كلها، وينقضها من أساسها، فقد جعل كثير منهم هَجِيراه الكلام في وحدة الوجود، وظهر من بعضهم كلمات شديدة لا تقبل التأويل، وقد تبع ذلك شيوع الخرافات والأساطير، وغرق العامة في الدعاوى الكاذبة والأباطيل، تقال باسم الدين، والدين منها بريء؛ فشمَّر لهم، وأنكر عليهم أشد الإنكار، وجاهر بإنكاره وتفنيد باطلهم، ونهض لمحاربتهم بالحجة والبرهان، وكان شيوخ المتصوفة المعاصرون له الذين يتبعون مذهب وحدة الوجود على صلة سياسية بالسلاطين، يقودون بهم الشعب بزمام السيطرة القلبية والسلطان الروحي. ولكن ابن تيمية لا يعرف المداهنة في الحق، فلم يسكت على هذا الباطل، وناضل عن آرائه وعقيدته، وناظر شيوخهم فحجَّهم، فعمدوا إلى إيذائه، وشكوه إلى السلطان وافتروا عليه الكذب، واختلقوا عليه الأقاويل، فحُبس وضُيِّق عليه في حبسه، ولكنه مضى في سبيله قُدُماً، يجهر بكلمة الحق، فتخرج من وراء أسوار سجنه داوية، وكان يعلن عن تكفير كل من يذهب إلى القول بوحدة الوجود، أو القول

بالحلول والاتحاد، ويُبَدِّع كل مَن يخرج على السُّنَّة المطهرة في عمل أو عبادة.

وقد اتصل ذلك بمسألة حساسة لدى جمهور المسلمين، أثارها عليه هؤلاء المتصوفة، وهي فتواه الحموية؛ وقد أُمتحن امتحاناً شديداً بما جاء فيها، وكان أشد ذلك على قلوب الجمهور قوله بالمنع من زيارة الروضة المشرفة، وشد الرحال لزيارة قبر رسول الله ﷺ، وقوله بعدم جواز الاستغاثة بأحد من المخلوقين: نبي أو ولي. وأن الاستغاثة حق لوحدانية الله تعالى المنفرد بتدبير ملكه، ونفع العباد أو ضرهم؛ كإحيائهم، وإماتتهم، ورزقهم.

وابن تيمية لا ينكر (الصوفية) بمعنى السلوك الخلقي، والنهج العملي الذي يحقق تطبيق الحقائق الشرعية تطبيقاً عملياً، بإخلاص العبادة والعمل لله تعالى، سواء وضع تحت هذا العنوان أم لم يوضع تحته.

وقد بحث ابن تيمية في لفظ (الصوفية) و(الصوفي) ومرد ذلك من اللغة والتاريخ، فلم يجد له مساغاً لغوياً إلا على أنه نسبة للصوف الذي كان أكثر وأظهر لباس الزهاد في الإسلام، فعُرفوا به تمدُّحاً، وقد جاء في كلام الحسن البصري الذي رواه عنه أبو نُعيم في الحلية: لقد أدركت سبعين بدرياً أكثر لباسهم الصوف؛ ولم يظهر هذا اللقب كعنوان على طائفة مسلمة لها صفاتها وخصائصها ومعارفها ومصطلحاتها إلا في أواخر القرن الثالث الهجري، أما قبل ذلك فلم يكن إلا الزهد والتقلل من الدنيا، وإخلاص العبادة لله من قوم اعتزلوا

المجتمع إلى زوايا العبادة، وتشددوا في أخذ أنفسهم بهذا التشدد.
ويقول ابن تيمية في فتاويه ـ وقد سئل عن التصوف ـ: «أما لفظ (التصوف) فإنه لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك؛ وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ كالإمام أحمد بن حنبل وأبي سليمان الداراني وغيرهما، وقد روي عن سفيان الثوري أنه تكلم به، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري.

ثم يقول ابن تيمية: أول ما ظهرت الصوفية في البصرة وأول من بنى دويرة للصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد، وعبد الواحد من أصحاب الحسن، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف من الله ونحو ذلك ما لم يكن في سائر أهل الأمصار... ولهذا غالب ما يحكى من المبالغة في هذا الباب إنما هو عن عُبَّاد أهل البصرة، مثل حكاية من مات أو غشي عليه في سماع القرآن ونحوه كقصة زرارة بن أوفى قاضي البصرة فإنه قرأ في صلاة الفجر ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ فخر ميتاً... فلما ظهر ذلك أنكره طائفة من الصحابة والتابعين... والمنكرون يظنون أن ذلك تَكَلُّف وتصنُّع أو أنه بدعة لم يعرف من هدى الصحابة.

ثم يقول ابن تيمية: «والذي عليه جمهور العلماء أن الواحد من هؤلاء إذا كان مغلوباً عليه لم ينكر عليه وإن كان حال الثابت أكمل منه، ولهذا لما سئل الإمام أحمد عن هذا فقال: قرئ القرآن على يحيى بن سعيد القطان فغشي عليه، ولو قدر أحد أن يدفع هذا عن

نفسه لدفعه يحيى بن سعيد فما رأيت أعقل منه» .

وقد نُقل عن الشافعي أنه أصابه ذلك، وعلي بن الفضيل بن عياض قصته مشهورة، وبالجملة فهذا كثير ممن لا يُستراب في صدقه . . . وقد يذم حالَ هؤلاء مَنْ فيه من قسوة القلوب والرين عليها والجفاء عن الدين ما هو مذموم، وقد فعلوا، ومنهم من يظن أن حالهم هذا أكمل الأحوال وأتمها وأعلاها . وكلا طرفي هذه الأمور ذميم .

ثم قال الإمام ابن تيمية : بل المراتب ثلاث :

إحداها : حال الظالم لنفسه الذي هو قاسي القلب، لا يلين للسماع والذكر . وهؤلاء فيهم شبه من اليهود؛ قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ الآية، وقال تعالى : ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ .

الثانية : حال المؤمن التقي الذي فيه ضعف عن حمل ما يرد على قلبه، فهذا الذي يصعق صعق موت أو صعق غَشِيٍّ، فإن ذلك إنما يكون لقوة الوارد وضعف القلب عن حمله .

الثالثة : حال من لم يزُلْ عقله مع أنه حصل له من الإيمان ما حصل لهم أو مثله أو أكمل منه، فهو أفضل منهم وهذه حال الصحابة رضوان الله عليهم .

ثم قال : والمقصود أن هذه الأمور التي فيها زيادة في العبادة

والأحوال خرجت من البصرة، وذلك لشدة الخوف من الله، فإن الذي يذكرونه من خوف عتبة الغلام وعطاء السلمي وأمثالهما أمر عظيم، ولا ريب أن حالهم أكمل وأفضل ممن لم يكن عنده من خشية الله ما قابلهم أو تفضل عليهم.

ثم قال: والتصوف عندهم له حقائق وأحوال معروفة... وهم يسيرون بالصوفي إلى معنى الصدّيق... ولهذا ليس عندهم بعد الأنبياء أفضل من الصوفي، لكن هو في الحقيقة نوع من الصدِّيقين... ثم قال: والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرّب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين. وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم كالحلاج مثلاً، فإن أكثر مشائخ الطريق أنكروه وأخرجوه عن الطريق مثل الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيره.

ويقول ابن تيمية في موضوع آخر: نعم للمؤمنين العارفين بالله المحبين له من مقامات القرب ومنازل اليقين ما لا تكاد تحيط به العبارة ولا يعرفه حق المعرفة إلا من أدركه وناله. والربّ ربّ، والعبد عبد، ليس في ذاته شيء من مخلوقاته ولا في مخلوقاته شيء من ذاته، وليس أحد من أهل المعرفة بالله يعتقد حلول الربّ تعالى به أو بغيره من المخلوقات، وإن سمع شيء من ذلك منقول عن بعض أكابر الشيوخ فكثير منه مكذوب اختلقه الأفاكون الاتحادية المباحية، الذين أضلهم الشيطان وألحقهم بالطائفة النصرانية.

ومن هذه التلخيصات التي قبسناها من نصوص كلام الإمام ابن تيمية في فتاويه وهي مطبوعة بين أيدي طالبيها يتبين ما يأتي:

أولاً ـ أنه كغيره حاول أن يرد لفظ (التصوف) و(المتصوفة) و(الصوفي) و(الصوفية) إلى أصل لغوي في الاشتقاق والنسبة، فلم يجد ما يمكن أن يكون أصلاً يرجع إليه هذا اللفظ رجوعاً لغوياً صحيحاً سوى (الصوف)، ونقل عن بعض الأشياخ أن (الصوف) كان اللباس الغالب على أهل الزهادة المتشددين في العبادة المعرضين عن الدنيا وزخارفها.

ثانياً ـ أنه يرى أن هذا اللفظ كان منذ القرن الأول يدور على ألسن بعض الأشياخ من التابعين كالحسن البصري وأصحابه، مثل عبد الواحد بن زيد وتلاميذه، ومثل سفيان الثوري، وأنه ظهر أكثر في عهد تابع التابعين، وذكر منهم الإمام أحمد وأبو سليمان الداراني وغيرهما، ثم اشتهر اللفظ وعرفت به طائفة من العُبَّاد بعد القرن الثالث، وأكثر ما كانوا في البصرة، وكان يغلب عليهم الخوف وإذا سمعوا القرآن أو الذكر أخذتهم غشية أو صعقة، وذكر أمثلة لذلك أقرها ولم ينكرها.

ثالثاً ـ أنه يؤخذ من كلامه أنه لا يرى إبقاء هذا اللفظ عنواناً على طائفة من العُبَّاد، لأنه لم يرد في القرآن ولا في السنة، ولا عرف في عهد الصحابة رضوان الله عليهم، وأن المعنى الذي يدور عليه عند القائلين به هو معنى الصدّيقين الذي ورد في القرآن والياً لوصف النبوة في ذكر طوائف أكمل المؤمنين، ولم يُستفد من كلامه أن لفظ

(الزهد) و(الزهاد) يمكن أن يؤديه لفظ (الصوفي) و(الصوفية) عند القائلين به.

رابعاً ـ أن الإمام ابن تيمية ذكر أن للتصوف مراتب وأحوالاً، وأن المخلصين من هذه الطائفة مجتهدون في طاعة الله، وإذا جاء عنهم شيء لا يقبل ظاهره في الشرع عُذروا فيه بأنهم قالوه لغلبة الوارد على قلوبهم وضعفها عن احتماله، وأن الثابتين الذين لا يعتريهم من غلبة الوارد شيء يغطي عقولهم أكمل من أولئك الضعفى.

خامساً ـ أن الذين خرجوا بسلوكهم وأقاويلهم ممن ينتسب إلى هذه الطائفة إلى تقرير أمور تتعارض مع الإسلام وأحكامه فهم إمَّا مبْتدعون مفارقون للسنة، وإما كفار فَجَرة إن كان ما يقولونه يناقض أصول الدين في العقيدة كالقول بوحدة الوجود أو الحلول والاتحاد، وشيوخ الطائفة صادقو الإيمان كالجنيد وأضرابه، أخرجوا من ديوانهم من يذهب إلى شيء من ذلك كالحلاج وأضرابه.

سادساً ـ أن الإمام ابن تيمية لا يحكم أحكاماً عامة يذهب فيها الطيب مع الخبيث، ولكنه يعدل في أحكامه ويتحرَّى، ويعطي كل ذي حق حقه، فيثني على الذين عرفوا بالصحة والصدق في إيمانهم وعبادتهم ويأخذ عليهم ما خالفوا فيه منبهاً على ضرره في الدين، وذلك كقوله في الحكيم الترمذي أنه تغلب على كلامه الصحة والصدق، ثم نقده نقداً شديداً في وضعه كتاب (ختم الأولياء)، وكقوله في عدي بن مسافر أنه كان رجلاً صالحاً، وأن أتباعه وضعوا

على لسانه عقيدة لم تكن من وضعه وأنها منقولة من كلام غيره، وأنهم وضعوا أسانيد للبس الخرقة الصوفية.

والخلاصة أن ابن تيمية في علمه وفضله لا ينكر على المخلصين من شيوخ الصوفية حالهم، ولكنه حارب في متأخري الطائفة الخروج إلى الابتداع، وحارب من انتسب إليهم من الزنادقة والمتفلسفة الذين أحالوا أصول الإسلام إلى كفريات وحدة الوجود والحلول والاتحاد مما يقول به النصارى وسواهم من الوثنيين.

ويتجلّى من كلام الإمام حرصه على الوقوف في إخلاص شديد مع الكتاب والسنة وما أثر عن أصحاب رسول الله ﷺ من الرسوخ والثبات مع قوة الإيمان.

هذا العرض الموجز لمكانة ابن تيمية العلمية ومعارفه وقيامه بموجب ما حباه الله من فضل هو المَعْلَم الأول الذي يجب أن يتجلّى في نموذج أفضل الدعاة إلى الله تعالى، وعلم ابن تيمية ومعارفه لا يمكن أن يصل أحد إلى مكانه منهما إلا إذا أحاط درساً وبحثاً بجميع ما أثر عنه في مؤلفاته ومناظراته ورسائله، ودون ذلك نفاد أعمر الأفراد قبل الوصول إلى تحقيق البحث في مأثور العلم والمعرفة عن هذا الإمام، فقد بالغ قوم في مؤلفاته وكثرتها مبالغة لو صحت لكانت ضرباً من الإعجاز، وحسب القادرين لمكانة العلم أن يبلغوا الغاية أو قريباً منها في التفقه فيما عرف مطبوعاً أو مخطوطاً متعالَماً دون شك من كتب ومؤلفات الإمام ابن تيمية، وكثير من مؤلفاته وفتاويه ورسائله لم يعثر عليه، والذي عثر عليه لا تزال المطبعة منه في منتصف الطريق.

وقد حاولت جاهداً أن يكون عرضي لموجز هذه المعلومات مستقى من من مطالعاتي الشخصية لما أمكن أن يقع تحت يدي في الماضي والحاضر من مأثور هذا الإمام، ولا يزال الطريق طويلاً يضيء للسالكين.

(وثاني) **المعالم** في شخصية ابن تيمية التي جعلته ـ في نظرنا ـ نموذجاً لأفضل الدعاة إلى الله الذين يجب أن يقتدى بهم هو شجاعته الفائقة، وجرأته في الحق والجهر به، لا يخاف وعيداً وترهيباً، ولا يتلمُّظ إلى وعد وترغيب، وصبره واحتماله الأذى مما لم يعرف لأحد سوى أفراد من أبطال الإسلام، فقد عَرَفَ هذا الإمام منذ أحس بالمسؤولية الإيمانية وواجباتها وهو لا يزال في مَيْعة الشباب أنه مسؤول عن دينه وأمته التي تخوض المحن والبلايا، فلابد أن يكون طليعة لها وقائداً دينياً يقودها إلى طريق عودتها إلى حقيقة إسلامها، تلك الحقيقة التي أضلتها في غمرة المحن والجهالات والأساطير والخرافات، فدرس وبحث وتعمق وتضلَّع، ونهض يقوم بالعبء وحيداً. ولِداته وأقرانه من حوله رضوا بالمقام في دنياهم، يدفعون عن أنفسهم شر المحن والبلايا سلباً، وحسب الفاضلين منهم أن يحتلوا كراسي التدريس في مدارس العلم المنتشرة في عواصم الإسلام. ولا عليهم أن يكون المجتمع على مستوى ما يدرسون له من علم ومعارف تبين حقائق الإسلام وشرائعه؛ ولكن ابن تيمية أبى أن يكون شحنة يفرغ درساً في المدارس والمساجد. وأصل دينه يكلفه تكلفاً ويدفعه دفعاً إلى أن يطبق علمه على عمل أصيل. ولا سيما في

عقيدتهم لأن العقيدة هي الأساس لوزن كل عمل يصدر من المكلفين .

وقد نشاهد في المجتمع أموراً أنكرها علمه ومعرفته، فجاهر بإنكاره، واجتهد في دحض الأباطيل التي كان يراها منسوبة إلى الإسلام، والإسلام منها بريء، واجتهد كذلك في أمور ظهر له فيها من اجتهاده مخالفة من سبقه من الأئمة. فأعلن ذلك وجاهر به. ولم يبال بصيحات المخالفين المتعصبين ولا بقعقعة العامة ولا ببطش الملوك والسلاطين، ولم يتهيّب الألقاب والسمعة، ووقف مع اجتهاده يناضل عنه ويجادل الذين يجادلونه، يقرع حجة بالحجة، ويرد الشبهة بالدليل مع ثبات جأش وقوة يقين. لا يهدأ ولا يستكين .

وقد أتعب خصومه، وكانوا من ذوي السمعة العلمية في عصره، وذوي السلطان في الدولة، فعقدوا له مجالس المناظرة فكان يحضرها وحده، وكان خصومه كثرة في العدد، وقوة في التناصر بمكانتهم، وقد خلصوا نجياً يفترون عليه، وكتبوا مرات يشكونه للسلطان. فحُبس وأُطيل حبسه، ولكن علمه لم يحبس؛ فكتب وأعلن عن آرائه، وأطلق من الحبس فعاد إلى الدرس. واستشرى الخصام بينه وبين عدد من فقهاء إلى صوفية إلى فلاسفة إلى شيعة باطنية رافضة، إلى ملاحدة لا يؤمنون بالنبوة والرسالة ولكنهم ينتسبون إلى الإسلام. فلما عجزوا عن محاجَّته آذوه وحرضوا عليه الغوغاء فنالوا منه بأيديهم، وأبى على أنصاره ومريديه أن يشتبكوا معهم لدفع عدوانهم، وترجمته مليئة بالقصص والحوادث التي وقعت له بسبب آرائه العلمية، ولكنه خرج منها كلها أشجع ما يكون، ولكن لم نتعرض لجوانبه السياسية

والعسكرية التي كان يصول فيها ويجول دفاعاً عن الإسلام والمسلمين وفيها تجلَّت شجاعته بما لم يعرف في التاريخ إلا لقلة من أبطال الإسلام قادة وعلماء، ومواقفه مسطورة في ترجمته، فليرجع إليها من شاء.

المعلم الثالث: من معالم الداعية في شخصية الإمام ابن تيمية التي جعلته نموذجاً للداعي إلى الله، صفاء قلبه وإخلاصه في دعوته، لقد كثر خصومه واشتد عليه منهم الأذى، وبلغوا منه في محنته كل مبلغ إلا أن يسكتوه عن قولة الحق جهيرة مسموعة، وكثيراً ما تمكن من ردٍّ عدوانهم عليه، ولكنه عفا عنهم ولم يؤذ أحداً منهم، بل إنه كان يدافع عنهم ويلتمس لهم الأعذار.

وقد كتب بذلك من مصر إلى بعض أصدقائه بدمشق فقال: «تعلمون رضي الله عنكم أني لا أحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين، فضلاً عن أصحابنا بشيء أصلاً، لا ظاهراً ولا باطناً. ولا عندي عتب على أحد منهم، ولا لوم أصلاً، بل لهم عندي من الكرامة والإجلال والمحبة والتعظيم أضعاف ما كان، كل بحسبه، ولا يخلو الرجل إما أن يكون مجتهداً مصيباً أو مخطئاً، أو مذنباً، فالأول مأجور مشكور، والثاني مع أثره على الاجتهاد معفو عنه، والثالث فالله يغفر لنا وله ولسائر المؤمنين» ويقول أيضاً: «لا أحب أن يُنتصر من أحد بسبب كذبه علي، أو ظلمه لي وعدوانه عليّ، فإني قد أحللت كل مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أريده لنفسي. والذين كذبوا وظلموا هم في حِلٍّ من جهتي».

بل لقد سما ابن تيمية بنفسه لأرفع المنازل، فقد أراد السلطان الناصر بن قلاوون سلطان مصر ـ وكان صديقاً للإمام، يعزه ويعظم مكانته ـ أن يأخذ له من أعدائه بعد أن عاد إلى عرشه، وكان قد سلب منه وانحاز بعض خصوم ابن تيمية إلى أعداء الناصر. فسأله عن العلماء والقضاة الذين آذوه، فقال ابن تيمية: إن دماءهم حرام عليه، وأنه لا يحل إنزال الأذى بهم، فقال له السلطان: إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مراراً. فقال له الإمام: من آذاني فهو في حل من جهتي، ومن آذى الله ورسوله، فالله ينتقم منه، وأنا لا أنتصر لنفسي. ثم قال للسلطان: إنك إن قتلتَ هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم.

وقد كان لهذا الموقف الكريم أثره في نفوس هؤلاء القضاة والعلماء الذين ناصروا خصم السلطان عليه، وتوقعوا قتلهم، فلما نجوا قال ابن مخلوف قاضي المالكية بالديار المصرية ـ وكان أشد خصوم ابن تيمية عليه ـ ينطق على لسان سائر القضاة والعلماء من خصوم الإمام: «ما رأينا مثل ابن تيمية، حرّضنا عليه، فلم نقدر، وقَدَر علينا فصفح وحاجَّ عنا».

ولا شك أن هذا من أرفع ما عرف في أخلاق الدعاة إلى الله تعالى، وهو خلق ربَّى عليه سيدنا رسول الله ﷺ الطليعة من الرعيل الأول الذين سبقوا إلى الإسلام، واحتملوا الأذى في سبيل عقيدتهم وإيمانهم.

المعلم الرابع ـ من معالم الداعية ابن تيمية باعتباره نموذجاً لأفضل الدعاة إلى الله تعالى: هو تجافيه عن الدنيا وتباعده عن طلبها

تباعداً فرَّغ عقلَه وقلبَه وجوارحَه إلى العلم والمعرفة. وإلى العمل الإيجابي في تطبيقهما على أحوال المجتمع الإسلامي، فلم يعرف عنه أنه اشتغل بعمل من أعمال الدنيا؛ ليكسب منه مالاً، أو يقتني ضياعاً، ولا عرف عنه أنه تولى عملاً من أعمال الدولة، يتقاضى عليه أجراً، ولكنه أعطى حياته وجهده للدعوة إلى الله تعالى، من طريق العلم.

يقول صاحب الكواكب الدرية: «ماخالط الناس في بيع ولاشراء، ولا معاملة ولا تجارة، ولا مشاركة ولا مزارعة ولا عمارة، ولا كان ناظراً لوقف أو مباشراً لمال. . . ولا كان مُدَّخراً ديناراً ولا درهماً، ولا طعاماً ولا متاعاً، وإنما كانت بضاعته مدة حياته وميراثه بعد وفاته - رضي الله عنه - العلم اقتداء بسيد المرسلين الذي قال: العلماء ورثة الأنبياء، والأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً، ولكن ورَّثوا العلم، فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر».

والله ولي التوفيق.

* * *

الفهــرس

الموضوع	الصفحة

* * *